

الإعلام العربى وقضايا الإرهاب









عبد الرحيم على

الإعلام العربي
وقضايا الإرهاب

عبد الرحيم على



عنوان الكتاب: الإعلام العربي وقضايا الإرهاب
اسم المؤلف : عبد الرحيم على
الناشر : مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات
قطعة رقم ٧٣٩٩ ش٢٨ من ش ٩ ـ المقطم ـ القاهرة
ت ، ف : ٥٠٧٥٩١٧
e.mail : mahrosa@ hotmail.com
المدير العام : فريد زهران
الغلاف للفنان : أنس الديب
تنسيق داخلى : شروق مصطفى
تصحيح لغوى : محمد محمود

رقم الإيداع : ٢٠٠٧/٢٢٥٣
الترقيم الدولى :977-313-157-2

بالاشتراك مع
مشروع كتاب
المركز العربى لدراسة الحركات الإسلامية
٨ هدى شعراوى ـ باب اللوق ـ القاهرة
ت - ف :002-02-3932853
Email :aali_ion@yahoo.com
Website :www.acidsonline.net
مدير عام
عبد الرحيم على

الطبعة الأولى ٢٠٠٧م

الإعلام العربي
وقضايا الإرهاب



مشروع كتاب

المركز العربى لدراسة الحركات الإسلامية

٨ هدى شعراوى – باب اللوق – القاهرة

ت - ف :002-02-3932853

Email :aali_ion@yahoo.com
Website :www.acidsonline.net

إلى الإعلامية الصغيرة / داليا عبد الرحيم

الحقيقة .. واحدة من القيم المهمة
التى يجب أن تحكم ضميرك
وأنت تتلمسين طريقك نحو فضاء الإعلام

مقدمـــــة

لا شك أن قضية الإرهاب تمثل الهم الأكبر الذي يواجـه العـالمين العربـي والإسلامي في المرحلة الراهنة، وخلال عدة عقود سابقة. ومن المنطقي والمبرر – تبعاً لذلك– أن ينشغل بها الإعلام العربي عبر كافة وسائله: التقليـدي منهـا ممـثلاً فـي الصحافة المطبوعة والإذاعة ومحطات التليفزيون الأرضية المحلية، وغير التقليـدي متجسداً في المحطات الفضائية ومواقع وشبكات النت والنشر الإلكتروني.

السؤال الجوهري الذي يتصدى له البحث: بأي قدر، وبأية كيفيـة، عالجـت وسائل الإعلام العربية قضايا الإرهاب؟!. الإجابة الجادة عن مثل هذا السؤال تتطلـب طرح مزيد من الأسئلة ذات الصلة الوثيقة بالسؤال الأساسي:

أولاً: ما هو الأسلوب المتبع في إدانة الظاهرة الإرهابية والكشف عن مثالبهـا ومخاطرها: عاطفي إنشائي؟ تقريري علمي؟ موضوعي عقلي متوازن؟!

ونعني بذلك رصد وتحليل الإطار المهني والفكرى معاً، والنظر إلـى خبايـا وكوامن الخطاب الذي يتم تقديمه: هل تغلب عليه النزعة العاطفية في الإدانة مما يؤدي إلى انعكاس سلبي بالنسبة للمتلقي؟ أم أن المحاولة التقريرية التي تتخذ طابعـاً علميـاً تعني تحقيق مساواة موضوعية بين الإرهاب وأعدائه، وإلى أى حد يمكـن أن يكـون الإعلام متوازناً في مواجهة القضية الخطيرة التي لا تتطلب حياداً متوازناً؟.

ثانياً: هل ثمة مجال لاتخاذ موقف محايد لا يعرف الانحياز، تحت شـعارات تتعلق بالتقاليد والأصول المهنية؟ وإلى أي حد يؤثر مثل هذا الحيـاد علـى تـشكيل الاتجاهات ومواقف الرأى العام؟!

ثالثاً: أليس مطروحاً أن تكون بعض الوسائل والوسائط الإعلاميـة، بـشكل مباشر أو غير مباشر، أقرب إلى تحبيذ الإرهاب والدفاع عنه، أو – علـى الأقـل – تبريره والسعي إلى تجميله؟.

لابد من التسليم بوجود جوانب شتى للإرهاب: اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية، وتتجلى هذه الجوانب في صناعة الظاهرة من ناحية وفي التأثر بها من ناحية أخرى.

الدراسة الحالية تركز على الجانب الإعلامي، فهو العنصر الأبرز في العوامل المشكلة للثقافة، وله دور بالغ الأهمية في تشكيل الرؤى والمواقف السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وللإجابة عن الأسئلة والتساؤلات السابقة، لابد من التوقف أمام ثلاثة معايير أساسية لتحليل وتقييم الدور الذي تقوم به وسائل الإعلام في معالجة قضايا الإرهاب:

أ- الإطاران الكمي والكيفي للتغطية الإعلامية.

ب- القدرة على توظيف الإمكانات الفنية المتاحة لكل وسيلة من الوسائل موضوع البحث.

ج- طبيعة الخطاب المستهدف تقديمه، وهو حصيلة المعيارين السابقين: يتم استنباطه من التحليل الكيفي، ويُدعم التحليل بالدراسة الموضوعية للأدوات والوسائل الفنية.

وفي إطار ما سبق، تظهر عقبتان أساسيتان لضمان المعالجة العلمية المتوازنة:

الأولى: تتمثل في عينة الدراسة ومدى تمثيلها الدقيق لواقع الإعلام العربي.

الثانية: تتجسد في الإطار الزمني الذي تتحرك خلاله الدراسة.

وللتغلب على العقبة الأولى كان لابد من تجاوز الاختيارات القطرية الضيقة، والتوقف أمام الوسائل الأكثر شهرة ونفوذاً وقدرة على التأثير، دون نظر إلى طبيعة انتمائها. أما العقبة الثانية، فلم يكن أمامنا من خيار سوى تحديد الإطار الزمني بهجمات الحادي عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١، على أن ترتبط المراحل التالية بالعمليات الإرهابية الأكثر بروزاً.

وقد وقع الاختيار على قناتين فضائيتين وصحيفتين يوميتين: قناتــا "الجزيــرة" و "العربية"، وصحيفتا "الشرق الأوسط" و "القدس العربي".

وغاية ما يأمل الباحث في تحقيقه أن يكون موفقاً في تقديم اجتهاده عن الــدور الذي قام به الإعلام العربي، ممثلاً في العينة موضــوع الدراســة، لمعالجــة قــضايا الإرهاب، من خلال التوقف أمام مجموعة الحوادث الإرهابية بدايــة مــن تفجيــرات سبتمبر.

الباب الأول

القنوات الفضائية

الجزيـــــــــــــــــرة

الأول

أنشئت قناة "الجزيرة"، التي استمدت اسمها من شبة الجزيرة العربية، في شهر أبريل سنة ١٩٩٦، بدعم من حكومة قطر، وبميزانية تجاوزت ١٥٠ مليون ريال.

ويكون مفيداً وضرورياً أن نتوقف هنا، بشيء من التفصيل، أمام قناة "الجزيرة"، نموذجاً للتداخل الكبير والالتباس بين الدولة ومؤسسات إعلامية، تقف في منطقة غائمة مراوغة بين إعلام الدولة والإعلام المستقل، وهو ما ينعكس بالضرورة على أسلوب معالجة قضايا الإرهاب وطبيعة الموقف تجاهها.

لقد تزايد اهتمام قطر بالإعلام في أعقاب الانقلاب الذي قام به الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني على والده الشيخ خليفة، الذي حكم البلاد منذ عام ١٩٧٢.

وكان من أول القرارات التي اتخذها الأمير الجديد على مستوى الدولة إلغاء وزارة الإعلام بحجة أن الحكومة لا ينبغي أن تملك أو تدير وسائل الإعلام، كما قال حينها وزير خارجية قطر الشيخ حمد بن جاسم، الذي صار نجم المرحلة السياسية الجديدة في حكومة حمد، وظهر شريكاً في التغيير والتحديث. لكن الغريب أنه حدث خلال السنتين اللاحقتين بعد قرار تحرير الإعلام القطري، أنه لم تُحرر أي وسيلة إعلامية حكومية، بل وسعت دائرة سلطتها وتحديداً وزارة الخارجية، التي عظم دورها وكُلفت بإدارة وكالة الأنباء القطرية، ومنحت رخصة جديدة لإصدار صحيفة اسمها "الوطن"، ومحطة تلفزيون جديدة اسمها "الجزيرة"، إضافة إلى إدارة عدد من الوسائل الإعلامية المملوكة كلياً أو جزئياً من قبل الوزارة في الخارج، من بينها صحيفة "القدس" اليومية، ومجلة "المشاهد" الأسبوعية، اللندنيتان.

وكانت بواعث الاهتمام بالإعلام الخارجي لدى الأمير الجديد، خلافه الحاد مع جارته الفقيرة البحرين حول جزيرة (حوار)، التي كادت تبلغ مرحلة الصدام العسكري وشابت العلاقة شبه قطيعة سياسية. وشن البلدان حملات إعلامية ضد بعضهما البعض، استخدمت فيها قطر سلاحها الجديد، محطتها الوليدة "الجزيرة"، للتشهير بالبحرين، ويؤكد أحد المشاركين في بناء المحطة أن اسم (الجزيرة) نفسه عندما اعتمد

للمحطة أثار استغراب المديرين المعينين للقناة، الذين جاءوا من لندن بعد إغلاق محطة البي بي سي العربية، فالاسم لا يعكس معنى إعلامياً، وقد أوضح لهم أنه أطلق حينها للتأكيد على قطرية جزيرة (حوار) محط التنازع بين البلدين، ولم يكن متحدداً بـ "الجزيرة العربية"، وهو التفسير الأكثر شيوعاً وانتشاراً للاسم الذي تحمله القناة القطرية.

إن الوظيفة الإعلامية للقناة وثيقة الارتباط بالهدف السياسي من إنشائها، ولا يمكن فهم عمل الجزيرة دون معرفة الخلفية السياسية للمالك الوحيد، أي الحكومة القطرية، التي ظهر جلياً للجميع أنها تريد أن تلعب دوراً في المنطقة، حيث سخرتها على مدى عشر سنوات لتصفية حساباتها ضد خصومها كالسعودية والبحرين، وفي أوقات مختلفة ضد خصوم متغيرين مثل الأردن ومصر، أو لصالح تحالفات متغيرة كما هو الحال عليه حديثاً مع سوريا وحزب الله وإيران وحماس.

ومن المؤكد أن الجزيرة منذ انطلاقها كانت أكبر امتحان للقيادة القطرية الجديدة التي أثبتت صبرها وتحملها إشكالات المشروع الإعلامي التلفزيوني الجديد، على الرغم من مشاكله وخطورته السياسية. وجاء ليثبت عجز الجانب السعودي، الذي سبق قطر في الفكرة، عندما اشترت شركة الموارد السعودية، والتي لم يكن لها هي الأخرى باع في شؤون الإعلام من قبل، محطة البي بي سي العربية، ثم امتنعت عن تمويلها بعد أن اكتشفت إشكالاتها السياسية. وعقب إغلاق المحطة السعودية البريطانية، انتقل عدد من موظفي البي بي سي العربى ليعملوا في الجزيرة القطرية.

وجاءت المعركة الكبيرة للجزيرة مؤيدة لمالكتها قطر ضد جارتها السعودية التي دخلت معها في معركة حدودية، اتهم فيها البلدان بعضهما البعض. وقد نجحت الجزيرة في شن حملة دعائية ضد جارتها، انتهت بوساطة مصرية في المدينة المنورة، حيث نجح الرئيس حسني مبارك في الجمع بين العاهل السعودي الملك فهد والأمير الشيخ حمد، تنازلت فيها السعودية لقطر. ورغم أن الوساطة المصرية نجحت، فإن

المعركة الإعلامية استمرت، حيث تبنت الجزيرة الحديث بشكل مكثف عن المعارضة السعودية والترويج لها، وقدمت وجوهاً غير مألوفة من قبـل كمعارضـين منحـتهم بريطانيا لاحقاً حق اللجوء السياسي. ولعل أهم معركة خسرتها السـعودية، وكـسبتها قطر، عبر قناة "الجزيرة"، هي العلاقة العسكرية مع الولايات المتحدة التي تعتبر ضلعاً مهماً في اللعبة السياسية في منطقة الخليج منذ أيام شاه إيران. فقد شنت قطـر حملـة مكثفة ضد ما أسمته بالوجود العسكري الأمريكي في بلاد الحرمين، ورغم أن الرياض ردت عليها في أكثر من بيان بأن القوات الأمريكية جاءت مؤقتاً في إطـار مواجهـة صدام وتحرير الكويت، فإن الجزيرة كانت تؤلب الرأي العام ضد الحكومة السـعودية التي اضطرت أخيراً إلى إبعاد القوات الأمريكيـة. والمفاجـأة للجميـع أن القـوات الأمريكية خرجت من قاعدة الخرج بالقرب من الرياض لتحط في العديد، فـي قطـر نفسها. ومع أن الحكومة الأمريكية ضاعفت قواتها وبنت أكبر قاعدة عـسكرية علـى أرض قطر، فإن الجزيرة لم تتحدث أبداً عن الوجود الأمريكي أو تنتقد سياسة القواعد القطرية أو تشير إلى أن قاعدة العديد قد أصبحت رسمياً هي قيادة المنطقة الوسـطى الأمريكية. تلك قصة توضح بشكل جلي أن الحكومة القطرية كانت تريد إلغاء العلاقة العسكرية الأمريكية مع السعودية، ونقل المهمة إلى قطر، وقد استخدمت لهذا الغرض محطتها الجزيرة التى قلبت بالفعل موازين القوى في منطقة الخليج رأساً على عقـب. واستمرت بعدها الجزيرة، تهاجم دون شعور بالتناقض أو المساءلة من قبل الرأى العام المثقف في العالم العربي، المشاريع العسكرية الأمريكية في المنطقة، وهي تقـيم فـي نفس البلد الذي توجد فيه أكبر قاعدة أمريكية!.

وفعلت القناة القطرية الشيء نفسه عندما أسست قطر علاقة دبلوماسـية مـع إسرائيل، وفتحت أول مكتب إسرائيلي في الدوحة، ولم تتعرض له الجزيرة بالنقـد أو النقاش أو الخبر على مدى سنوات وحتى هذا اليوم، رغم أنه لا يكاد يمر يوم واحد لا تندد فيه الجزيرة بالدول العربية التى لها علاقات أو اتصالات بإسرائيل.

ومنذ ظهورها في عام ٩٦ عملت الجزيرة على خطين متوازيين أولهما تقديم خدمة إعلامية في الرأي والخبر في القضايا العربية، وأبرزها عراق صدام، حيث ساندته بشكل واضح رغم أن سياسة قطر نفسها كانت تقف إلى جانب الولايات المتحدة، التي فرضت الحصار وشنت معارك عسكرية لاحقة ضد قوات بغداد. أيضاً تبنت الجزيرة موقفاً واضحاً لصالح جبهة الرفض بقيادة سوريا ضد مشروع الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات بإقامة دولة فلسطينية في أعقاب مفاوضات مدريد، ولاحقاً اتفاق أوسلو. وهنا لابد من القول إن الجزيرة لعبت دوراً مهماً في القضيتين، وعززت موقف صدام في أنحاء العالم العربي، وأفشلت إلى حد كبير مشروع عرفات الذي عرف في البداية باسم غزة – أريحا أولاً، والذي أعاد عملياً الفلسطينيين لأول مرة من المنفى إلى بلدهم المحتل فلسطين. ولابد من التوضيح أن الجزيرة جاءت هبة إلى نظام صدام، وفي وجهة نظر أخرى أنها غررت به. فنظام صدام بعد هزيمة عام ٩١ المروعة وتحرير الكويت، لم يعد له من أسلحة إعلامية، حيث أُغلقت كل وسائله ومن أبرزها صحفه ومجلاته في فرنسا، التي أغلقتها الحكومة الفرنسية فور اندلاع الحرب في عام ٩١، ومنعت معظم الحكومات العربية وسائل إعلامها من الترويج لسياسة صدام حسين على مدى عشر سنوات متواصلة. فكانت الجزيرة نافذة صدام الوحيدة المفتوحة التي وجد فيها أكبر سند للترويج لمعركته الكلامية، والتي اتضح لاحقاً أن الحكومة القطرية، وإن لم تمانعها، إلا أنها لم تكن تسيطر على محطتها التلفزيونية التي انضم إليها خلال تلك الحقبة عدد من الإعلاميين البعثيين والأصوليين المتطرفين. وبعد سقوط نظام بغداد، ظهر من الوثائق العراقية الرسمية تورط عدد من كبار مديري المحطة في العلاقة مع نظام صدام، مالياً وسياسياً. وبعدها سارعت الحكومة القطرية إلى تغيير قيادة الجزيرة وإبعاد محمد جاسم العلي، الإعلامي القطري، وتعيين وضاح خنفر، الفلسطيني الذي عمل مراسلاً للقناة في بغداد، وكان مغموراً وبلا أي خلفية قيادية سابقة.

ومن الأهمية بمكان أن نحيط بطبيعة العلاقة بين المالك، أي الحكومة القطرية، والبضاعة المملوكة، أي قناة الجزيرة، ذلك أن المحطة مملوكة بالكامل، وبشكل رسمي، للحكومة القطرية، وتمولها بميزانية سنوية تتجاوز المائة مليون دولار. وقد أعلنت الحكومة القطرية، في مطلع عام ٢٠٠٦، أنها ستبيع حصصاً من القناة في السوق الدولية، لكنها تراجعت عن الفكرة، وأبقت عليها في إطار وزارة الخارجية.

منذ بداية بثها الفضائي، رفعت الجزيرة شعار "الرأي والرأي الآخر"، وتجسد شعارها عمليا في عديد من البرامج الحوارية التي لم يألفها المشاهد العربي، حيث تتم استضافة رموز لقوى المعارضة في مختلف الأنظمة العربية، من اليمين واليسار، وتتاح لهم فرصة التعبير عن جملة آرائهم وأفكارهم المحجوبة في الإعلام العربي الرسمي.

ومن ناحية أخرى، انفتحت قناة "الجزيرة" على العالم الخارجي، واستضافت برامجها عددا كبيرا من الخبراء والمحللين والساسة من كافة أنحاء العالم، وينتمي بعض هؤلاء إلى إسرائيل، عربا كانوا أم يهودا، ومعبرين عن الحكومة الإسرائيلية أو معارضين لها.

مثل هذا التوجه غير المسبوق، أثار لغطا وجدلاً حول الأهداف الحقيقية للقناة وطبيعة توجهاتها. من الناحية الرسمية، تعرضت القناة لعداء معظم الحكومات العربية، واتهمت بتشجيع المعارضة من ناحية، والإساءة إلى الحكام والقادة من ناحية أخرى. وتعرضت بعض مكاتب "الجزيرة" في عدد من العواصم العربية إلى الإغلاق المؤقت، بتهمة بث أخبار مغرضة أو غير صحيحة.

ومن الناحية الشعبية، حظيت القناة باهتمام واسع وترحيب قوي من قطاعات جماهيرية مختلفة، ذلك أنهم رأوا فيها ما يشبه الثورة الشاملة والانقلاب الكامل ضد المنظومة الإعلامية العربية التقليدية. وليس أدل على ذلك النجاح من نتائج الدراسة التي قام بها الدكتور عادل عبد الغفار، وقدمها إلى المؤتمر العلمي الأول لقسم الإذاعة

في كلية الإعلام بجامعة القاهرة، وعنوانها: "مصادر معلومات طلاب الجامعات المصرية لمتابعة أحداث الحادي عشر من سبتمبر وتوابعها". توصل الباحث إلى أن القنوات الفضائية جاءت في المرتبة الأولى من حيث الأهمية، متفوقة على الصحف والمجلات العربية، "وجاءت قناة الجزيرة في مقدمة المصادر العربية التي اعتمد عليها أفراد العينة في متابعة الأزمة، وجاءت قناة MBC في المرتبة الثانية من حيث الأهمية، تلتها قناة أبو ظبي. ويتضح من نتائج الدراسة أن قناة الجزيرة تحظى بنسبة تكرار عالية من حيث درجة الاعتماد عليها في متابعة الأزمة محل الدراسة، وتعطي هذه النتيجة مؤشرا مهما حول المكانة التي أضحت تتمتع بها هذه القناة كمصدر للأخبار عموما، وحول هذه الأزمة خصوصا. ورغم التحفظ على بعض توجهات قناة الجزيرة، وعلى سياستها التحريرية في بعض الأوقات، وأسلوب معالجتها لبعض القضايا، إلا أنها احتلت مكانة بارزة بين المصادر الإخبارية، وكانت بمثابة الصوت الواضح الذي قدم وجهات النظر الأخرى المخالفة لوجهة النظر الأمريكية في أحداث ١١ سبتمبر وتوابعها المختلفة، وأمكن التعرف من خلالها على بعض الآراء والمعلومات التي لم يكن من المتاح معرفتها للجمهور العام من خلال القنوات المعبرة عن الدول الغربية. وعلى مستوى الاعتماد على باقي المصادر العربية يتضح ضعف الاعتماد على الإذاعات العربية والصحف والمجلات العربية كمصادر اعتمد عليها الطلاب في متابعة أحداث ١١ سبتمبر وتوابعها".[١]

وعلى الرغم من هذا التأثير الذي لا يمكن إنكاره أو تجاهله، فقد أبدت قطاعات أخرى تحفظات على سياسة "الجزيرة" في انفتاحها على إسرائيل، ووجدوا أن ذلك بمثابة الالتفاف غير المباشر لتحقيق درجة من التطبيع المرفوض شعبيا. ولم يخل الأمر من مقولات تذهب إلى أن القناة ليست سوى أداة لترويج سياسة الحكومة القطرية، و"تلميع" صورتها إعلاميا، توافقا مع رغبة القادة القطريين في أن يلعبوا دورا، على الساحة السياسية الإقليمية والدولية، يتجاوز حجمهم المحدود. ومن ذلك ما

يذكره الدكتور مأمون فندي، في مقاله: "الرجاء عدم الاتصال!"، حيث يشكك في مصداقية وديمقراطية القناة، ويتهمها بالترويج للوهم: "ممن يشترون مشروع الحرية والديمقراطية في قطر ويدافعون عنه بسذاجة، ثم يكتشفون أنهم في دولة يتم فيها تحديد من يظهر ومن لا يظهر في قناة الجزيرة".

ويضيف الدكتور مأمون: "أنتم قناة لا تأتي بالخبر، وإنما ترسل إليها الأخبار والأشرطة، أشرطة بن لادن وأشرطة السيد حسن وأشرطة المقاومة المعدة سلفا!".[٢]

وإذا كان الاتهام بالسلفية والترويج للأفكار المتشددة والمتطرفة قد تردد بشأن القناة، واستند القائمون بالاتهام إلى تبني "الجزيرة" لبعض المذيعين ومقدمي البرامج والمراسلين من أصحاب التوجهات الإسلامية، مثل أحمد منصور وتيسير علوني، فإن الممارسة الفعلية تبرهن على أن كثيرا من العاملين في القناة، فضلا عن الضيوف المشاركين في برامجها، ينتمون إلى اتجاهات ليبرالية وعلمانية ويسارية، فضلا عن التنوع الديني ممثلا في الوجود المتوازن للمسلمين والمسيحيين.

وتبقى الإشارة إلى التفوق "المهني" لقناة "الجزيرة"، فعلى الرغم من اشتعال الخلاف حول تقييمها، سياسيا وفكريا، فإنه لا يمكن إنكار حقيقة أنها تقدم عملا إعلاميا احترافيا، قادرا على المنافسة العالمية في عصر الفضائيات، وهو الدور الذي تخلفت عنه قنوات الإعلام الرسمي.

فلسفة "الجزيرة" :

في موقع "الجزيرة" الرسمي على شبكة المعلومات الالكترونية، يعرف القائمون على القناة عملهم الإعلامي بأنه "خدمة إعلامية عربية الانتماء عالمية التوجه، شعارها الرأي والرأي الآخر، وهي منبر تعددي ينشد الحقيقة ويلتزم المبادئ المهنية في إطار مؤسسي، تسعى إلى نشر الوعي العام بالقضايا التي تهم الجمهور، وتطمح إلى أن تكون جسرا بين الشعوب والثقافات، يعزز حق الإنسان في المعرفة وقيم التسامح والديمقراطية واحترام الحريات وحقوق الإنسان".[٣]

وتتكرر الإشارة إلى فلسفة قناة "الجزيرة" في كثير من برامجها، وبصياغات متقاربة لمقدمي هذه البرامج. وفي إحدى حلقات برنامج "قضايا الساعة"، يقدم الأستاذ محمد كريشان صياغة دقيقة لفلسفة القناة وسياستها الإعلامية، في قوله: "سياسة الجزيرة المنحازة دائما لحق المشاهد في الحصول على الحدث كاملا، دون تلوين، أيا كان مصدره، ومهما تعارض مع سياسات بعينها".(٤)

وقد وضعت "الجزيرة" مؤخرا ميثاق شرف مهني، يتضمن المبادئ التالية:

١- التمسك بالقيم الصحفية من صدق وجرأة وإنصاف وتوازن واستقلالية ومصداقية وتنوع دون تغليب للاعتبارات التجارية أو السياسية على المهنية.

٢- السعي للوصول إلى الحقيقة وإعلانها في تقاريرنا وبرامجنا ونشراتنا الإخبارية بشكل لا غموض فيه ولا ارتياب في صحته أو دقته.

٣- معاملة جمهورنا بما يستحقه من احترام والتعامل مع كل قضية أو خبر بالاهتمام المناسب لتقديم صورة واضحة واقعية ودقيقة مع مراعاة مشاعر ضحايا الجريمة والحروب والاضطهاد والكوارث وأحاسيس ذويهم والمشاهدين واحترام خصوصيات الأفراد والذوق العام.

٤- الترحيب بالمنافسة النزيهة الصادقة دون السماح لها بالنيل من مستويات الأداء حتى لا يصبح السبق الصحفي هدفا بحد ذاته.

٥- تقديم وجهات النظر والآراء المختلفة دون محاباة أو انحياز لأي منها.

٦- التعامل الموضوعي مع التنوع الذي يميز المجتمعات البشرية بكل ما فيها من أعراق وثقافات ومعتقدات وما تنطوي عليه من قيم وخصوصيات ذاتية لتقديم انعكاس أمين وغير منحاز عنه.

٧- الاعتراف بالخطأ فور وقوعه والمبادرة إلى تصحيحه وتفادي تكراره.

٨- مراعاة الشفافية في التعامل مع الأخبار ومصادرها والالتزام بالممارسات الدولية المرعية فيما يتعلق بحقوق هذه المصادر.

٩- التمييز بين مادة الخبر والتحليل والتعليق لتجنب الوقوع في فخ الدعاية والتكهن.

١٠- الوقوف إلى جانب الزملاء في المهنة وتقديم الدعم لهم عند الضرورة وخاصة في ضوء ما يتعرض له الصحفيون أحيانا من اعتداءات أو مضايقات والتعاون مع النقابات الصحفية العربية والدولية للدفاع عن حرية الصحافة والإعلام.(٥)

الموقف من الإرهاب:

تلعب القنوات الفضائية، ووسائل الإعلام بشكل عام، دورا بالغ الأهمية في ترسيخ الصورة النمطية عن الإعلام والموقف منه، ويتزايد الدور مع تعاظم وتنامي شعبية وانتشار الوسيلة الإعلامية. وفي هذا الإطار، تنبغي الإشارة إلى مفهومي: "الموقف من الإرهاب" و"الصورة النمطية". المقصود من "الموقف من الإرهاب" هو وجهة نظر القناة التليفزيونية تجاه الأحداث الإرهابية التي تغطيها، ومدى إطلاق لفظ "إرهاب" على هذه الأحداث، ومدى تبني برامج القناة وتقاريرها الإخبارية لوجهات النظر الأمريكية والأوربية تجاه هذه الأحداث.(٦)

أما الصورة النمطية الذهنية، فيعرفها الدكتور علي عجوة بأنها "الناتج النهائي للانطباعات الذاتية التي تتكون عند الأفراد أو الجماعات، إزاء شخص معين أو نظام معين أو شعب أو جنس بعينه أو منشأة أو مؤسسة أو منظمة محلية أو دولية أو مهنة معينة أو أي شيء آخر يمكن أن يكون له تأثير على حياة الإنسان. وتتكون هذه الانطباعات من خلال التجارب المباشرة وغير المباشرة، وترتبط هذه التجارب بعواطف الأفراد واتجاهاتهم بغض النظر عن صحة المعلومات التي تتضمنها خلاصة هذه التجارب؛ فهي تمثل بالنسبة لأصحابها واقعا صادقا ينظرون من خلاله إلى ما حولهم ويفهمونه أو يقدرونه على أساسها.(٧)

ما الموقف الذي تتخذه "الجزيرة" من الإرهاب؟، وما الصورة النمطية الذهنية التي تسعى إلى تكريسها والانتصار لها؟!.

منذ بداية بثها الفضائي، وإلى الآن، تابعت قناة "الجزيـرة" كافـة الأحـداث الإرهابية، في مختلف أنحاء العالم. والكشف عن موقف القناة من الإرهاب، نظريـا، ومن حوادث بعينها، تطبيقيا، يتطلب اختيار عينة من العمليات الإرهابية التي شـهدها العالم، على أن تكون البداية مع الحدث الأكثر أهمية، ونعني به تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر، التي مثلت مرحلة جديدة في تاريخ الإرهاب الدولي من ناحية، وأسـاليب التصدي لمواجهته من ناحية أخرى.

والأحداث التي نتوقف عندها في دراستنا هذه، هي:

- أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ .
- أحداث طابا "أكتوبر ٢٠٠٤".
- أحداث لندن "٧ يوليو ٢٠٠٥".
- أحداث عمان "٩ نوفمبر ٢٠٠٥".

وقد روعي في الاختيار عاملان: أولهما تاريخي، وثانيهما جغرافي.

من الناحية التاريخية، فإن الأحداث موضوع الدراسة قد وقعت في فترات زمنية متباينة بين عامي ٢٠٠١ و٢٠٠٥، ومن الناحية الجغرافية، فهي موزعة بين الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا، والمنطقة العربية. ولدراسة معالجة قناة "الجزيرة" للعمليات الإرهابية السابقة، سنخصص مبحثا لكل عملية منها، وبذلك يـضم الفـصل أربعـة مباحث: الأول عن أحداث ١١ سبتمبر وتنظيم القاعدة، والرابع عن أحـداث عمـان الأردنية، وبينهما مبحثان آخران عن طابا ولندن.

المبحث الأول

١١ سبتمبر وتنظيم القاعدة

كارثة ١١ سبتمبر هي هجوم انتحاري تعرضت له الولايات المتحـدة فـي ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وقام بتنفيذها ١٩ شخصا على صلة بمنظمة القاعـدة، انقـسم منفـذو العملية إلى ٤ طواقم، وقاموا باختطاف ٤ طائرات مدنية، وكان في كل طاقم شـخص تلقى دروسا في الطيران بمعاهد الملاحة الجوية الأمريكية. تم تنفيذ الهجوم عن طريق اختطاف طائرات نقل مدني تجارية، واستعمالها في الاصطدام بالمباني؛ إذ في تمـام الساعة ٧:٤٨ صباحا بتوقيت نيويورك، اصطدمت طائرة بأحد مباني مركز التجـارة العالمي، وبعدها بدقائق اصطدمت طائرة أخرى بـالمبنى الآخـر. وبعـدها بـدقائق اصطدمت طائرة ثالثة بمبنى وزارة الدفاع الأمريكية البنتاجون. وكان من المفتـرض أن تصطدم طائرة رابعة بهدف رابع، لكن تحطمت الطائرة قبل الوصـول للهـدف. حدثت تغييرات كبيرة في السياسة الأمريكية بعد هذه الهجمات، وكانت هذه الهجمـات دافع أمريكا لإعلان الحرب على الإرهاب، الذي أدى إلى الحـرب فـي أفغانـستان وسقوط حكم طالبان فيها، والحرب على العراق، وإسقاط نظام الحكم هناك أيضا. بعد أقل من ٢٤ ساعة على أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ أعلن حلف شـمال الأطلـسي أن الهجمة على أية دولة عضو في الحلف هو بمثابة هجوم على كـل الـدول الــ١٩ الأعضاء، وكان لهول العملية أثر على حشد الـدعم الحكـومي لمعظـم دول العـالم للولايات المتحدة، ونسي الحزبان الرئيسيان في الكونغرس ومجلس الشيوخ خلافاتهما الداخلية، وكان هناك تباين شاسع في المواقف الرسمية الحكومية لبعض الدول العربية والإسلامية مع الرأي العام السائد في الشارع والذي تراوح بين اللامبـالاة والقناعـة الكاملة بأن الضربة كانت نتيجة ما وصفه البعض "بالتدخل الأمريكي في شئون العالم".

بعد فترة قصيرة من أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وجهت الولايات المتحدة أصابع الاتهام إلى تنظيم القاعدة وزعيمها أسامة بن لادن. في ١٦ سبتمبر ٢٠٠١ صرح بن لادن من على شاشة قناة الجزيرة الإخبارية أنه لم يقم بتلك العملية التي –حسب تعبيره – "قد يكون جماعة لهم أهدافهم الخاصة بهم وراء العملية"، وفي ٢٨ سبتمبر صرح بن لادن في صحيفة الأمة Daily Ummat أنه ليس له أي علاقة بالضربة، ولم يكن له علم بها، ولكن القوات الأمريكية عثرت فيما بعد على شريط في بيت مهدم جراء القصف في جلال آباد في نوفمبر ٢٠٠١، ويظهر أسامة بن لادن وهو يتحدث إلى خالد بن عودة بن محمد الحربي عن التخطيط للعملية، وقد قوبل هذا الشريط بموجة من الشكوك حول مدى صحته، ولكن سرعان ما حسم بن لادن الأمر في عام ٢٠٠٤، ففي تسجيل مصور تم بثه قبيل الانتخابات الأمريكية في ٢٩ أكتوبر ٢٠٠٤ أعلن الرجل مسئولية تنظيم القاعدة عن الهجوم. واستنادا إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي فإن محمد عطا هو الشخص المسئول عن ارتطام الطائرة الأولى ببناية مركز التجارة العالمي في نيويورك، واعتبر خالد شيخ محمد، المعتقل حالياً في واشنطن، المخطط الرئيسي للعمليات الانتحارية التي حدثت ضمن تفجيرات ١١ سبتمبر.

حظي حادث ١١ سبتمبر باهتمام عالمي غير مسبوق، فلم يكن بالعمل الإرهابي العادي المألوف، وانعكس الاهتمام على وسائل الإعلام، التي تابعته بدقة وعناية، وبحثت في جذوره وتداعياته، كما أن الاهتمام به لم يتوقف بعد مرور خمس سنوات على وقوعه.

ولأن حادث ١١ سبتمبر لا ينفصل عن تنظيم القاعدة، بزعامة أسامة بن لادن، الذي قام بتنفيذه، فإن معالجتنا لتغطية قناة "الجزيرة" تتضمن تحليلا للبرامج التي اهتمت بالحادث والتنظيم معا.

من الناحية الكمية، تعرض أحد عشر برنامجا من برامج قناة "الجزيرة" للحادث والتنظيم، وهو ما يمكن استعراضه من خلال الجدول التالي:

م	اسم البرنامج	عدد الحلقات	ملاحظات
١	الاتجاه المعاكس	٨	٦ حلقات في ٢٠٠١، حلقتان في ٢٠٠٢
٢	أكثر من رأي	١٢	٥ حلقات في ٢٠٠١، ٣ حلقات في ٢٠٠٢و٢٠٠٤، حلقة في ٢٠٠٣
٣	بلا حدود	١	في ٢٠٠٣
٤	حوار مفتوح	٦	حلقتان في ٢٠٠٢، حلقة في ٢٠٠٣و٢٠٠٤و٢٠٠٥و٢٠٠٦
٥	ما وراء الخبر	١١	في ٢٠٠٦
٦	من واشنطون	٢	حلقة في ٢٠٠٢، حلقة في ٢٠٠٣
٧	منبر الجزيرة	٣	حلقتان في ٢٠٠٢، حلقة في ٢٠٠٥
٨	سري للغاية	٥	في ٢٠٠٥
٩	لقاء اليوم	٩	حلقتان في ٢٠٠١، ٣ حلقات في ٢٠٠٢، حلقة في ٢٠٠٣، ٣ حلقات ٢٠٠٤
١٠	مراسلو الجزيرة	٣	حلقتان في ٢٠٠١، حلقة في ٢٠٠٢
١١	قضايا الساعة	١	في ٢٠٠٣

وسوف نتناول في هذا الجزء نماذج من هذه الحلقات للتعرف على أسلوب قناة الجزيرة في معالجة قضية الإرهاب.

الاتجاه المعاكس

برنامج "الاتجاه المعاكس"، الذي يقدمه الدكتور فيصل القاسم، من أكثر برامج قناة "الجزيرة" إثارة للجدل والاختلاف. يرى فيه البعض دليلا على الحيوية والتعددية، ويعتقد آخرون أنه أقرب إلى "مصارعة الديوك" المصنوعة بلا جدوى أو هدف، ولعل ما يقوله الكاتب المصري الكبير أحمد بهجت عن البرنامج، في عموده اليومي بالأهرام: "صندوق الدنيا"، تحت عنوان: "الاتجاه المعاكس"، يعبر أفضل تعبير عن طبيعة البرنامج المثيرة للاختلاف: *"تقدم قناة الجزيرة برنامجا يحمل اسم (الاتجاه المعاكس). يقدم البرنامج ويعده د. فيصل القاسم.*

تقوم فكرة البرنامج على استضافة ضيفين من الشخصيات العامة أو الأكاديمية..

أما ما يميز هاتين الشخصيتين فأنهما على طرفي نقيض في أفكارهما وتوجهاتهما.. إن أحدهما يمثل اليمين في أقصى درجاته، بينما يمثل الثاني اليسار في أقصى درجاته.

ويبدأ البرنامج عادة بكلمة للدكتور فيصل عن القضية التي يناقشها البرنامج، وهي قضية كل سطر فيها يتناقض مع السطر الذي يليه.

بعد هذه المقدمة التي تحمل الرأي ونقيضه، يبدأ البرنامج بأن يعطي المعد الكلمة لأحد ضيفيه ليقول رأيه..

بعد ذلك يعطي الكلمة لضيفه الثاني ليرد على ضيفه الأول، وبسبب تناقض الآراء الواضح، ومعاكسة كل رأي للآخر، يحدث كثيرا أن يتشاجر الضيفان ويعلو صوتهما ويكاد الأمر يتحول إلى معركة بالأيدي، وكثيرا ما يقاطع كل ضيف زميله في النقاش فإذا جاء دوره قال:

- لا تقاطعني".

الكاتب المصري الساخر أحمد بهجت بعيد عن التحامـل، ويـسعى أن يكـون موضوعيا متوازنا، ومن كلماته يمكن استنباط أهم المرتكزات التي يعتمد عليها برنامج "الاتجاه المعاكس"، وأهم هذه المرتكزات هي:

- السخونة المتعمدة.
- الاعتماد على التناقض والتباين.
- الانتقال من الحوار إلى الشجار.

في إطار هذه الثلاثية، يكتسب البرنامج حرارة شكلية، تروق لقطاع كبير مـن المتلقين، لكن المحصلة الموضوعية تفضي إلى نتائج سلبية:

- التشوش الفكري؛ لأن أحدا لا يسمع أحدا.
- نسف آداب الحوار، والتحول إلى دائرة التراشق والعراك.
- ضعف المحصول التراكمي وغياب الفائدة المرجوة للوعي بالقضية.

قد يكون مثل هذا النمط من البرامج مجديا، أو على الأقل غيـر ضـار، عنـد تعرضه لقضايا فنية أو رياضية، وربما في بعض القضايا الاجتماعية، لكن القـضايا الفكرية والسياسية تتطلب قدرا أكبر من الهدوء والتحضر، من أجل الوصول إلى معدل أعلى في التناول الموضوعي الرصين.

قبل أحداث سبتمبر وبعدها، أبدى البرنامج اهتماما ملحوظـا بتنظـيم القاعـدة وزعيمه أسامة بن لادن. وخلال عامي ٢٠٠١ و٢٠٠٢، خصص البرنامج ٨ حلقـات لمناقشة قضايا تتعلق بالتنظيم والحادث الإرهابي: ٦ حلقات في ٢٠٠١، وحلقتان فـي ٢٠٠٢. ويمكن الكشف عن طبيعة التناول ومنهجه من خلال تحليل حلقتين: أذيعـت الأولى في ١٠-٧-٢٠٠١، قبل شهرين من تفجيرات سبتمبر، أما الثانية فقد أذيعت في ٢٢-١-٢٠٠٢، بعد أكثر من أربعة أشهر على الحادث، وما ترتب عليه مـن نتـائج وتداعيات.

الحلقة الأولى عنوانها: "بن لادن واليأس العربي والخوف الأمريكي"، والمحاور الأهم فيها هي:

- حقيقة بن لادن بين الإرهاب والجهاد.
- الدور الأمريكي في تضخيم ظاهرة بن لادن.
- رد الفعل العربي تجاه بن لادن.
- الحركات الجهادية ودورها في صد أمريكا وإسرائيل.
- مستقبل ظاهرة بن لادن.

أما ضيفا الحلقة فهما: عبد الباري عطوان رئيس تحرير صحيفة "القدس العربي"، والكاتب الباحث الخاتم عدلان.

الضيفان مسئولان عن آرائهما واجتهاداتهما بطبيعة الحال، ولا يعبر أحدهما عن سياسة القناة وموقفها من الظاهرة الإرهابية، والكشف عن هذه السياسة يتطلب التوقف عند أداء مقدم البرنامج، وهو ما يمكن أن يتحقق عبر ثلاثة محاور رئيسية:

المحور الأول هو آراء الدكتور فيصل القاسم كما تتجلى في تقديمه ومداخلاته وتعليقاته وانتقاداته.

المحور الثاني هو أسلوب مقدم البرنامج في التعامل مع ضيفي الحلقة، وهما بحكم طبيعة البرنامج يعبران عن اتجاهين متعارضين، ذلك أن إدارته للحوار تكشف عن انحيازه وتعاطفه النسبي مع أحدهما ومعارضته ورفضه النسبي للآخر.

المحور الثالث يتمثل في نوعية وطبيعة الاتصالات التليفونية وما تحويه من أفكار، تكشف عن الرغبة في تكريس مفهوم مضاد.

في تقديمه لحلقات البرنامج، بشكل عام، يسعى الدكتور فيصل إلى تقديم "عرض متوازن" لوجهتي النظر المتعارضتين، وفي الحلقة التي نحن بصددها يبدو منطقيا أن يقدم فيصل آراء المتعاطفين مع زعيم تنظيم القاعدة والآراء المضادة التي ترفضه، لكن السؤال المحوري الكاشف عن الموقف والتوجه: بأي أسلوب، وعبر أية مفردات،

يتم هذا التقديم؟ هل تحقق التوازن الموضوعي المنشود، أم أن اللغة تعبر عن انحياز لا يسهل إخفاؤه؟!

الإجابة المنصفة لا تتحقق بمعزل عن استدعاء النص الكامل لتقديم الدكتور فيصل، تمهيدا لتحليل مفردات خطابه، والاجتهاد في تلمس الإجابة عن سؤال:

مع من وضد من؟!.

يقول الدكتور فيصل القاسم ما نصه بالحرف الواحد:

"د. فيصل القاسم: تحية طيبة مشاهدي الكرام، هل تعلمون كم يبلغ وزن الشيخ أسامة بن لادن؟ تساءل أحد الزعماء العرب في قمة عمان الأخيرة، والجواب: لا يبلغ وزنه أكثر من ٥٠ كيلو جراماً، أما متوسط وزن أي زعيم عربي فهو أكثر من ٨٠ كيلو جراماً على أقل تقدير، ناهيك عن وزن الجيوش والميزانيات الضخمة، مع ذلك فـ (بن لادن) صاحب القد النحيل يجعل أعتى قوة في التاريخ ترتعد أوصالها لسماع اسمه، أما أصحاب الأوزان الثقيلة جسدياً ومادياً فلا يثيرون في نفس أميركا إلا الشفقة وربما السخرية، هكذا يجري أحدهم المقارنة!!

ألم يصبح بن لادن نداً تخشاه أميركا وتحرك من أجله الأساطيل وتعلن حالة التأهب القصوى في أوساط جيوشها وسفاراتها؟

قد يبدو ذلك من قصص الخيال، لكنه الحقيقة، مَنْ الذي دك ثكناتها الحصينة وجعلها تتقوقع في مخابئ نائية؟ يتساءل أحد المؤيدين للشيخ.

مَنْ الذي دمر إحدى مدمراتها النووية في عُرض البحر؟

مَنْ الذي قاتلها في الصومال وجعل جنودها يهربون كالأرانب؟

مَنْ الذي حوّل سفاراتها ومراكزها في العالم إلى حصون وقلاع تخشى حتى النسيم العليل؟

مَنْ الذي جعل أميركا تصرخ آه وألف آه من الألم؟

مَنْ الذي أصبح البطل العربي والإسلامي الأول في الآونة الأخيرة؟

هل تخشاه أميركا كإرهابي يهدد مصالحها، أم كضمير العالمين العربي والإسلامي؟

ويتساءل مؤيد آخر للشيخ بن لادن: ألسنا بحاجة إلى ألف مجاهد من هذا الطراز في ظل هذا الانبطاح العربي المخزي أمام أميركا وإسرائيل؟

لكن في المقابل: مَنْ الذي ضخم أسطورة الشيخ بن لادن غير أميركا وإعلامها؟

ألا يصبح عداء بن لادن للوجود الأميركي في الخليج عداءً لحكومات المنطقة وبالتالي باعثاً على زعزعة الاستقرار؟

هل المراهنة على الشيخ بن لادن في محلها، أم أنها تعبر عن يأس وإحباط عربي شديد؟

هل يمكن أن تكون ظاهرة بن لادن الرد أو الند المطلوب لأميركا؟

ألم تفشل الشيوعية بعظمتها وإمبراطوريتها العاتية سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وثقافياً في الصمود في وجه الجبروت الأميركي؟

هل ينجح الجهاد أو الخطر الأخضر حيث فشل الخطر الأحمر؟

هل تتحول أميركا إلى الدولة الخندق -كما يزعم البعض- خوفاً من بن لادن أم أن في ذلك الكثير من المبالغة؟

أسئلة أطرحها على الهواء مباشرة على عبد الباري عطوان (رئيس تحرير صحيفة القدس العربي، والخبير في ظاهرة بن لادن)، والخاتم عدلان (الباحث والكاتب)".

ما الذي يكشف عنه النص الكامل للتقديم الذي قام به الدكتور فيصل القاسم؟!. يتضمن التقديم جانبين: يعرض الأول لوجهة النظر المتعاطفة مع أسامة بن لادن، أما الثاني فيقدم الرؤية الرافضة له.

تتمثل الملاحظة الثانية بتعمد الدكتور فيصل لاستدعاء حكاية "طريفة" في مدخل تقديمه، عن "أوزان" الحكام والقادة العرب في مواجهة "وزن" بن لادن، والمسألة هنا تتجاوز الطرافة ورغبة السخرية، وبخاصة أنها منسوبة إلى أحد هؤلاء الزعماء!.

وتتجسد الملاحظة الثالثة في قائمة المفردات التي يستخدمها الدكتور فيصل في عرضه لوجهة النظر المؤيدة والمتعاطفة مع أسامة بن لادن، فهي مفردات تنم عن التقدير لزعيم القاعدة، وتكشف عن تعاطف لا يخفى مع الظاهرة التي يمثلها ويقودها: أمريكا "ترتعد" منه، في الوقت الذي يتراوح موقفها من الحكام العرب، أصحاب الأوزان الثقيلة، بين "الإشفاق" و"السخرية"!. زعيم القاعدة "ند" يثير الفزع، و"يدك" الثكنات، ويدفع الأعداء إلى "التقوقع في المخابئ"، ويجعل الجنود يهربون "كالأرانب"، وبأفعاله "تصرخ" أمريكا من الألم!.

من المنطق إذن أن تكون المحصلة النهائية هي تتويجه "بطلا" على المستويين العربي والإسلامي، وهو البطل والمثل الأعلى الذي تحتاج الأمة إلى "ألف" من أمثاله!!.

أما الحكام والقادة العرب، الذين يثيرون في نفس أمريكا مزيجا من "الشفقة" و"السخرية"، فهم باهتون في ظل التوهج الذي يمثله أسامة، ويعبرون عن "الانبطاح المخزي" أمام أمريكا وإسرائيل!.

عند هذا الحد ينتهي عرض الرأي المؤيد لابن لادن والمتعاطف معه، فهل جاء الرأي المضاد بالقوة نفسها؟!.

وجهة النظر المقابلة، كما يستعرضها الدكتور فيصل، تبدأ بالتأكيد على لقب "الشيخ" عند الإشارة إلى أسامة، وتلح على عدائه للولايات المتحدة الأمريكية ورفض وجودها في منطقة الخليج، وتشير إلى نجاحه فيما فشلت فيه الشيوعية وهي تواجه الجبروت الأمريكي قبل سقوطها!.

إذا كانت المرتكزات السابقة هي المنطق الذي يعتمد عليه المعارضون لتنظيم القاعدة وزعيمه، فما أولى الشيخ والتنظيم بالتأييد والتعاطف!.

التوازن غائب، والانحياز واضح، فهل يستقيم الأمر عند تعامل مقدم البرنامج مع ضيفيه؟!.

يرى الخاتم عدلان أن ظاهرة أسامة بن لادن تنتمي إلى آفاق أوسع، وتتجاوز الشخص المحدود، وتمثل جزءا من ظاهرة الإرهاب الدولي العالمي، وأن أضرارها "فادحة" بالنسبة للمسلمين وغير المسلمين، وصولا إلى أن الغرض منها، الوصول إلى السلطة، ويدلل الخاتم على فكرته بالقول: ***"وأنا أشير بالتحديد إلى حادثة تفجير السفارتين الأميركيتين في كينيا وتنزانيا والتي راح ضحيتها أكثر من ٢٠٠ أفريقي، راح ضحيتهم ١٢ أميركيا، وراح ضحيتهم من الجرحى والمعوقين ٥٥٠٠ لم يتحدث أحد عن هؤلاء ودم هؤلاء وما لحق بهم من أضرار، وما لحق بأسرهم من أضرار معلق على أسامة بن لادن وعلى كل من يلجأ إلى مثل هذه الأساليب".***

هذا المنطق المتماسك المتسق قد يثير اختلافا وجدالا، وقد لا يحظى بموافقة المتعاطفين مع القاعدة والمؤيدين لها، لكن المأخذ الحقيقي على البرنامج أنه لا يتيح للضيف فرصة استكمال وجهة نظره، فيبادر الدكتور فيصل إلى نقل الكلمة إلى عبد الباري عطوان، الذي لا يناقش مقولات الخاتم عدلان بقدر ما يغير المسار كليا، فيتحدث عن تاريخ الجرائم الأمريكية، وكأن هذه الجرائم، الجديرة بالرفض والإدانة، مبرر لجرائم جديدة!.

يبدي القاسم تعاطفا ملموسا مع عبد الباري، ويتطوع باستكمال أفكاره وشرح مراجعها وتوضيحها. وعندما يؤكد الضيف الآخر أنه ضد الولايات المتحدة ومعارض لسلوكها العدواني، لا يتيح له مقدم البرنامج أن يسهب في شرح رؤيته، ويتجلى ذلك في تكرار المقاطعة، بل إن الدكتور فيصل يتنكر تماما لفكرة الحياد، عندما يقول بالحرف الواحد، وبنبرة لا تخلو من الهجوم والرغبة في التسفيه المتعالي موجهاً كلامه للخاتم عدلان:

"د. فيصل القاسم: يعني كل كلمة قيلت يُعبِّر عنها على أرض الواقع، هل تستطيع أن تنكر أن هذا المجاهد الموجود في أفغانستان الآن – حسب ما يصفونه في الفاكسات وفي جميع وسائل الإعلام- هل تستطيع أن تنكر أنه يرعب أميركا ويجعلها ترتعد أوصالها يعني من.. من مجرد ذكر اسمه؟

الخاتم عدلان: هذا غير صحيح.

د. فيصل القاسم: هل تستطيع أن تنكر ذلك؟"

لقد تحول الأمر إلى مبارزة ثنائية، وتراجع الدكتور فيصل عن موقعه الذي يفرض عليه الحياد والموضوعية، واشتبك كاشفا عن انحيازه السافر.

بأي معيار موضوعي يمكن الموافقة على ما يقوله مقدم البرنامج عن احتياج الوطن العربي إلى المزيد والمزيد من النموذج الذي يقدمه زعيم القاعدة: "ألا نحتاج إلى ٢١ أسامة بن لادن محليا في الوطن العربي لتلقين الحكام العرب أصول الرجولة؟".

الكلمات السابقة لمقدم البرنامج نفسه، وهو حكم بين ضيفين!، فالحكام العرب عنده في حاجة إلى من يلقنهم "أصول الرجولة"!.

وإذ ينتبه الخاتم عدلان إلى خطورة اللغة المستخدمة، ويرفض ما فيها من تجاوز لا يليق، يستمر مقدم البرنامج في إصراره، ويضيف المزيد من المفردات المسيئة:

" الخاتم عدلان: أنا أعتقد أن الخطاب السياسي له لغة، يعني مثل هذه اللغة غير مقبولة -حقيقة- في حق الزعماء العرب مهما كان رأيك فيهم.

د. فيصل القاسم [مستأنفاً]: حتى في ظل هذا الانبطاح والتخاذل، وكذا.. مش مقبول.

الخاتم عدلان: مهما كان هناك.. هناك لغة.. هناك لغة ودرجة من الأدب.. يجب أن تتوفر في.. في الحديث عن هذه المسائل، أنا أعتقد أن موقف أسامة بن لادن ليس قريباً بأي درجة من المليون من إسقاط النظام الأميركي مثلاً، يعني هذه أشياء

هامشية لأبعد الحدود، صحيح أنها تكلف أميركا، ولكنها هامشية وستدفع أميركا، وهذه المسألة هي الخطيرة، ستدفع أميركا إلى التعامل مع بن لادن والمجموعات الشبيهة له باعتبار أنها أعلنت الحرب وستتعامل معها ليس عن طريق المحققين، ولكن عن طريق القوات المسلحة الأميركية".

الاعتراض الذي يبديه الخاتم وجيه ومنطقي، من المنظورين الأخلاقي والمهني، فالاختلاف مع الحكام العرب لا يعني الحديث عن تعليم "أصول الرجولة"، مع حديث آخر لا يقل إنشائية وعاطفية عن "الانبطاح" و"التخاذل"!. المسألة الجوهرية، التي تمثل موضوع الحلقة، سياسية موضوعية، ولا متسع فيها لكلمات مثل "الرجولة الناقصة" و"الانبطاح"، والعودة إلى الموضوع، والتركيز على مخاطر تجربة القاعدة وأسامة، لا تحظى إلا بالقليل من الاهتمام. مخاطر التدخل العسكري المباشر قائمة، والأضرار التي تلحقها القاعدة بالولايات المتحدة لا تتوافق مع الخطورة المتوقعة والأضرار الفادحة التي ستطول المسلمين والعرب أنفسهم!.

واللافت للنظر أن الدكتور فيصل لا يمارس براعة التدخل والاختلاف والمقاطعة إلا مع أحد ضيفيه، فإذ ينبري عبد الباري عطوان للدفاع عن أسامة بن لادن؛ *لأنه يريد تطبيق الشريعة الإسلامية بوفق المعايير المعروفة!!، فهو لا يريد هزيمة أميركا في أميركا هو يريد أن يقول للقوات الأميركية: اتفضلي الله معاكي، أنت جيتي بحجة تحرير الكويت، حررت الكويت، إيش تعملوا في بلادنا؟ الله معاكم، بعدين أن تقام أنظمة عربية على.. وفق الشريعة الإسلامية فيها العدل، فيها المساواة، فيها الاستثمار بتوزيع الثروة بشكل عادل، هذا هو اللي يطالب فيه الرجل، فيعني؟؟ لا يجب أن نحمله أكثر مما.. مما يحتمل، فهذه الظاهرة يجب أن نراها من هذا المنظور؟*

د. فيصل القاسم: طيب.. طيب".

الأفكار الرئيسية في حديث عبد الباري عطوان تتمثل في:

- شرعية ومعقولية مطالبة أسامة بن لادن برحيل القوات الأمريكية .
- تحديد المطلب المحوري لابن لادن في إقامة أنظمة عربية تحكم بالشريعة
- صياغة مفهوم الشريعة، المنسوب إلى زعيم القاعدة، عبر مفردات ومرتكزات لم تصدر عنه: العدل، المساواة، توزيع الثروة بشكل عادل. وقد يكون هذا الفهم حقا لعبد الباري عطوان، لكنه ليس ملزما لأسامة بن لادن.

لا يجد الدكتور فيصل في مقولات عطوان ما يستحق التعقيب أو الرد، فكأنه يوافق على المنسوب إلى زعيم القاعدة من أفكار لم يقل بها يوما!.

ولأن البرنامج يتلقى كثيرا من الاتصالات التليفونية والفاكسات، فإن منهج مقدم البرنامج في التواصل مع المتلقين يكشف عن الرؤية العامة التي يستهدف ترسيخها والترويج لها. وإذا كان الاتصال التليفوني على الهواء يسمح بالرد المباشر من خلال الحوار، فإن قراءة الفاكس تتطلب تعليقا وتوضيحا، ذلك أن الصمت، وغياب الرد بمثابة التأييد والموافقة الضمنية. ما الذي يفعله الدكتور فيصل القاسم عندما يتلقى فاكسا أو اتصالا يؤيد تنظيم القاعدة وزعيمه؟!.

"د. فيصل القاسم: طيب وهناك يعني فاكس من (رامي) يقول: الكثير من الجنرالات -تأكيداً لهذا الكلام- والضباط العرب تحولوا إلى تجار وحرامية ولصوص، بينما تحول الثري جداً أسامة بن لادن إلى مجاهد متخلياً عن حياة العز والرفاهية، نحن بحاجة لأشخاص مثل هذا الشخص يضحون بالغالي والرخيص من أجل قضاياهم، وليس لأناس باعوا قضاياهم بأثمان بخسة كي يعيشوا بسلام زائف إلى ما هنالك من هذا الكلام".

لا يعلق مقدم البرنامج على مضمون الفاكس الذي يقرأ محتواه، ولا ينبه المشاهدين إلى ما قد يعن له من اختلافات مع هذا التأييد المفرط الذي يرى أن الضباط العرب، هكذا في عمومية لا استثناء فيها، قد تحولوا إلى "تجار وحرامية ولصوص"، بينما تحول الثري أسامة إلى "مجاهد" نحتاج إلى الكثيرين من أمثاله!.

هل من تفسير لتجنب الرد والنقد والتعليق والتوضيح إلا وجود موافقة ضمنية، وإتاحة الفرصة لوصول الخطاب المؤيد إلى جمهور المشاهدين وكأنه "حقيقة" لا مجال لمناقشتها أو التشكيك فيها؟! رحم الله إذن شهداء أكتوبر والأحياء منهم وضباط منظمة التحرير الفلسطينية.

بعد الفاكس السابق، يتلقى البرنامج اتصالا تليفونيا مطولا من إمام وخطيب جامع، اسمه سليمان أبو غيث، ويطرح القائم بالاتصال فكرته في ست نقاط، ويمثل مجمل خطاب سليمان تأييدا صريحا لأسامة بن لادن، وتحبيذا لأفكاره وسلوكه، ودعوة للشباب المسلم أن يحتذي بنهجه. وقبل تقديم النص الكامل للاتصال المطول، قد يكون مفيدا أن نشير إلى ملاحظتين مهمتين:

الملاحظة الأولى هي حرص الدكتور فيصل على تقديم المتحدث باعتباره "من بلاد الله الواسعة"، فهو لا يعرف موطنه ومحل إقامته، وليس من دليل على حقيقة وظيفته، فهل يعني ذلك أن "كل" الاتصالات يتم بثها؟ وهل يعقل أن جميع المتصلين من المؤيدين بلا استثناء؟.

ومن ناحية أخرى، فإن تقديم "سليمان أبو غيث" على اعتبار أنه من "بلاد الله الواسعة" يعني جهل الدكتور فيصل بشخصيته، وهو ما يثير مشكلة حقيقية لأن "المتحدث الإعلامي باسم تنظيم القاعدة" لا يمكن أن يكون شخصاً مجهولاً. وإذا كان العاديون من الناس قد يجهلون شخصيته، فإن إعلامياً بارزاً واسع الصلات والاتصالات لا يمكن أن يكون كهؤلاء العاديين! الهدف إذن هو التحايل على المتلقي، وإيهامه بأن صاحب الاتصال مواطن عادى، وكأن الرأي العام كله، في بلاد الله الواسعة، من مؤيدي الخطاب الفكري والسلوك العملي الذي يمارسه تنظيم القاعدة.

الملاحظة الثانية أن الدكتور فيصل لا يقاطع المتحدث أو يطالبه بالاختصار، وهو سلوك محمود لإتاحة الفرصة لإبداء الرأي كاملا، لكنه سلوك لا يتم تطبيقه مع الجميع، فأكثر المقاطعات والحرص على التشويش تأتي عند تقديم رأي مغاير! والآن إلى الاتصال التليفوني الذي يحتفي به البرنامج:

"سليمان أبو غيث: الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، بداية أشكركم على طرح مثل هذا الموضوع المهم. علماً بأن مداخلتي ستكون مختصرة في ست نقاط:

أولاً: إن الموضوع الذي تطرحونه في هذا الاتجاه يعتبر من أهم المواضيع التي تحتاجها الأمة في مرحلتها المعاصرة حيث إن أزمتها أزمة قدرات ونماذج، وأسامة بن لادن يعتبر النموذج المتميز في الطريق الصحيح للخلاص من حالة التردي والتبعية التي تعيشها الأمة.

ثانياً: نحن في تأييدنا للمجاهد أسامة بن لادن لا ننطلق من شعور عاطفي بل منطلق عقدي شرعي، حيث إن ما يدعو إليه وينادي به ويسعى من أجله يعتبر مطلباً شرعياً ملحاً لا يجوز للأمة بأي حال من الأحوال التأخر في الاستجابة له والعمل على تحقيقه.

ثالثاً: نحن نعتقد اعتقاداً جازماً أن الكفر العالمي المتمثل باليهود والنصارى.. وعلى رأسهم أميركا رأس الكفر وإمامه، نعتقد أنهم يمارسون الاحتلال الحقيقي لبلاد المسلمين، ونهب خيراتها، وتغريب أبنائها، وممارسة جميع أنواع التعاملات غير المشروعة في سبيل السيطرة وبسط النفوذ، وما يمارسه اليهود ضد أهلنا في فلسطين دليل واضح على ما نقول، فهم يمارسون القتل والتشريد وهتك الأعراض وهدم البيوت، القصف، العشوائي على الأبرياء العزل، فكيف تجيز الأمة لنفسها القعود عن النصرة؟!

رابعاً: أخي الكريم، وهو المهم في مداخلتي هذه: أن أميركا اليوم تحتل جزيرة العرب من أدناها إلى أقصاها، وهو مصادم للنصوص الشرعية الآمرة بإخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب، كما قال -عليه الصلاة والسلام- في الحديث الصحيح عن ابن عباس: "أخرجوا المشركين من جزيرة العرب".

خامساً: وبناءً على هذه النصوص التي لا تخفى على مسلم يكون قتال الأمريكان ومن معهم واليهود ومن شايعهم فرض عين على المسلمين، أقول: فرض عين على المسلمين، وقتالهم واجب وجوباً لا هوادة فيه حتى يخرجوا من جزيرة العرب ومن جميع بلاد المسلمين التي يحتلونها، وقد أجمع - أخي الكريم - علماء السلف والخلف - ولم يخالف في هذا أحد من العلماء - على أن الجهاد يتعين على المسلمين في حالات ثلاث ومنها: إذا دخل العدو بلاد المسلمين، فكيف واليهود والنصارى يعيثون فساداً في أقدس بقاع الأرض قاطبة، أرض الحرمين، أرض الوحي والنبوة، وأرض بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين.

أخي الكريم سادساً وأخيراً: نحن نشعر ونلمس من خلال تحركنا بين الشباب في الدعوة والتوجيه أن الشباب المسلم يعيش حالة من الرفض الشديد والانزعاج الكبير من التواجد الأميركي في الجزيرة العربية، والتدخل السافر والتأييد اللامحدود لليهود، وهم يتهامسون بينهم في كيفية إخراجهم من هذه الأرض، وهذا ظاهر في العمليات الاستشهادية التي يقومون بها، وهي لا شك من أعظم الطاعات وأفضل القربات -كما نقل ذلك أهل العلم- فالشباب المسلم اليوم يأبى أن يطأطئ رأسه للمؤامرة الصهيوأميركية والمؤامرة العربية المكشوفة من خلال الأنظمة ضد الأمة الإسلامية، فالفتنة الحاصلة اليوم لا تزول إلا بالقتال والمدافعة، كما قال تعالى: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) وعلى الأمريكان - أخي الكريم - أن يعلموا أن أسامة هو الرمز الذي طالما بحثت عنه الأمة، والفكر الذي يحمله قد انتشر وتأصل فلا يظنوا أن موته أو قتله سيوقف الجهاد والمقاومة، فالقضية قضية عقدية لا تتوقف على حياة شخص أو موته.

وأخيراً نقول: إن الأمة اليوم بحاجة أولاً إلى اثني عشر ألفاً من الشباب المجاهد ينفروا لنصرة الدين، حيث قال - عليه الصلاة والسلام - في الحديث الصحيح: "ولا تهزم اثنا عشر ألفاً من قلة"، ثانياً: أن يؤدي تجار المسلمين بعض

زكاة أموالهم في دعم هذا الجهاد المقدس ضد اليهود والنصارى، فعندها سيتحقق النصر بإذن الله تعالى بالصدق والصبر واليقين، أخي الكريم، إن كانت هناك فقط نصف دقيقة أقول للأخ الكريم عبد الباري عطوان مع احترامنا الكبير له: إن بن لادن لم يكن حليفاً لأميركا في يوم من الأيام، بل إن بن لادن دعا إلى مقاطعة البضاعة الأميركية منذ عام ٨٧ في شريط موجود وموزع في السعودية، وتناقله الشباب الملتزم في جميع أرجاء الوطن العربي، ودعا إلى ضرب أميركا على رأسها هكذا صرح بالضبط، وإن من قاتل مع الأفغان ضد الروس جاء من منطلق شرعي، وإن تقاطعت المصالح فهذا ليس شأننا، النبي -صلى الله عليه وسلم- قاتل الفرس وصب ذلك في مصلحة الروم، وقاتل الروم وصب ذلك في.. في مصلحة الفرس، فالقضية هي قضية عقدية شرعية لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تجير لأي طرف آخر، وأنا أشكرك على إتاحة هذه الفرصة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

المداخلة التليفونية، الموصوفة بأنها "مختصرة"، تقدم مجموعة من الأفكار الخطيرة التي لا يمكن إهمال تأثيرها على جمهور المتلقين، وبخاصة أنها صادرة عن إمام مسجد يحظى بمصداقية كبيرة؛ لأنه متخصص في العلوم الدينية، ولأن مقدم البرنامج نفسه لا يعقب على مقولاته وأفكاره، ولا ينبه إلى ما فيها من مخاطر ومهالك. وتزداد المخاطر والمهالك بعد إدراك أن صاحب المداخلة ليس إمام مسجد كغيره من الأئمة، بل إنه مسئول بارز في التنظيم الذي يدور حوله الحوار، ولا يمكن أن يكون كلامه مقبولاً أو عادلاً في سياق الحديث عن اتجاهات الرأي العام البعيد عن الانتماء الفكري والالتزام التنظيمي.

الفكرة الأولى المهمة هي اعتبار أسامة بن لادن "نموذجا متميزا في الطريق الصحيح للخلاص من حالة التردي والتبعية التي تعيشها الأمة". أليس حريا بمن يرفضون التردي والتبعية أن يؤمنوا بأفكار تنظيم "القاعدة" وأن ينضموا إليه، وبخاصة أن زعيم التنظيم هو "النموذج المتميز"، وليس من بديل آخر يطرحه الشيخ سليمان،

أو يقترحه الدكتور فيصل، تحقيقا لمصداقية مفقودة، تتجسد في التواطؤ السلبي بإيثـار التأييد الضمني بالصمت وعدم التعليق.

الفكرة الثانية، التي لا تقل خطورة، هي تأكيد الشيخ سـليمان علـى أن تأييـد "المجاهد" أسامة وتنظيمه ليس فعلا عاطفيا نسبيا، وليس مجرد اختيار لا حتمية فيه، بل إنه نابع من "منطلق عقدي شرعي"، ولا يجوز التأخر في الاستجابة له والعمل علـى تحقيقه!. ووفق هذا التصور، يعد الخارجون عن التنظيم والرافضون له آثمين دينيا!. وعلى الرغم من هذا كله، لا يكلف الدكتور فيصل نفسه عناء الاعتراض أو الـرد أو الإعلان عن أن هذه المقولة الخطيرة تفتح الباب واسعا أمام التطرف، وتمهد التربـة لتنشئة آلاف وملايين الإرهابيين، الذين يتصورون أن فكرهم المتطـرف وسـلوكهم الإرهابي هو الدين الصحيح!.

الفكرة الثالثة هي تكريس مقولة "الكفر العالمي"، ممثلا في "اليهود والنـصارى"، وبذلك يتحول الصراع إلى ديني محض، ويبدو بلا نهاية؛ لأنه غير مرتبط بمطالـب محددة تتعلق بمظالم واضحة، يقود التخلص منها إلى التوقف عن الجهاد ضد تحـالف الكفر العالمي. مثل هذا المنطلق الفكري الخطير لا يجعل للحرب المقترحة نهاية، ذلك أن الصراع بين الكفر والإيمان لن ينتهي إلا بانتصار حاسم للفريق المؤمن، ممثلا في تنظيم القاعدة وزعامة أسامة!.

الفكرة الرابعة، التي يرى الشيخ سليمان نفسه أنها الأكثر أهمية، تتجـسد فـي حسمه اليقيني لمسألة احتلال الولايات المتحدة الأمريكية للجزيرة العربية، والتعامل مع فرضية الاحتلال هذه من منظور ديني شرعي، وليس من منطلق سياسـي، وبـذلك يتحول إخراج المشركين والكفار من جزيرة العرب إلى واجب ديني يؤثم تاركه، وكل اختلاف جزئي أو كلي مع مقولة الاحتلال هذه يصطدم مع الرؤية الدينية التي يتبناها الشيخ سليمان، ويرى أنها صواب مطلق لا مجال فيه للاجتهاد، وتغلق باب المناقـشة على أسس شرعية!.

أما الفكرة الخامسة فهي نتيجة منطقية لما سبقها من أفكار، ونعني بذلك "وجوب" قتال الأمريكيين واليهود و"من شايعهم"، وليس مثل هذه المقولة في إضفاء شرعية دينية على الأعمال الإرهابية التي تستهدف المسلمين "المتهمين" بـ"مشايعة" الكفار وموالاتهم!.

ثم ينتقل المتحدث إلى النقطة السادسة التي تتضمن تحريضا واضحا صريحا مباشرا للشباب بـ"القتال والمدافعة"، ويصل الأمر إلى حد القول بأن أسامة بن لادن هو الرمز الذي طال انتظاره، وأن الفكر الذي يبشر به ليس ضالا أو منحرفا أو متطرفا، أو حتى مما يقبل الخلاف ويستدعي الاختلاف، بل إنه جوهر العقيدة وصحيح الدين!.

ويأبى الشيخ سليمان إلا أن يختتم مداخلته "المختصرة" بالحض على جمع المزيد من التبرعات لتمويل جهاد أسامة والقاعدة، والدفاع عن العلاقة القديمة مع الولايات المتحدة خلال الحرب الأفغانية ضد الاتحاد السوفيتي.

أفكار أشبه بالألغام، لكن الدكتور فيصل لا ينشغل بالرد عليها أو توضيح مخاطرها. ومثل هذا الموقف لا يعني إيمانه بالديمقراطية وحرية الرأي، فالمنطقي أن يقتصر هذا الإيمان على إتاحة الفرصة لصاحب الفكرة لكي يعرضها ويدافع عنها، ولا يمتد إلى الموافقة الضمنية بالصمت. أليس من الواجب "المهني" و"الفكري" لمقدم البرنامج أن يكشف، للملايين من مشاهديه متنوعي الحظ من الوعي والثقافة، عما يراه من مآخذ وسلبيات، وبخاصة أنه يفعل ذلك مع المعارضين للقاعدة وزعيمها؟!.

اتصال جديد، بعد السابق مباشرة، من شاكر منصور، المقيم في الدانمارك، وهو يستهل مداخلته التليفونية بالقول:

"شاكر منصور: أميركا تحتل الخليج ولا يناقش بهذا الموضوع إلا إنسان مكابر أو عميل أو جاهل، والحكم الشرعي، كما ذكر الأخ الذي اتصل قبلي، هو وجوب قتال وإخراج القوات الأميركية من أقدس بلاد المسلمين، جزيرة العرب، وأرجو أن تسمح لي أخي الكريم فيصل، أن أوجه هذه الكلمات لأميركا وأزلامها في البلاد العربية".

ثم ينشد قصيدة طويلة تتوافق مع آرائه غير الشرعية حول احتلال أمريكا للخليج، باعتبار الاحتلال حقيقة لا يناقشها، مجرد مناقشة!، إلا "مكابر أو عميل أو جاهل"!.

واللافت للنظر أن القصيدة تؤيد الاغتيال والإرهاب بشكل صريح، وهو ما يتجلى في الإشارة إلى اغتيال "الخائن" أنور السادات:

"سائلوا أنور الخيانة عنا يوم ألقى إلى اليهود السلام

كان يسقى من الكؤوس مداما فسقيناه بالمنايا سهاما"

كيف يعلق الدكتور فيصل القاسم على هذا الخطاب التكفيري، شعرا ونثرا؟!.

بشكر الأخ الكريم والانتقال إلى نقطة أخرى!.

النقطة الأخرى التي ينتقل البرنامج إليها تكشف عن خلل فادح فاضح في المنهج المتبع، وتنم عن انحياز صريح لوجهة نظر دون أخرى. يقول مؤيدو القاعدة وزعيمها كل ما يعن لهم دون تدخل أو مقاطعة، ودون توضيح أو تعقيب، وعندما ينتقل الدكتور فيصل إلى الفاكس الذي جاءه من سوريا، موقع "من موقع اسمه بعين شاهين"، يختلف الأمر تماما:

يقول: "يا ضيوف الحلقة الكرام ومقدم البرنامج، بصراحة أنا وكل العرب والمسلمين في بقاع الدنيا من مشرقها إلى مغربها مللنا كل الملل، يعني عن أسامة بن لادن وأخباره ونشاطه المشكوك فيه، فإذا كان بن لادن صحيح هو رجل مناضل شريف، فلماذا لا يكون يداً بيد مع الشيخ المناضل حسن نصر الله ويعمل على عينك يا تاجر، رجاءً لا تقولوا إن حسن نصر الله يناضل من.. من أرضه فأنا واثق كل الثقة لو كرس بن لادن ماله بجانب رجال حزب الله لكان وضع الجنوب اللبناني وإسرائيل أغلق أو أُغلق ملفاهما من مسامع الأذن العربية، لكن أعتقد أنه طعم لأميركا بكل بقاع الدنيا".

لن نتوقف عند لغة المواطن السوري وركاكتها، ولن نهتم بما يترتب على ذلـك من تشوش واضطراب فكري، كما أننا لن نتطرق إلى طبيعة العلاقة بين حـزب الله وتنظيم القاعدة؛ لأنها خارج نطاق البحث. الجدير بالاهتمام حقا هو انهماك الـدكتور فيصل القاسم والأستاذ عبد الباري عطوان في الرد الفوري على مـضمون الرسـالة، ودفاعهما الحماسي عن أسامة بن لادن، وتبريرهما غير المنطقي لسلبيته في نـصرة القضية الفلسطينية، والتماسهما الأعذار لأن المجاهد والرمز والنمـوذج لـيس قـوة عظمى، وليس لديه من الإمكانات والموارد ما يتيح له أن يجاهد ضد إسرائيل، وهـي مغالطة يسهل الرد عليها اعتمادا على ما يقوله المدافعان: فكيف لمن يحارب أمريكـا ويهددها ويبث الذعر في أرجائها، أن يعجز عن محاربة إسرائيل؟!.

القضية المهمة هي: لماذا لا يهتم البرنامج، مقدمه وضيفه، بالرد على المداخلات المتعاطفة مع أسامة بن لادن والمؤيدة للقاعدة، بكل ما تتضمنه من أفكـار ودعـاوى تكفيرية وتخوينية، وبكل ما تطالب به من دعم للإرهاب وتمويلـه؟!. ولمـاذا، فـي المقابل، يسارعان في التصدي لخطاب متهافت ركيك يبدي ملاحظـة غيـر متقنـة الصياغة حول ابن لادن والقاعدة؟!.

إذا كان المبدأ العام هو إتاحة الفرصة للمشاهدين بلا تعقيب أو تدخل، فلماذا هذا الرد المطول على الفاكس السوري؟!

وإذا كان المبدأ المعمول به هو التدخل للرد على ما يستحق التوقف للكشف عن عيوبه ومثالبه وأخطائه، فلماذا كان الصمت، الموحي بالتعاطف والتأييد، مع الفاكسات والاتصالات الهاتفية الأخرى؟!.

يؤكد الدكتور فيصل أن المكالمات والمشاركات "كلها تقريبا" في صف "المجاهد" أسامة بن لادن، ومن منطلق هذا التأكيد يعطي الكلمة للأستاذ الخاتم عـدلان، وكأنـه "متهم" بترويج أفكار لا تنحاز لها الأغلبية الجارفة، ولا وجود لها في الواقع العربـي والإسلامي.

لا يري الضيف تناقضا بين الخلل الفكري والسياسي والاجتماعي لابــن لادن، وما يحظى به من شعبية وتأييد، ذلك أنه لا خلاف على وجود الأزمة، والمشكلة كلها تكمن في التداعيات والنتائج وردود الفعل. للخاتم عدلان منطقه الجدير بأن يصل إلى جمهور المتلقين، لكن الفرصة لا تتاح له بسبب المقاطعة المتعمدة التي لا تخلــو مــن نبرة عدائية متحفزة:

"الخاتم عدلان: أنا أوافق على هذا الكلام لحدود بعيدة، وأعتقد أن هناك أزمــة في الواقع في العالم العربي، هناك أزمة ديمقراطية، هناك أزمة عدالة، هناك أزمــة كرامة وهذا كله يعني يؤدي إلى حالة الاحتقان التي تحدثتم عنها، الحل لهذه الأزمة ليس هو الرجوع إلى الوراء، هذه نقطتي الأساسية، يعني البرنامج الذي يعبر عنه..

د. فيصل القاسم [مقاطعا]: وهل تعتقدون أن مناصرة بــن لادن رجعــة إلــى الوراء؟ نوع من التخلف؟ نوع من الجهل؟"

ألا تحمل هذه المقاطعة الحادة اتهاما خطيرا يدفع إلى التراجــع، وبخاصــة أن التداخل قائم بين ما يقوله ابن لادن ويروج له، وبين المعطى الديني؟!. جوهر خطاب الخاتم عدلان، وهو واضح لا غموض فيه، أن مناصرة بــن لادن، ولــيس الإســلام بطبيعة الحال، بمثابة رجوع إلى الوراء، ومخاصمة للديمقراطية. وقد يمكــن تفــسير التأييد والتعاطف بحالة الاحتقان واليأس، لكن فهم ظاهرة ما لا يعني تأييدها. لم يــشر الضيف في حديثه إلى كلمتي "التخلف" و"الجهل"، وليس من مبرر للمقاطعة المباغتــة الحادة إلا التشويش على فكر المتحدث والحيلولة دون وصول رسالته الكاملــة. وقــد تحقق هذا الهدف جزئيا، فقد بدا التلعثم والارتباك واضحا عندما عاد الخاتم عدلان إلى الحديث، قبل أن يتماسك من جديد ويسهب في شرح رؤيته التي تمت مقاطعتها، دون مبرر مهني مفهوم، من مقدم البرنامج الذي يبدو أقرب إلى المحامي الشرس في دفاعه عن تنظيم القاعدة وزعيمه:

"الخاتم عدلان: أعتقد.. أعتقد.. أعتقد ذلك. ببرنامجه المحض يعني الحديث الذي قاله إمام الجامع، مع احترامي له، الحديث الذي أدلى به الأخ شاكر منصور مع احترامي الشخصي له يوضح فعلاً أن هذا البرنامج (يقصد هنا أجندة بن لادن) هو نكوص إلى الوراء، هو تنكر للعصر، وهو لن يحل مشكلة الديمقراطية؛ لأنه يدعو للخلافة، وهي أعتقد أنها لا تعبر عن.. عن.. عن هذا العصر، وبالتالي لا تعبر عن الموقف الإسلامي الحقيقي، لأنه الإسلام ليس له تفسير واحد يحتكره هؤلاء الناس، الإسلام يجب أن يستجيب للعصر وللحضارة وللقيم التي وصل إليها الإنسان هذا.. هذا من جانب فهناك مشكلة في العالم العربي، لكن هذه المشكلة تحلها الشعوب بالأساليب الشعبية المشروعة الفعالة وليس عن طريق الإرهاب، نحن نعلم ما حدث في مصر من قبل هذه الجماعات بضربها للأبرياء وبضربها للاقتصاد المصري، هل ضرب الاقتصاد المصري عن طريق ضرب السياحة يؤدي لحل مشكلة الفقراء أم أنه يفاقمها؟ وبالتحديد لأن هذا حدث فالفقراء وقفوا ضد الجماعات الإسلامية، والجماعات الإسلامية بالضغوط التي حدثت عليها بعضها تنكر للأسلوب الذي كان يتبعه ودعا الآن لنوع من الحوار ونوع من السلام، وأعتقد أن هذا إيجابي، هذا جيد ويجب أن يسمح لهؤلاء الناس بالعمل الديمقراطي، ويجب أن تواجه كل الدول مسألة الديمقراطية، مسألة التعبير عن إرادة شعوبها، مسألة القضايا التي تعاني منها هذه الشعوب، هذه يجب أن تواجه، ولكنها لا تواجه بالنكوص إلى الوراء ولا تواجه بالإرهاب".

أسامة بن لادن، مع كثرة مؤيديه ومناصريه والمتعاطفين معه، يعبر عن إفراز للأزمة، ولا يقدم لها علاجا، وهو من ناحية أخرى لا يحتكر فهم الإسلام، ولا يحق له أن يفعل. الإرهاب سلوك مرذول لا يمكن تجميله أو تبريره والدفاع عنه، والنموذج المصري شاهد على ذلك.

المسألة المطروحة تتمثل في الإجابة عن سؤال مهم: تنمية الديمقراطية أم دعم الإرهاب؟!. مثل هذا المدخل يفتح آفاقا مهمة للحوار البناء، الذي يفيد المشاهد ويشكل وعيه ويجعله على بينة من خريطة الأحداث على الساحة الدولية بتفاعلاتها المعقدة، لكن التناول العقلاني الهادئ، البعيد عن مغازلة العواطف وترديد الكلمات الإنشائية، لا يصنع الإثارة المنشودة؛ ولذلك لا يلتقط مقدم البرنامج المفتاح المهم الذي يقدمه الخاتم عدلان، ويعود سريعا إلى مساره التقليدي، ويمنح الكلمة لمتحدث جديد يدافع بشراسة وقوة عن أسامة بن لادن، ويرى فيه الأمل الوحيد للإصلاح والتحرر!.

يقول الخاتم عدلان إنه لو خير بين الأنظمة العربية، بكل سلبياتها وسيئاتها، وبين البديل الذي يطرحه بن لادن، فسيختار الأنظمة القائمة: "أعتقد أن ما يمكن أن يلحقه بن لادن بهذه البلاد أسوأ عشرات المرات".

مثل هذا الطرح يتطلب من مقدم البرنامج أن يسأل عن الأسباب والدوافع، لكنه لا يفعل ذلك، ويستنبط من الرأي موقفا اتهاميا سلبيا، ويتم التعبير عنه بصياغة عنيفة لنتائج لم يقلها الرجل:

"د. فيصل القاسم: يعني إذن أنت بعبارة أخرى.. إذن أنت بعبارة أخرى تريد أن تقول إنك مع التخاذل ومع الانبطاح أمام أميركا وإسرائيل.

الخاتم عدلان: لا مع التخاذل.. لا مع التخاذل ولا مع الانبطاح؛ لأنني أوضحت أن هناك سبلا للنضال الشعبي ضد هذه النظم وإجبارها على تبني الديمقراطية ومطالب الشعب".

كل من يعارضون أسامة بن لادن ويرفضون منهج القاعدة "متخاذلون" ومنبطحون أمام أمريكا وإسرائيل، فكيف يتسنى استمرار حوار لا منطق فيه ولا موضوعية ولا قدرة على استيعاب الآخر؟!.

لو صدرت مثل هذه الآراء عن الضيف الآخر لهان الأمر واكتسب قدرا مفهوما من المصداقية، لكنه يصدر عن مقدم البرنامج!. وكأنه يسعى إلى المزيد من الكشف عن انحيازه السافر، عندما يقول:

"د. فيصل القاسم: سيد الخاتم، يعني أحاول أن أبحث عبر المداخلات لأجد فقط مداخلة واحدة تؤيدك، للأسف الشديد يعني أنا آسف جداً لم أجد، يعني كلهـا تؤيـد أسامة بن لادن بطريقة لم يسبق لها مثيل إلى ما هنالك من هذا الكـلام. الـشيخ.. نشرك معنا الشيخ ياسين عمر الإمام من بيروت. تفضل يا سيدي".

هل يعقل أن ملايين المشاهدين، من المحيط إلى الخليج، يؤيدون أسامة بن لادن "بطريقة لم يسبق لها مثيل"، ولا يشذ أحد أو واحد عن هذا الإجماع؟!. البرنامج يبرهن عمليا على ذلك الإجماع غير المنطقي، فكافة الاتصالات والمشاركات تؤيـد القاعـدة وزعيمها بلا حدود، وتبالغ في تأكيد الارتباط الوثيق الكامل بين التنظيم وأسـامة بـن لادن من ناحية، والإسلام وتعاليمه ودعوته إلى الجهاد من ناحية أخرى.

على سبيل المثال، يقول ياسين عمر الإمام، في اتصال تلفوني إن أسامة بـن لادن "رجل وديع وطيب ومتواضع"، ويقول محمد التميمي في اتصال تليفوني آخر:

"إن ابن لادن ليس كما يدعي الأخ عدلان أنه إرهـابي، ابـن لادن فـي نظـر وعيون المسلمين في أنحاء الأرض مجاهد في سبيل الله، وسيف مسلول من سيوف الله المُشرعة في وجه رأس الكفر في الأرض".

ولا يكتفي المحدث بوصف ابن لادن بأنه مجاهد و"سيف مسلول من سيوف الله"، بل إنه يضيف متحدثا باسم الأمة الإسلامية كلها:

"ابن لادن ضمير هذه الأمة، ولو أجريت يا دكتور فيصل استفتاء حول ابن لادن في العالم الإسلامي من المحيط إلى المحيط فستجد أن النسبة العظمى والساحقة مـن المسلمين في الأرض يؤيدون ابن لادن ويدعمونه ويعتبرونه ضميرهم أما كل من.. كل من يهاجم بن لادن ويتهمه بالإرهاب فهو في صف أعداء أمتنا، لا يريد لأمتنا أن تنهض، يريد لأمتنا أن تفقد روح التحدي؛ لأننا عندما فقدنا روح التحدي متنا، فالفرد عندما يفقد روح التحدي يموت، والشعوب عندما تفقد روح التحدي تموت".

اللافت للنظر أن الدكتور فيصل يعلن عن نتيجة التصويت الذي تم على الإنترنت، للإجابة عن سؤال: هل بن لادن إرهابي أم مجاهد أم لا أدري؟. وجاءت النتيجة على النحو التالي: ٨٢,٧% يعتبرونه مجاهدا، ٨,٨% إرهابي، ٨,٤% لا أدري. النسبة التي تقول إنه إرهابي تصل إلى ٨,٨%، ولأن عدد المشاركين في عملية التصويت ٣٩٤٢، فإن ذلك يعني وجود ما يزيد عن ثلاثمائة وأربعين مشاركا يتخذون تجاهه موقفا سلبيا. وبغض النظر عن مدى شفافية ودقة مثل هذه الاستفتاءات، التي يسهل التحكم في نتائجها، فإن الأرقام المعلنة تناقض ما يشير إليه مقدم البرنامج قبل دقائق، حول أنه لا يوجد من يؤيد الخاتم عدلان. ألم يفكر واحد ممن شاركوا في استفتاء الإنترنت أن يشارك بمكالمة تليفونية أو فاكس؟!.

الانحياز سافر لتنظيم القاعدة وزعيمه، وكان ذلك قبل شهرين من حادث الحادي عشر من سبتمبر، فهل تغير الموقف بعد أن وقعت الواقعة؟!.

هذا ما نسعى إلى الإجابة عنه من خلال تحليل حلقة أخرى من البرنامج نفسه، عقب أربعة أشهر من التفجيرات.

التفجيرات والإساءة إلى الإسلام:

تحمل الحلقة عنوانا في صورة تساؤلات، تسعى إلى الإجابة عنه: هل أساء أسامة بن لادن إلى الإسلام أم خدمه؟. وضيفا الحلقة هم الأستاذ أسامة سفر، عضو جمعية الصحفيين الكويتية، والشيخ عبد الله بن متروك الهذال، الواعظ في وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف السعودية، وقد بثت في الثاني والعشرين من يناير ٢٠٠٢.

الضيف الكويتي هو المعبر عن الاتجاه القائل بإساءة بن لادن إلى الإسلام، أما الشيخ السعودي فمؤيد لابن لادن ومدافع عنه بحرارة، ولن نقف طويلاً عند دلالة اختيار الأشخاص خاصة ما يتعلق بتأييد الشيخ السعودي لابن لادن، وما له من ارتباط بسعي قطر الدءوب للنيل من العربية السعودية، ولكننا سنتوقف عند أهم المحاور التي يناقشها مقدم البرنامج مع ضيفيه، وهي:

- هل أساء أسامة بن لادن للإسلام أم رفع رايته؟
- أثره في دخول الآلاف من الغربيين في الإسلام
- المزايدة على الدول الإسلامية وتخويل بن لادن للحديث باسم الإسلام
- شعبية بن لادن في العالم الإسلامي

اللافت للنظر، في تقديم الدكتور فيصل للحلقة، أنه يعرض وجهتي النظر المتعارضتين بلا تكافؤ أو تعادل، فالمساحة الزمنية المخصصة لاستعراض آراء مؤيدي تنظيم القاعدة وزعيمه، تماثل ضعف المساحة المتاحة لمن يعارضون ويرفضون الممارسات التي ينتهجها بن لادن وتنظيمه!. وحتى لا يكون القول مرسلا بلا دليل، فإننا نقدم النص الكامل لتقديم الدكتور فيصل:

"د. فيصل القاسم: تحية طيبة مشاهدي الكرام، هل أساء أسامة بن لادن إلى الدين الإسلامي فعلاً يتساءل أنصاره، أم أنه رفع راية الإسلام عالياً؟ ألم يحقق بن لادن للإسلام ما لم تحققه الدعوة الإسلامية خلال عقود طويلة؟ ألم يدخل الناس دين الله أفواجاً بعد أحداث أميركا؟ ألم يُسلّم آلاف الغربيين بفضله؟ ويضيف مؤيدو الرجل أن الكتب الإسلامية قد نفدت من مكتبات أميركا وأوروبا لشدة الإقبال عليها. ألم يصبح بن لادن أشهر شخصية في العالم؟ ألم تنتشر شعبيته كالنار في الهشيم إسلامياً وعالمياً؟ لا بل إن بعضهم وصف أحداث واشنطن ونيويورك بغزوة (منهاتن)، فقد حرر بن لادن الإسلام -برأيهم- من الصورة التي التصقت به في أذهان الغرب على أنه دين تعدد الزوجات والحيض والنفاس والاستكانة والخنوع، فجاء بن لادن ليظهر الإسلام على أنه دين ثورة وحقوق يأبى الظلم، قادر على زلزلة الأرض من تحت أعتى القوى المعادية للإسلام، وراح آخرون يشبهون بن لادن بصلاح الدين الأيوبي الذي جعل الغرب ينظر للإسلام نظرة احترام ورهبة.

هل بن لادن هو الذي أساء للإسلام، أم الدول الإسلامية؟ لماذا نحمل بن لادن وزر الصراع الحضاري بين الإسلام والغرب؟ مَنْ الذي بدأ ما يسمى بصراع الحضارات بن لادن أم الأميركي (صامويل هنتنجتون)؟

أما خصوم الرجل فيرون أنه على العكس من ذلك جعل الناس يخرجون من دين الله أفواجاً، فهو برأيهم إرهابي بامتياز والإسلام منه براء، من خوله جرجرة سمعة الإسلام وربطها بالإرهاب؟ ألم يصبح المسلمون بسببه إرهابيين في نظر العالم؟ ألا يشعرون بالخجل والندم مما فعله بن لادن لو تأكد؟ ألم يصبح الإسلام ملاحقاً في كل مكان بسببه؟ ألم تغدو كل الأنشطة الإسلامية حتى الخيري منها مشتبهاً به؟ ألم يُسئ أيما إساءة للمهاجرين العرب في الغرب؟ هل رفع راية الإسلام أم أنزلها إلى الحضيض؟ ماذا قدم للمسلمين فعلاً؟ لماذا يزايد بن لادن وأتباعه على الدول الإسلامية التي تحكم بشرع الله؟".

المساحة المخصصة لعرض آراء مؤيدي أسامة بن لادن وتنظيمه تصل إلى ما يزيد عن مائتي كلمة، أما عدد الكلمات التي تعرض من خلالها وجهة النظر المضادة فلا تزيد إلا قليلا عن مائة كلمة!.

هذا من الناحية الكمية الشكلية، فإذا انتقلنا إلى الناحية الموضوعية، فسنلاحظ – بلا عناء – أن الأفكار التي تثبت التأييد والتعاطف أكثر اتساقا وتماسكا، فضلا عن اتكائها على مفردات ذات تأثير ديني عاطفي. أليس هذا هو المعنى الذي يمكن استنباطه واستخلاصه من تكوينات مثل:

- ألم يحقق بن لادن للإسلام ما لم تحققه الدعوة الإسلامية خلال عقود طويلة؟
- ألم يدخل الناس دين الله أفواجا بعد أحداث أمريكا؟
- ألم يسلم آلاف الغربيين بفضله؟
- ألم تنفد الكتب الإسلامية في مكتبات أمريكا وأوربا؟
- ألم يحرر بن لادن صورة الإسلام من النمط التقليدي المسيء الذي يركز على تعدد الزوجات والحيض والنفاس والاستكانة والخنوع؟
- ألم يقدم بن لادن صورة بديلة قوامها الثورة والحق؟

- ألم يشبه زعيم القاعدة بالبطل التاريخي صلاح الدين الأيوبي؟
- ألم تتحمل الأنظمة الإسلامية والغربية – منذ البدء – مسئولية إشعال الصراع؟!.

كيف لمشاهد البرنامج أن يواجه هذا السيل من الأفكار الإيجابية الدفاعية، وما تتضمنه من معلومات لا دليل على صحتها، مثل تزايد الدخول إلى الإسلام بعد عملية بن لادن، ولا تفصيل لمضمونها، مثل نفاد الكتب التي تتحدث عن الإسلام، دون شرح لطبيعة واتجاهات هذه الكتب!. وثمة دفاعات أخرى تتسم بالعمومية واستحالة البرهنة عليها، مثل تغيير الصورة السائدة عن الإسلام، فهل يمثل الإرهاب دليلا على الثورة والحق ومناهضة الصور السلبية عن الحيض والنفاس وتعدد الزوجات؟!.

وفي المقابل، تتسم لغة معارض أسامة، بصياغة الدكتور فيصل، بقدر كبير من الارتباك والخلل وغياب الدقة والوضوح. ما الذي يعنيه هؤلاء الخصوم بخروج الناس من دين الله أفوجا؟!. هل توجد وقائع تؤيد مثل هذا الزعم الكاذب؟. وما المقصود من الإنشائية الساذجة في عبارة مثل إنه "إرهابي بامتياز"؟!. وبمنهج مريب يتعمد مقدم البرنامج أن يمرر بعض أفكاره ورؤاه، دون نظر إلى البناء المنطقي المنتظر من خصوم الرجل، ومن ذلك قوله: "ألا يشعرون بالخجل والندم مما فعله بن لادن لو تأكد؟"، فالقول بـ"لو تأكد" تشير إلى حتمية إعادة النظر في تحميل القاعدة مسئولية العملية، وتشير من ناحية أخرى إلى أن البراءة منها تعني زوال الاتهام جملة!.

ثم ما الذي يعنيه الدكتور فيصل من جملته الأخيرة في تقديم وجهة نظر الاتجاه ***المعارض لأسامة: "لماذا يزايد بن لادن وأتباعه على الدول الإسلامية التي تحكم بشرع الله؟".***

المعروف، عند من يشاهدون البرنامج ويملكون الحد الأدنى من الوعي، أن أسامة لا يعترف بأن هذه الدول تحكم بشرع الله، وأن خلافه الجوهري معها يدور حول ابتعادها عن تطبيق الشريعة كما يجب، فكيف يتهم بالمزايدة؟!.

المحصلة النهائية، التي تترسخ في أعماق المتلقي، تتمثل في محورين متكاملين: تماسك وقوة منطق المدافعين عن القاعدة وزعيمها، تهافت وخلل المنطق المضاد الذي يرفض ويدين ويرى الإساءة في سلوك التنظيم وأفكاره.

وعلى مدى الحلقة، يستمر منهج الدكتور فيصل في الانحياز إلى القاعدة وتسفيه خصومها ومعارضيها، فعندما يقول الشيخ الهذال ما نصه إن أسامة بن لادن "***يأبى أن يرضخ العالم الإسلامي لطغيان العدو الكافر، أو لطغيان الولايات المتحدة الأميركية، إذن ينبغي على الولايات المتحدة الأميركية أن تعرف أن هناك قيما ومبادئ للعالم الإسلامي وعقيدة، وينبغي على الولايات المتحدة الأميركية أن تعرف أن هناك أمة تحت الشمس تُسمى أمة الإسلام، تحمل عقيدة، وتحمل مبادئ وقيما وشعائر دينية وإسلاما وأخلاقا، ولها أنظمتها، التي ممكن أن تقوم بها، أنظمتها السياسية شرعية، وأنظمة.. ويوجد أنظمة أيضاً إدارية ويوجد أنظمة اقتصادية، ويوجد أنظمة زراعية مباحة ويوجد أنظمة تقوم بها دولة أمة حضارية إسلامية***".

لا يعلق مقدم البرنامج على الأفكار الخطيرة التي يروج لها الشيخ، كالقول بالرضوخ للعدو "الكافر"، وكالزعم بأن أسامة يعبر عن "قيم ومبادئ وعقيدة" الإسلام!. من حق الضيف، بطبيعة الحال، أن يقول ما شاء، لكن غياب التعليق المضاد يعني موافقة ضمنية، وقد يشعر المشاهد أن ما يقال من البديهيات التي لا تستدعي خلافا ولا تستحق نقاشا. كل ما يقوله فيصل ***القاسم هو: "كويس جدا.. بس.. لكن أريد جوابا على هذا الكلام"!.***

ويستمر الشيخ الهذال في دفاعه المستميت عن بـ لادن، وأخطر ما في الأمر أنه "يوحد" بين زعيم التنظيم والإسلام، ويرى أن الولايات المتحدة الأمريكية تعاديهما معا!.

يتساءل الدكتور فيصل: "هل تريد أن تقول إن أسامة بن لادن قام بالجهاد الحقيقي؟"، ويرد الشيخ الهذال دون ممانعة أو مناقشة أو اعتراض:

"أسامة بن لادن بعد ما طبق.. كان رجلا طبقا، هو الرجل نفسه،لا شك أنه قام بجهاد ضد الكفار، لا شك، نعم قام بجهاد ضد.. ضد المعتدي الظالم، وها هي أميركا لا ترغب أن تقوم مبادئ إسلامية على وجه الأرض، لا ترغب أن يكون هناك تطبيق كامل للإسلام بقيمه ومبادئه، ولا ترغب أن يكون هناك اقتصاد إسلامي حُر.. اقتصاد إسلامي.. ".

مرة أخرى يتحدث الهذال عن الجهاد ضد الكفار، ويؤكد على عداء الولايات المتحدة للإسلام والمسلمين، ورفضها لتطبيق الإسلام بقيمه ومبادئه، وهو ما يعني أن المعركة الحقيقية مع الإسلام وليست مع أسامة، وأن ما يقوم به زعيم القاعدة ليس إرهابا، بل إنه دفاع شرعي ومشروع عن الإسلام والمسلمين!. ويصل الأمر بالشيخ الهذال إلى تشبيه أسامة بصلاح الدين!، وعندها يمنح الضيف الآخر فرصة الرد.. وقبل أن يبدأ أسامة سفر، تأتي المقاطعة:

"أسامة سفر: طبعاً الاختلاف..

د. فيصل القاسم: أريد الأجوبة محددة، نعم..

أسامة سفر: الاختلاف كبير يعني بين أسامة بن لادن وصلاح الدين الأيوبي، يعني أولاً يعني أنا أعتقد أن الشيخ متفق وياي إن إحنا ضد قتل الأبرياء المدنيين حتى لو كانوا أمريكان، يعني O.K..

د. فيصل القاسم: طيب.. هذا ليس الموضوع يعني لا تخدنا.. خلينا بالموضوع"..

كلمتان فقط يقولهما أسامة سفر: "طبعا الاختلاف"..، فإذ بالدكتور فيصل يطالبه بأجوبة محددة!!. وعندما يقول الرجل بضرورة إدانة قتل المدنيين الأبرياء، يؤكد فيصل أن هذا ليس الموضوع!!.

ما الموضوع إذن؟!. ولماذا لا يمارس الدكتور فيصل مثل هذه المقاطعات المستمرة مع الضيف الآخر الذي يدافع عن بن لادن ويتهم الآخرين بأنهم كفار؟!.

إدانة قتل الأبرياء "ليس الموضوع"، أما الأفكار التي يروج لها الشيخ الهذال فلا تعليق عليها ولا اعتراض ولا مقاطعة، بل إن الهذال عندما ينفي التهمة ويرى أن الأمر كله مؤامرة، لا يرى مقدم البرنامج ما يستوجب التدخل لشرح أبعاد القضية التي يناقشها في برنامجه!. لا تتاح لأسامة سفر فرصة كافية لشرح رؤيته، أما الشيخ الهذال فيواصل هجومه، وينتقل إلى نقطة جديدة بالغة الحساسية، ويحمل "اليهود" مسئولية الكارثة:

"عبد الله بن متروك الهذّال: أنا أتعجب.. أنا أتعجب من الولايات المتحدة الأميركية النصرانية كيف ترضى.. أن يعبث بها إخوان القردة والخنازير.. هؤلاء الذين قتّلوا الأنبياء والمرسلين، اليهود هم أخبث من وطأ الثرى، اليهود هم.. هم سوس .. العالم كله".

ويواصل الشيخ خطابه التحريضي، دون أن يذكره فيصل القاسم بأن "هذا ليس الموضوع" كما فعل مع الضيف الآخر عندما تحدث في صميم الموضوع!.

عبد الله بن متروك الهذّال [مستأنفاً]: "فالولايات المتحدة الأميركية إذا طاوعت اليهود ضاعت، واليهود لا يحترمون عيسى ابن مريم عليه السلام، لمعلوميتك أن اليهود لا يحترمون عيسى ابن مريم".

مفردات مثل "النصرانية" و"إخوان القردة والخنازير" و"أخبث من وطأ الثرى" و"سوس العالم" في مناقشة سياسية، يفترض فيها أنها موضوعية وتهدف إلى مناقشة قضية مصيرية!. إذا كانت هذه هي حدود ثقافة الشيخ ووعيه وطبيعة أفكاره، فماذا عن الدكتور فيصل؟!. أليس من حق ملايين المشاهدين أن يستمعوا إلى تصحيح واجب، يرفض الخلط المنفر بين الديني والسياسي، ويميز بين اليهودية والصهيونية، ويدعو إلى لغة راقية بعيدة عن الخطابية المرذولة المتعصبة؟!.

المقاطعات من نصيب الضيف الكويتي، وفي سياق لا يبرر المقاطعة، أما الخطاب المتطرف المؤيد لأسامة بن لادن فلا مناقشة له، ويبدو أنه لا خلاف حوله!.

وكما هو الحال في الحلقة السابقة، يؤكد البرنامج أن المداخلات جميعا تؤيد بن لادن وتدافع عنه، وكأن المطلوب هو حشد الجميع في هذا الاتجاه:

"د. فيصل القاسم: في واقع الأمر الكثير من الفاكسات وعشرات المشاركات عبر الإنترنت، يعني في معظمها تقول: مثلاً لدي بدر حمود العتيبي من السعودية يقول: الشيخ أسامة لم يسئ للإسلام بل أعزه.

لدي المهندس عبد الوهاب الشيخ من أميركا يقول: هو مفخرة لكل عربي ومسلم في العالم، وقد رفع راية العروبة والإسلام عالياً.

المحامية وصال كعابنة من الأردن: إن الشيخ بن لادن قد رفع راية الإسلام والعروبة عالياً إذ نادى علناً وجهراً ضد تصرفات أميركا الديكتاتورية مع ادعائها بالديمقراطية، ونادى بتحرير الشعوب من هذا الظلم، هذا غيض من فيض، كله يعني تقريباً معظمه في هذا الاتجاه، كيف ترد؟"

أسامة بن لادن "أعز الإسلام"، و"مفخرة لكل عربي ومسلم"، و"رفع راية العروبة والإسلام عاليا"، و"نادى بتحرير الشعوب من الظلم".

الغريب المثير أن هذا كله "غيض من فيض"!، فالإجماع على تأييد بن لادن كاسح ولا جدوى من المناقشة!.

المشاركات التليفونية كلها تصب في خانة الدفاع عن أسامة بن لادن، والشيخ الهذال ينفرد بالساحة، فالمساحة المتاحة له تصل إلى ٧٤% مقابل ٢٦% لأسامة سفر، وحتى هذه المساحة الأخيرة مزدحمة بالمقاطعات والاعتراضات!.

إذا كانت الإثارة هي الهدف، فقد حقق برنامج "الاتجاه المعاكس" مبتغاه، لكن الضجيج لا يمكن أن يكون هدفا. الطموح الحقيقي أن تتم مناقشة قضية حساسة شائكة، مثل الإرهاب، من منظورين مختلفين، وبرؤية موضوعية متزنة، سعيا إلى إفادة المشاهدين والارتقاء بوعيهم، لكن الأمر – واقعيا وعمليا – يتحول إلى مشاجرات على الهواء، ومزايدات لا ضابط لها!.

للبرنامج، من حيث فكرته وشخصية مقدمة، خصوصية لا تجعله مقياسا وحيدا لقراءة وتحليل موقف قناة "الجزيرة" من الإرهاب، فثمة برامج أخرى تماثله في التوجه، وبرامج مغايرة تماما.

بلا حدود :

من البرامج المماثلة، عبر منهج مختلف، برنامج "بلا حدود"، الذي يقدمه الأستاذ أحمد منصور. وقد قدم البرنامج حلقة خاصة عن "مستقبل المسلمين في الغرب بعد أحداث سبتمبر"، وأذيعت قبل يوم واحد من مرور عامين على حادث البرجين الشهير: ١٠-٩-٢٠٠٣.

استضاف البرنامج الدكتور أحمد جاب الله، مدير المعهد الأوربي للعلوم الإنسانية في باريس، ونائب رئيس اتحاد المنظمات الإسلامية في أوربا.

وإذا كان العنوان الذي أشرنا إليه يعبر عن الفكرة العامة التي يناقشها البرنامج، فإن أهم المحاور التفصيلية تتمثل في التعرض للقضايا التالية:

- تداعيات أحداث سبتمبر على واقع المسلمين في الغرب
- مسؤولية زيادة الكراهية ضد المسلمين في المجتمعات الغربية
- حقيقة ربط الإسلام بالإرهاب لدى الغربيين
- أوضاع المسلمين في ألمانيا بعد عامين من أحداث سبتمبر
- معاملة المسلمين في أميركا في العامين الماضيين
- تداعيات تجميد وإغلاق المؤسسات الخيرية والإسلامية على وضع المسلمين في الغرب

ويشير مقدم البرنامج، في كلمته الافتتاحية التي يستعرض من خلالها الهدف من الحلقة، إلى ما أدت إليه عملية الحادي عشر من سبتمبر من نتائج وتداعيات سلبية على أوضاع المسلمين في الغرب:

"الذي كان قبلة وملاذاً لكثير من المسلمين الذين كانوا يعانون في بلادهم من الاضطهاد والظلم أصبح موطن خوف واضطهاد وعنصرية لكثير.. من المسلمين الذين يعيشون فيه".

ويتمثل الالتزام والنضج المهني في ملمحين مهمين، لابد من الإشارة إليهما والإشادة بهما. الملمح الأول هو التوثيق الإحصائي وثيق الصلة بالقضية التي يناقشها البرنامج، فقدم الأستاذ أحمد منصور بيانات مهمة، تعين المشاهد على استيعاب الأبعاد الحقيقية للقضية موضوع المناقشة، وهي بيانات دقيقة وموجزة:

"يبلغ عدد المسلمين الذين يقيمون في أوروبا أكثر من خمسين مليون مسلم، نصفهم يعيشون في أوروبا الغربية، منهم ستة ملايين في فرنسا يشكّلون ١٠% من عدد السكان، ويمتلكون قوة تصويتية مقدارها مليون وثمانمائة ألف صوت انتخابي، كما يزيدون عن أربعة ملايين مسلم في كل من بريطانيا وألمانيا، كما يزيدون عن سبعة ملايين في الولايات المتحدة الأميركية، ويسعى هؤلاء للتعايش مع المجتمعات التي يتواجدون فيها، لكنهم حسب كثير من التقارير يواجهون تمييزاً عنصرياً وضغوطاً، ويعيشون أزمات وتحديات كثيرة".

من خلال هذه الأرقام، يستطيع المشاهد أن يقترب من وضعية المسلمين في أوربا، ويتهيأ – بالتالي – لمناقشة ما يطرحه البرنامج حول مستقبلهم بعد أحداث سبتمبر، وجملة التفاعلات التي يمكن أن تؤثر على وضعيتهم ووجودهم وحقوقهم المكتسبة عبر عقود طويلة من الإقامة والتواصل مع النظام الغربي.

أما الملمح الثاني الإيجابي فيتجسد في تقديم الضيف وتعريفه بما يتيح للمشاهد الذي لا يعرفه– ويمثل هؤلاء الأغلبية بطبيعة الحال– أن يدرك قيمة الشهادة التي يدلي بها الرجل، ذلك أن موقعه يتيح له أن يكون ذا فائدة وقدرة على التقييم:

"وُلد أحمد جاب الله في تونس عام ١٩٥٦.

حصل على الإجازة العالية في أصول الدين من كلية الشريعة وأصول الدين من جامعة الزيتونة عام ٧٩.

حصل بعدها على الماجستير والدكتوراه من جامعة السربون في باريس في الدراسات الإسلامية، ويعمل الآن مديراً للمعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية، ونائباً لرئيس اتحاد المنظمات الإسلامية في أوروبا.

عضو في مجلس الإفتاء الأوروبي، تولّى رئاسة اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا بين عامي ٨٥ و٩١ صدر له أكثر من عشرة كتب منها "مفهوم المواطنة الأوروبية ومقتضياتها في ميزان الإسلام"، "قواعد التعامل بين المسلمين وغيرهم في المجتمعات الأوروبية"، "الخلفية الثقافية للعلاقة بين الإسلام والغرب".

وثمة ملمح ثالث، يتراوح بين الإيجابية والسلبية، يتسم به مقدم البرنامج بشكل شخصي، ونعني به قدرته الملموسة على استنباط الأسئلة من الإجابات، والحرص على تحقيق درجة من الندية والتكافؤ مع ضيف البرنامج، وهو حرص وليد الإحاطة الوافية بالموضوع، والإعداد الجيد الذي يتسلح بكثير من المعطيات. لكن هذه السمة الإيجابية تنقلب إلى مظهر سلبي عندما يبالغ الأستاذ أحمد منصور في استعراض عضلاته، وعندما يتجاوز فكرة المحاورة المتعادلة الجادة إلى الاستفزاز.

التوجهات الفكرية الشخصية لمقدم البرنامج تؤثر على أسلوبه في الحوار، فهو لا يرضى إلا بما يتوافق مع رؤيته وينتصر لها. وعلى سبيل المثال، فإنه يعترض على ما يذهب إليه الدكتور أحمد جاب الله من بروز بلورة اتجاه أوربي، بعد أحداث سبتمبر، يختلف نسبيا عن التوجه الأمريكي في التعامل الأحادي المتعصب مع الإسلام والمسلمين، ويقاطعه:

"أحمد منصور: لكن المعطيات في أوروبا تؤكد على عكس ذلك، في شهر ديسمبر الماضي ٢٠٠٢ صدر في فرنسا كتاب "الجمهورية والإسلام"، وهذا الكتاب يعتبر مسلمي فرنسا خطراً على الجمهورية، يحذِّر من انتشار النفوذ الإسلامي، أما يعتبر ذلك نوعاً من التصعيد ومن التعبئة ضد الوجود الإسلامي في أوروبا؟ ولم يكن هذا وحده، وإنما هناك تيار يميني قوي يدعو دعوات مناهضة للوجود الإسلامي في أوروبا، ويشير إلى امتداد الصراع ما بين المسلمين وما بين الأوروبيين".

قد تكون المعلومات التي يتكئ عليها أحمد منصور صحيحة، لكن الصحيح أيضا أنها جزء من كل، ولا تعبر عن المشهد العام الذي يتضمن قدرا من الاختلاف والتباين. إنه يهمل حقيقة أن الكتب المعادية للإسلام والمسلمين كانت موجودة ومنتشرة قبل أحداث سبتمبر، كما أن مواقف الأحزاب اليمينية والعنصرية، في فرنسا وغيرها، ليست وليدة الحادث. في أوربا الغربية، بحكم وبفضل ديمقراطيتها، توجهات مختلفة إلى درجة التناقض، ومن المنطقي أن تتباين الرؤى، لكن غير المنطقي وغير المبرر التركيز على جانب دون آخر من ملامح الصورة الواقعية. وإذا كان الدكتور جاب الله يتحدث عما يريد تنميته وإظهاره للمزيد من التواصل وتجاوز الصدام، فإن أحمد منصور يلح على ما يريد ترسيخه في أذهان المشاهدين!.

ولعل المقاطعة المستمرة هي أبرز العيوب المهنية، ذات البعد الفكري، في أسلوب مقدم البرنامج أحمد منصور، فما أكثر مقاطعاته لحديث ضيفه. الفرق كبير ودقيق بين الرد على الضيف ومعارضته ومناقشته والاختلاف معه، وبين المقاطعة المستمرة التي تشوش عليه وتحول دون قدرته على صياغة الفكرة التي يريد تقديمها.

الهاجس الرئيسي لأحمد منصور يتمثل في سؤال يعيد طرحه عبر صياغات مختلفة، ويكرره عدة مرات كأنه يريد أن يكون النقاش كله من هذا المنطلق المحدد:

"أحمد منصور: دكتور، هل نستطيع أن نقول بأن الإفراز النهائي لأحداث الحادي عشر من سبتمبر بعد عامين من وقوعها هو أن المسلمين أصبحوا العدو رقم واحد بالنسبة للغرب؟".

المسألة ليست في عداوة الغرب للإسلام والمسلمين، لكنها في إدراك جذور وأسباب وأبعاد هذا العداء. وثمة قضية مهمة يطرحها الدكتور جاب الله، وتمثل مدخلا مهما للإحاطة الواعية الموضوعية، لكن مقدم البرنامج لا يلتفت إليها ولا يركز عليها، بل إنه يتعمد التجاهل والإهمال، ربما لأنها تعارض توجهاته الفكرية والسياسية، وربما لأنه لا يملك القدرة على الحوار الموضوعي حولها. يقول الدكتور جاب الله:

"هناك بعض المفكرين خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر طرحوا قضية العنف والإرهاب، هل هذا.. هذا السلوك هو سلوك نابع من أفراد قلائل، أم أن هذا السلوك الذي يتبناه أفراد قلائل من المسلمين له أصول في مصادر الإسلام نفسها؟ وأعني بذلك طبعاً آيات الجهاد وغيرها".

كيف يتفاعل مقدم البرنامج مع المقولة الخطيرة التي تكشف عن رؤية غربية سائدة، لا سبيل إلى تجاهلها حتى لو اختلفنا معها؟!. يقول لضيفه: "أنت لن تغير الدين"!. وكأن تغيير مبادئ وأسس الدين من المسائل المطروحة للمناقشة! أو كأن أفكار الإرهابيين عن الجهاد باتت هي روح الدين.

السؤال الجوهري: هل يمثل المتطرفون والإرهابيون ظاهرة استثنائية، أم أنهم جزء من النسيج الفكري السياسي؟. والمشكلة بطبيعة الحال في الفهم المغلوط لمبادئ الإسلام وتعاليمه ومفاهيمه عن الجهاد، ومثل هذا التصور الذي لا ينبغي له أن يكون مسألة خلافية، يقود إلى ارتباك يتمثل في الحوار التالي:

"أحمد منصور: لكن أنتم.. أنتم كمسلمين الآن .. ما يتعلق بالجهاد هو شيء من أصول الإسلام، ما يتعلق بالدفاع عن أعراض المسلمين شيء من أصول الإسلام هل ستسلخون هذا وأنتم تقدمون الإسلام للغربيين من.. من الدين حتى تقدموا أنفسكم كأناس مسالمين وطيبين وصالحين؟

د.أحمد جاب الله: لأ، طبعاً نحن كمسلمين يعني نحتكم إلى مصادر ديننا، ولا يمكن أن نغيِّر فيها، ولكن ما هو مفهومنا للجهاد؟ طبعاً هذه قضية أعتقد ليست مطروحة للمسلمين في أوروبا".

مفهوم الانسلاخ ليس واردا عند الاتجاه الإسلامي المعتدل الرافض للإرهاب والتطرف، والسؤال الذي يطرحه الأستاذ أحمد منصور يجعل القضية ذات لونين لا اعتدال بينهما: التمسك بالإسلام كاملا بالمفهوم الذي ينتهج سلوكيات الإرهاب والتطرف الفكري، أو الانسلاخ عنه لإرضاء الأوربيين، وإقناعهم بأننا مسالمون وطيبون وصالحون؟!. فأي منطق هذا؟!.

المنهج نفسه، الذي يجمع بين الاستفزاز والانتقائية والإصرار على المقاطعة، يمارسه أحمد منصور في التعامل مع الاتصالات والمداخلات التليفونية.

تعليقا على اتصال إبراهيم الزيات المقيم في ألمانيا، بشأن تفتيش أحد المساجد بعد بلاغ للأمن عن اختباء بعض الإرهابيين فيه.

يتجاهل أحمد منصور أن يقدم تعريفاً بشخصية القائم بالاتصال، وهو ممثل جماعة الإخوان المسلمين في ألمانيا. عدم إدراك المشاهد لهذه الحقيقة، التي يعرفها مقدم البرنامج بالضرورة، ليست إلا نوعاً من التضليل المقصود، ذلك أن الفارق كبير بين المسلم العادي المقيم في ألمانيا وممثل الحركة السياسية ذات الخصوصية. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن ما أشرنا إليه سابقاً، بصدد مكالمة سليمان أبو غيث، ليس إلا منهجاً تعتمده القناة في اختيار من تتلقى اتصالاتهم، مع الحرص على إخفاء هوياتهم السياسية والفكرية. القضية هنا تتعلق بحق المشاهد في الإحاطة الكاملة بطبيعة المشاركين في البرنامج، وهو حق أصيل وليس مطروحاً للاختيار العشوائي.

يقول صاحب المكالمة: "تم تعويض المسجد سجاد جديد وأبواب جديدة"..

وهنا يقاطعه أحمد منصور معلقا في تهكم لا موضوع له

أحمد منصور: ده أقل حاجة يعني.. إذًا الأمور واصلة لمرحلة إن واحد يقول بن لادن في مسجد في فرانكفورت، ويقوموا بحملة على المسجد يعني أقل شيء يعيدوا فرش المسجد يعني، أحسن يقولوا بن لادن في (الجزيرة) ويجوا يهجموا علينا كمان تبقى بلوى يعني، ده كده ممكن أي حد يقول بن لادن في أي حتة يعني.

مثل هذا "الاستظراف" لا موضع له في مناقشة جادة، مهما تبلغ المرارة والغضب، ذلك أن الأمر يتحول إلى استخفاف يقترب من "التهريج" عند الحديث عن "الجزيرة" والهجوم عليها وتفتيشها!!.

أهي مناقشة جادة لقضية خطيرة، أم جلسة للتنكيت والقفشات؟!

ويستمر التهكم غير المبرر في نهاية الاتصال مع الأستاذ إبراهيم الزيات، وكأن مقدم البرنامج قد قرر أن يستثمر الواقعة المذكورة لإثارة الضحكات:

"أحمد منصور: أشكرك أستاذ إبراهيم رئيس التجمع.. إبراهيم الزيات (رئيس التجمع الإسلامي في ألمانيا)، لكن عندي لك اقتراح هو أنكم تبحثوا عن المساجد كلها اللي عايزة يعاد فرشها واللي عايزة تتجدد وتقولوا بن لادن فيها فتقوموا تكسبوا مكسب عظيم جداً إنهم يعيدوا فرشها بالنسبة لكم ثاني".

أبمثل هذا الاستخفاف وخفة الظل، تعالج مثل هذه القضايا المصيرية؟!.

واللافت للنظر بحق، هو ما يقوله أحمد منصور عن الإجراءات التي اتبعتها الولايات المتحدة ضد ممولي الإرهاب، وهي إجراءات لا تخلو من التعسف والتعنت، لكن تقييمها الموضوعي يتطلب الإحاطة بكافة أبعادها من ناحية والتأكيد على إدانة الأعمال الإرهابية ومن يمولونها من ناحية أخرى. فماذا يقول مقدم البرنامج، وهو بصدد تقديم مكالمة تليفونية من رجل الأعمال السعودي ياسين القاضي؟!. يقول ما نصه بالحرف الواحد:

"أحمد منصور: من الأشياء البارزة التي وقعت بعد الحادي عشر من سبتمبر هو أن الولايات المتحدة الأميركية ودون أي سند قانوني قامت بتجميد حسابات العشرات من الهيئات والمؤسسات الخيرية والإسلامية وتجميد حساب العشرات من رجال أعمال عرب أو مسلمين كل اتهاماتهم أنهم كانوا يخرجون بعض زكاتهم -التي فرضها الله سبحانه وتعالى عليهم- إلى بعض الجهات، ومن بين هؤلاء رجل الأعمال السعودي المشهور والمعروف ياسين القاضي، وهو معنا الآن من السعودية، أستاذ ياسين، مرحباً بك".

الإجراءات الأمريكية بلا سند قانوني؛ ولذلك فإنها تستحق الإدانة، والخلط دون تمييز دليل على التخبط والارتباك، وهو ما يستحق التعليق، لكن المريب هو ما يقوله مقدم البرنامج عن توجه أموال الزكاة "إلى بعض الجهات" دون تحديد، وكأن من حق

رجال الأعمال المسلمين أن يقدموا زكاتهم لمن يشاءون، وكأنه من واجب الولايات المتحدة الأمريكية ألا تتدخل وتفتش عن طبيعة هذه "الجهات" ونوعية الأعمال والأنشطة التي تقوم بها!. مصداقية النقد تتطلب إدانة الإرهاب ومموليه أولا، ثم التحفظ على التعسف غير القانوني الذي لا يميز بين الأعمال الخيرية والإرهابية، لكن الأستاذ أحمد منصور لا يفعل شيئا من ذلك!.

هل نجحت الحلقة في الإجابة عن السؤال الرئيسي: ماذا عن مستقبل المسلمين في الغرب بعد أحداث سبتمبر؟!.

الإجابة بالنفي، فقد انشغل مقدم البرنامج بالانتصار لوجهة نظر غير متوازنة، واهتم بكثير من القضايا الفرعية، وارتكب جملة من الأخطاء الفكرية والمهنية التي شوشت على الخطاب المحوري للحلقة، فلم يصل مضمونه إلى جمهور المتلقين: انحياز سافر بلا اعتدال، مقاطعات مستمرة استفزازية، تهكم غير مقبول على المستويين الفكري والمهني معا.

أكثر من رأي :

ربما يختلف الأمر كثيرا في برنامج "أكثر من رأي"، الذي يتبادل تقديمه مجموعة من مقدمي ومقدمات "الجزيرة"، ولعله أكثر البرامج الحوارية مراعاة للقواعد المهنية؛ حيث يحاول أن ينجو من الغوغائية الإنشائية التي يتسم بها برنامج "الاتجاه المعاكس"، ويبتعد قليلاً عن الانحياز والتعصب الذي يسيطر على برنامج بلا حدود.

ومن ناحية أخرى، فالبرنامج الذي نتوقف عنده يبدي اهتماما كبيرا بحادث ١١ سبتمبر وتنظيم القاعدة، وخلال السنوات الممتدة من وقوع الحادث في سبتمبر ٢٠٠١، إلى حلول الذكرى الثالثة في سبتمبر ٢٠٠٤، قدم البرنامج ١٢ حلقة عن الحادث والتنظيم: منها ٥ حلقات في الشهور التالية للتفجيرات حتى نهاية عام ٢٠٠١، وثلاث حلقات في كل من عامي ٢٠٠٢ و٢٠٠٤، وحلقة واحدة في ٢٠٠٣.

بعد ثلاثة أيام فقط من تفجيرات نيويورك وواشنطون، قدمت منتهى الرمحي* حلقة عاجلة، بديلا لحلقة أخرى عن قضية الصحراء المغربية، استضافت فيها أربعة من الخبراء والمهتمين، وهم:

- عبد الباري عطوان، رئيس تحرير صحيفة القدس العربي
- محمد عبد الله الركن، أستاذ القانون العام– جامعة الإمارات
- عبد الرحمن العمودي، الأمين العام للمجلس الإسلامي الأميركي
- د. قاسم جعفر، الباحث بالقضايا الإستراتيجية

ناقشت الحلقة، عددا من المحاور المهمة وثيقة الصلة بالحادث وأسبابه وتداعياته، وأهم هذه المحاور:

- انفجارات نيويورك وواشنطن والموقف تجاه العرب والمسلمين
- التحالف الدولي لمحاربة الإرهاب ودور العرب وإسرائيل فيه

* انتقلت إلى العربية لاحقاً وهي تقدم الآن برنامج بانوراما

- التخاطب مع أميركا ورد فعل الشارع العربي
- حقيقة تورط أسامة بن لادن في التفجيرات
- شكل الضربة المتوقعة على أفغانستان
- ظاهرة الإرهاب وأسباب الهجوم على أميركا
- دور أميركا في المنطقة بعد التفجيرات الأخيرة

ومن الجلي أن ما تنشغل به الحلقة يجمع بين الجذور التاريخية ومعضيات الواقع وآفاق المستقبل، ويتجلى الشعور بأهمية الحدث في تقديم الأستاذة منتهى، حيث تشير في تقديمها إلى أن ما حدث كان شبيها بأفلام الرعب في السينما الأمريكية، ***"وأن الكل في أميركا المصدومة والمرعوبة والمرتبكة يتحدث بلغة الثأر والانتقام، لكن أحداً لم يسأل عن السبب، ولكن رغم لغة التهديد والوعيد لكل مَنْ يثبت أن له صلة بهذه الهجمات، تبقى الحقيقة الأصدق، والتي اكتشفها الأميركيون في وقتٍ متأخر، هي أن بلادهم- ورغم قوتها الهائلة- عاجزة عن حماية نفسها، وأن حفنةً ممن يسمونهم بالإرهابيين يمكن أن تُلحق بهم خسائر هائلة".***

وإذا كان البرنامج يتسع لآراء واجتهادات تدافع عن أسامة بن لادن والقاعدة، وتسعى إلى تبرئته من التورط في العملية الإرهابية، أو تبحث – على الأقل – عن ظروف مخففة تجعل ما حدث قابلا للتجميل والتبرير، فإنه يتسع – أيضا – وفي وقت مبكر، لاستيعاب رؤية مختلفة كالتي يقدمها الدكتور قاسم جعفر، الذي يذهب إلى أن الحادث الإرهابي بمثابة إعلان حرب، وأن ما تفعله الولايات المتحدة، وما سوف تفعله، ليس إلا ردا على الحرب الموجهة ضدها:

"فهذه العملية الإرهابية كانت غير مسبوقة إن كان من حيث الأهداف، إن كان من حيث حجم الخسائر وليس فقط الخسائر البشرية، نحن هنا أيضاً نتحدث عن

خسائر اقتصادية لم يتمكن أحد من تقديرها حتى الآن وربما بلغت ٢٠ أو ٣٠ أو ربما أكثر من ٣٥ مليار دولار، يعني هذه وحدها ربما في يومٍ واحد تُقدر بثلث الكلفة الإجمالية لحرب الخليج منذ عشر سنوات، فهذه مسألة ضخمة، وبالتالي كانت حرب على الولايات المتحدة، أو اعتبرها الأميركيون أنها شكلت حرباً عليهم؛ ولذلك هم الآن يريدون أن يردوا عليها بما يعتبرونه حرباً على الذين هم يعتبرونهم مسئولين عن هذه العملية".

مرتكزات الخطاب الذي يقدمه الدكتور قاسم بالغة الوضوح: العملية إرهابية لا يمكن الدفاع عنها، وحجم الخسائر البشرية والاقتصادية غير مسبوق، والمحصلة النهائية هى أن قرار الحرب "ضد" أمريكا قد تم إعلانه، وما قد تفعله أمريكا هو رد فعل وليس فعلا.

ويواصل الدكتور جعفر شرح رؤيته، فيقول:

"د. قاسم جعفر: يعني إذا كنا دقيقين الولايات المتحدة لم توجه أصابع الاتهام رسمياً حتى الآن إلى أي جهة، أقرب شيء ممكن كان في هذا المجال الكلام الذي صرح به وزير الخارجية الجنرال (كولن باول) يوم أمس في حديث تليفزيوني، وعندما سُئل إذا كان يعتبر أن أسامة بن لادن هو في مقدمة المشبوهين حول المسؤولية في هذه العملية، قال نعم ولكن هذا ليس اتهاماً رسمياً، المهم في الموضوع أن الولايات المتحدة الآن تعمل على إنشاء ما يمكن أن نصفه بتحالف دولي يذكرنا إلى حدٍ كبير بالتحالف الذي عملت على إنشائه أيام إدارة الرئيس بوش الأب قبل سنوات.. رداً على حرب الخليج، أو رداً على الغزو العراقي للكويت آنذاك، تعمل الآن على إنشاء مثل هذا التحالف، وبالتالي ربما تحول الرد الأميركي على ما حدث يوم الثلاثاء الماضي من مجرد.. وهم قالوها في الحقيقة بصراحة "لن تكون ضربة ضد طرفٍ أو ضد شخص أو ضد جهة بقدر ما ستكون حرباً من أجل اجتثاث -بين هلالين- هذه الشبكة برمتها بما تشتمل عليه من دعم وأماكن إيواء ووسائل

دعم مالي وومسائل تطويع وتدريب بشري إلى ما هنالك، وهذه الحرب التي ستشنها الولايات المتحدة، بغض النظر عن أماكنها وجغرافيتها وإطارها فهي -في نظري على الأقل- ستكون حرباً تأخذ شكلاً دولياً شاملاً، وهنا وجه الخطورة؛ لأنها ستأخذ شكلاً دولياً شاملاً بغطاء دولي، وبالتالي سيكون الهدف منها العرب والمسلمين، وستكون النتائج كارثية على العرب وعلى المسلمين بغض النظر عن التفاصيل التي ستحدث هنا وهناك، أو عن الجهات التي ستستهدفها هذه الحرب هنا وهناك، هذه ستكون حرب تصفية حسابات بين الولايات المتحدة وبين من اعترض السياسة الأميركية عن طريق الإرهاب خلال السنوات أو ربما العقود الماضية، وبالتالي ستكون حرباً شاملة".

الحرب قادمة لا محالة، ونتائجها وخيمة ذات أبعاد وتفاعلات دولية متشابكة معقدة. الهدف الحقيقي، الذي ينبغي على العرب المسلمين الانتباه إليه، ليس الإغراق في مناقشات نظرية داخلية، بلا مردود، تهاجم الموقف الأمريكي وتدينه، بقدر ما هو التهيؤ لمواجهة المتغيرات العاصفة، وتوجه الإدارة الأمريكية لتصفية الحسابات.

في المقابل، يقدم عبد الباري عطوان والدكتور الركن رؤى واجتهادات وتحليلات وتفسيرات مغايرة، لكن التباينات الحادة لا تحول دون التزام مقدمة البرنامج بالحياد الإيجابي، واحترامها للضيوف المشاركين، فلا تقاطعهم أو تسفه آراءهم، انتصارا لما تعتقد أنه الصواب. لا يعني هذا سلبية أو استسلاما، لكنه يعني حق من يستضيفهم البرنامج في التعبير عما يرونه دون تدخل أو تشويش.

لقد استطاعت الحلقة أن تقدم عرضا جادا لما قد يترتب على التفجيرات الإرهابية من نتائج تتعلق بالمستقبلين القريب والبعيد، وقد فعلت ذلك من منطلق الإحاطة الواعية بمعطيات الحاضر، مع إطلالة موضوعية إلى الجذور والمستقبل معا.

ولعل هذا الإطار المهني المهم يصلح مدخلا للتوقف عند حلقة ثانية من البرنامج، قدمها محمد كريشان، وأذيعت في الذكرى الثانية: ٢٠-٩-٢٠٠٢، وناقشت العلاقة بين تنظيم القاعدة ووسائل الإعلام.

ضيوف الحلقة هم:

- شيلا ماكفيكر: مراسلة شبكة CNN
- محمد صلاح: باحث بقضايا الجماعات الإسلامية
- يسري فودة: مقدم برنامج سري للغاية
- تيسير علوني: مراسل الجزيرة السابق في أفغانستان

وأهم المحاور التي يناقشها البرنامج:

- طبيعة العلاقة بين تنظيم القاعدة ووسائل الإعلام قبل وبعد أحداث سبتمبر
- وسائل الإعلام بين استغلالها للقاعدة وبين استغلال القاعدة لها
- ردود أفعال الإعلام الغربي تجاه الإعلام العربي بعد أحداث سبتمبر
- تناقض الاتهامات الموجهة لوسائل الإعلام العربية

يقول محمد كريشان في تقديمه للحلقة:

"كثيراً ما تطرح العلاقة بين وسائل الإعلام وخاصة التليفزيون وبعض التنظيمات السياسية أو العسكرية الملاحقة محلياً أو دولياً، كثيراً ما تطرح أكثر من نقطة استفهام، حتى غدا السبق الصحفي أحياناً، مدعاة لتساؤلات عديدة مختلفة، البعض لم يتردد مثلاً في الحديث عن توظيف وسائل الإعلام للترويج أو الدعاية لفكر ما أو حتى لتمرير شفرات ما، في وقت لا ترى وسائل الإعلام هذا الأمر على هذا النحو، مقدمة السبق الصحفي على غيره من الاعتبارات، مشككة فيما يوجه إليها من لوم أو اتهامات أرجعت بعضه لغيرة مهنية أو حسابات سياسية لا علاقة لها بها.

موضوع حلقتنا هذا الأسبوع هو العلاقة بين وسائل الإعلام وتنظيم القاعدة، وما أثارته من استفهامات قبل وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر".

اثنان من ضيوف الحلقة يعملان في قناة "الجزيرة"، وهما يسري فودة وتيسير علوني، صاحب القضية الشهيرة والمحاكمة التي أثارت ضجيجا فيما بعد، والتي انتهت

بإدانته وحبسه سبع سنوات، والضيفان الآخران من ذوي الصلة المباشرة بالعلاقة المركبة المعقدة بين وسائل الإعلام والقاعدة: مراسلة الشبكة التليفزيونية الأمريكية ذائعة الصيت، وأحد الباحثين في قضايا الجماعات الإسلامية.

التوقف عند بعض المقولات المطروحة يقود إلى عديد من المحاور المهمة التي تتعلق بالقضية الشائكة التي تحظى قناة "الجزيرة" بجانب كبير مما يثار بشأنها، فالأستاذ يسري فودة يقول في توصيفه لطبيعة العلاقة:

"يسري فوده: أنا أعتقد أنها علاقة يعني تبادلية فيها مصلحة مشتركة تماماً كالعلاقة بين أي صحفي وبين أي سياسي أو أي جهة حكومية أو غير حكومية، يعني هناك دائماً حاجة لدى السياسي لتمرير رسالة ما في وقت ما، وهناك دائماً حاجة لدى الصحفي ليعني الاستماع ونقل ذلك إلى الجمهور المستهدف، وبالطبع هناك التماثل في ذلك بين تنظيم كتنظيم القاعدة وأجهزة الإعلام بشكل عام ومنها قناة (الجزيرة)".

وتقدم شيلا ماكفيكر رؤية بالغة الأهمية والخطورة عن العلاقة بين قناة "الجزيرة" – تحديدا – وتنظيم "القاعدة"، ولعلها في رؤيتها هذه تعبر عن توجهات مماثلة سائدة في الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا الغربية:

"أعتقد أنه من الواضح بالنسبة لنا هو أن (الجزيرة) قامت ولفترة طويلة من الوقت ببناء علاقة مع القاعدة من أجل أن تكشف نوايا.. هذا التنظيم، ويجب أن نتذكر أيضاً بأن القاعدة ليست المجموعة نفسها.. نفس.. دائماً المجموعة التي كان لها علاقة مع الإعلام، ولكن السؤال الذي يطرح سواء كان تنظيم القاعدة أو ورجل سياسي أو مدير عام هو: ما الذي يستفيد؟ وهذا هو السؤال الذي ننسى أن نجيب عليه".

ما يطرحه يسري فودة صحيح من الناحية النظرية المثالية، فالعلاقة تبادلية بالضرورة، والاحتياج قائم عند الطرفين، لكن الصحيح – أيضا – أن الممارسات

العملية لابد أن تتأثر بعوامل أخرى لا علاقة لها بالشعارات النظرية، وهذا التأثر تعكسه كلمات المراسلة الأمريكية. الخطير في كلماتها أنها تشير إلى أن هدف "الجزيرة" هو الكشف عن "نوايا" التنظيم!.

السؤال الذي لم تتوقف الحلقة أمامه طويلا، على الرغم من أهميته وخطورته: لمصلحة من هذا الكشف عن النوايا؟!.

وتزداد الشكوك، على الرغم من نبرة التهكم والرفض، في الكلمات التي يسهم بها تيسير علوني في مناقشة القضية المثارة:

"تيسير علوني: كثير من المرات يعني منتجين مقابلات في (الجزيرة) يطلبوا مني أن أحاول أن أدبر أحدا من القاعدة حتى نعرف ردة فعل القاعدة على الأمر الفلاني، على التصريح الأميركي الفلاني، على قضايا من هذا النوع طب إحنا أنا.. يعني كنت يعني أضحك يعني لأن القاعدة ليست هناك قناة اتصال بين (الجزيرة) والقاعدة، القناة تمر في اتجاه واحد يا من القاعدة إلى الجزيرة شخص يأتي فجأة يسلم حارس المكتب، يسلمه شريط أحياناً يعطيه مختصرا عن الشريط، هذا الشريط فيه كذا كذا أعطيه لمدير المكتب، أنا مهمتي كانت آخذ الشريط، اتطلع على الشريط، أتصل بالجزيرة مباشرة، عندي شريط محتواه كذا وكذا، (الجزيرة) مباشرة حُطّه على البث على الأقمار الصناعية أبثه، انتهت مهمتي أنا هون.. ".

هل يمكن أن تكون العلاقة بهذا القدر من البساطة؟، ولماذا تتوجه "القاعدة" إلى قناة "الجزيرة" دون غيرها من الفضائيات ووسائل الإعلام الأخرى؟!. هذا السؤال المنطقي لابد أنه تبادر إلى أذهان الكثيرين، وللأمانة يطرحه محمد كريشان نفسه بشكل صريح مباشر:

"محمد كريشان: ولكن تيسير يعني، عفواً، يعني لماذا يتم الاتصال بك أنت؟ يعني هناك مراسلون آخرون، كان يمكن الاتصال بهم مثلاً؟"

وعلى الرغم من الإجابة المطولة للأستاذ تيسير علوني، وهي إجابة تتطرق إلى حركة طالبان ومكتب "الجزيرة" في إمارتها الإسلامية، فإنه لا يقدم إجابة واضحة محددة، ولا يشبع فضول من يتساءلون: لماذا "الجزيرة" دون غيرها؟!.

أيهما يستغل الآخر ويستثمره: "الجزيرة" تفيد من القاعدة وتستغلها لتحقيق انفرادات ونجاحات إعلامية، أم أن "القاعدة" هي التي تستثمر "الجزيرة" وتسخرها لخدمة مصالحها الدعائية والفكرية؟!.

أجراس الخطر:

ليسري فودة تجربة مرة أثارت كثيرا من الأقاويل، فقد اتهم بأنه مسئول بشكل مباشر عن اعتقال وتعقب عدد من أبرز قادة ورموز تنظيم القاعدة، ولعل في شهادة يسري فودة – خلال الحلقة –، ما يكشف عن كثير من الغموض الذي أحاط بهذه الاتهامات، وهو ما تعرض له يسري نفسه، كمقدم للبرامج، في أربع حلقات من برنامج "سري للغاية"، أذيعت خلال الفترة من ٨-٩-٢٠٠٥ إلى ٢٩-٩-٢٠٠٥، وفي الحلقة الأولى من هذه السلسلة يقول يسري ما نصه:

"يسري فودة: بعد عودتي إلى لندن من كراتشي صيف عام ٢٠٠٢ كانت كلمة بعينها لرئيس اللجنة العسكرية لتنظيم القاعدة لا تزال ملء سمعي تحيطني من كل جانب بأشباح الجواسيس والعملاء، قال لي خالد شيخ محمد أول ما قال عندما يأتيك هؤلاء الكلاب يقصد عملاء (CIA) وأعوانهم في هذا المبنى (MI6) عندما وليس إذا "يأتونك سيسألونك عن كذا وكذا وكذا"، مرت شهور خمسة فَقُبِضَ على رمزي بن الشيبة الذي التقيته أيضاً في ذلك المبنى الآمن، ثم مَر أحد عشر شهراً فَقُبِضَ على خالد شيخ محمد نفسه، اليوم مرت سنوات طويلة على ذلك اللقاء الفريد لكن شيئاً من نبوءته لم يتحقق، كلمة أقولها والله شهيدي أنا الصحفي الوحيد في العالم الذي أتيحت له فرصة اللقاء بالعقول المدبرة لأخطر عملية إرهابية في التاريخ ولا يسأله

أحد، ثمة حلقة مفقودة أم أننا أغبياء إلى هذا الحد، هل يوجد في الإدارة الأميركية كلها من هو مهتم حقاً بحل حادثة الحادي عشر من سبتمبر أم أنه يراد لنا جميعا أن نبقى في هذه المعجنة؟ على مدى هذه الحلقة والحلقات الثلاث القادمة من هذا البرنامج نُعيد دراسة الحادي عشر من سبتمبر على ضوء ما استجد من معلومات ونطرح التساؤل، هل يجوز لنا أن نأخذ اعتراف القاعدة على علته أم أنها في طريقها إلى ما يسمى غزوة مانهاتن كانت القاعدة مجرد حد السكين التي كان يمسك بمقبضها أحد ما في مكان ما؟".

مرتكزات الخطاب المهيمن على الحلقات الأربع، يمكن استنباطه من التقديم السابق، وتتمثل هذه المرتكزات في المحاور التالية:

أولا: خصوصية الدور الشخصي الذي قام به يسري فودة، بصفته المهنية، وهو الدور الذي تدور حوله أقاويل وشبهات كثيرة، تتراوح بين ادعاء البطولة والأهمية المطلقة من ناحية، وبين الاتهام بالعمالة والتواطؤ الذي أفضى إلى اعتقال وسقوط عدد من أبرز قادة "القاعدة" في أيدي سلطات الأمن الأمريكية، بعد قيامهم بالالتقاء مع يسري فودة والتسجيل معه!.

ثانيا: الإعلاء من شأن نظرية المؤامرة، واتهام الإدارة الأمريكية، والموساد أيضا، بمعرفة تفاصيل الحادث قبل وقوعه، والسعي إلى استثماره والإفادة من نتائجه دون مبالاة بالضحايا أو اهتمام بالكوارث التي ترتبت على وقوع حادث بمثل هذه الضخامة.

ثالثا: الميل إلى تجميل صورة تنظيم القاعدة وتبرئته الموضوعية من مسئولية الحادث، والتشكيك في الاتهامات الموجهة إليه، والاعترافات الصريحة التي خرجت على ألسنة قادته، بالتأكيد على أن التنظيم مجرد أداة، أو بلغة مقدم البرنامج: "مجرد حد السكين التي كان يسمك بمقبضها أحد ما في مكان ما"!.

رابعا: التركيز العاطفي، من منطلقات دينية وسياسية، على بطولة أسامة بن لادن من ناحية، وشعبيته الطاغية في أوساط العرب والمسلمين من ناحية أخرى.

بعد أربع سنوات من الحادث، كانت كثير من الأوراق قد اتضحت، ولم تعد بعض الفرضيات النظرية القديمة قادرة على الصمود أمام الاعترافات الصريحة المباشرة والأدلة الدامغة، لكن "الجزيرة" تستمر في تبني موقف يتسم بالحرص على خلط الأوراق، وإثارة الشكوك حول القائمين بتنفيذ العملية الإرهابية.

الإطار الشخصي:

لابد من التأكيد، ونحن بصدد الحديث عن خصوصية الدور الذي قام به الأستاذ يسري فودة، على أن كافة المقولات الواردة لاحقا مأخوذة عن حلقات برنامجه، وأن الهدف من التوقف أمام بعض هذه الفقرات هو طرح تساؤلات مشروعة، وبخاصة أن الغموض يكتنف – عمدا – كثيرا من الأحداث.

ثمة اتهامات طالت يسري فودة، والكلمات التالية للأستاذ يسري نفسه، يكشف من خلالها عن الهواجس والأفكار التي سيطرت عليه بعد القبض على رمزي بن الشيبة، فقد استقبل الخبر على النحو التالي:

"انهمر شريط طويل من الذكريات على رأسي فرادة وجيوشاً وأنا أحاول أن أجد معنى لِمَا حدث على ضوء تجربة مرهقة كانت من وجهة نظر صحفية أقرب إلى حلم رومانسي تحول فجأة إلى كابوس ضاغط، وصل إدراكي إلى سيناريو بعينه يمكن أن يشرح ما حدث ثم ما لبث أن لمع أمام عيني سيناريو آخر محتمل ثم ثالث ثم رابع تسرب إلي ذلك الإحساس بالعجز وأنا أدرك أنني لن أستطيع أن ألوم أحداً إذا ربط بين لقائي به والقبض عليه".

كيف تحول الحلم الرومانسي إلى كابوس ضاغط؟!. الإجابة تتمثل فيما يقوله يسري نفسه عن أنه لا يستطيع أن يلوم من يتهمه ويربط بين لقائه برمزي والقبض

عليه. وعلى الرغم من سخرية يسري من بعض الاتهامات الصحفية التي وجهت إليه، واتهمته بالتعاون مع المخابرات الأمريكية، فإنه لا يستطيع أن يتجاهل ما صدر من اتهامات عن تنظيم القاعدة نفسه:

"أما القاعدة نفسها فقد أصابها تخبط مؤقت غير معتاد، ففي البداية أنكر موقع الجهاد الإلكتروني وقوع رمزي في الأسر، ثم وصفني بيان لاحق بالخنزير والخائن، بينما أصدرت الجماعة التكفيرية التي لم يُسمَع بها من قبل بيانها الأول الذي تقول فيه إنني هالك بإذن الله".

الأستاذ يسري يبدو قاسيا وعنيفا مع من يروجون الإشاعات ضده ويرددون الأقاويل والأكاذيب، لكنه يبدو متزنا وحريصا على الود مع من يصفونه بالخنزير والخائن، فهو يقول إنه "تخبط مؤقت غير معتاد"!.

مثل هذه المودة غير المنطقية، لمن يوصف بأنه خنزير خائن مهدر الدم، لابد أن تثير تساؤلات مشروعة عن حقيقة العلاقة التي تربط مقدم البرنامج بتنظيم القاعدة، فهل يقتصر الأمر على تعاون طبيعي بين التنظيم وأحد الإعلاميين، أم أن الأمر يتجاوز ذلك الإطار التقليدي؟!. الإجابة نلتمسها في كلمات يسري نفسه:

"يسري فودة: أجد بعض العذر لأن يقفز إلى أذهان بعض الناس هذا الربط، لكن أن يوحي أحد غير ذلك، يعني حقائق ووقائع الأمور تنفيه، وأنا متأكد أن هؤلاء الذين وجهوا لي الدعوة وهؤلاء الذين كانوا حولهم يعلمون تماماً ما الذي تم قبل وأثناء وبعد اللقاء ثم رأوا البرنامج بعد ذلك، وهم أكثر الناس الذين أطمئن إليهم في هذه اللحظة".

من أين يستقي الأستاذ يسري قدرته على "التأكد"؟ ولماذا "يطمئن" إليهم كل هذا الاطمئنان؟!. وكيف نفسر صبره على الاتهامات التي طالته واتهمته بالخيانة؟!. لقد كان في انتظار حكم "البراءة" ممن يسميهم بـ"الرجال الحقيقيين"، وفي هذا السياق يشير يسري إلى دليل البراءة الموقع من خالد شيخ محمد:

خالد شيخ محمد: حرصاً من المكتب الإعلامي لتنظيم القاعدة على إظهار الحقيقة وقطع الأقاويل والشائعات فإنه يود التأكيد للجميع على أن قناة الجزيرة والأستاذ يسري فودة مقدم برنامج سري للغاية ليس لهم علاقة بالأحداث التي حدثت في كراتشي في الأيام الماضية، وأن ما حدث إنما هو بقدر الله وحكمته، كما نود التأكيد على أن لقاء الأستاذ يسري فودة مع الأخ خالد الشيخ والأخ رمزي بن الشيبة قد تم في شهر صفر أبريل من العام الحالي، وقد التزم الأستاذ يسري فودة بجميع العهود والمواثيق التي قُطِعَت عليه، كما أنه كان أميناً في نقل الأحداث والوقائع التي حصل عليها من جانبنا مع تحفظنا على بعض الفقرات التي وردت في برنامجه.

الإعلامي الناجح هو القادر على توثيق الصلة بكل المصادر المهمة، مع تنوع أفكارها واتجاهاتها وتوجهاتها، ولا شك في أن اللقاء مع قادتها ورموزها يعد سبقا مهنيا لا غبار عليه، لكن المؤكد أن التنظيم المحاط بالسرية الطاغية، لن يسمح إلا لفئة بعينها أن تصل إليه، فالمسألة ليست إعلامية خالصة، ولا يمكن أن تكون الاتهامات الموجهة إلى يسري تتجاوز صفته الإعلامية، والتراجع عن بعض هذه الاتهامات يسير في الدرب نفسه. المشكلة أن مقدم البرنامج يرى أن ما قد وجه إليه منطقي ومبرر، بالنظر إلى خطورة المهمة التي يقوم بها، لكن عبارته التذمرية تكشف عن خلل فادح في إحساسه بضرورة المتاعب المهنية:

"يسري فودة: توجهت للحصول على معلومات وعدت بمعلومات وخاطرت بحياتي أستحق إن لم يكن الشكر على الأقل أن يدعني الناس في حالي".

ألا يعلم الأستاذ يسري فودة أن الإعلامي الكفء صاحب الرسالة لا ينتظر الشكر، وأنه لا يمكن أن يترك في حاله، وبخاصة إذا كان يثير القضايا الشائكة الحساسة ويخوض فيها؟!.

نظرية المؤامرة:

في الحلقة الثالثة من "أجراس الخطر"، يقول يسري فودة إن نصف سكان نيويورك *"وفقا لأحد أحدث استطلاعات الرأي يعتقدون أن حكومتهم كانت على علم مسبق بتفاصيل الهجوم، وأنها اختارت عمدا أن تغض الطرف عنه، وترفع هذه الحقيقة العقبى عن كثيرين خارج أمريكا يذهب بعضهم إلى ما هو حتى أبعد من ذلك"!.*

المقولة التآمرية السابقة: نجدها أيضا في الحلقة الأولى من البرنامج:

"يسري فودة: ينتابني السؤال من يومها كل يوم سبع مرات أين كان الأميركيون وأعوانهم في كل شارع وفي كل منحنى فيما تحركت الخطة من طور إلى آخر؟ أحد أحدث استطلاعات الرأي في أميركا أوضح أن نصف سكان نيويورك يعتقدون أن حكومتهم كانت تعلم بالهجوم قبل وقوعه وأنها اختارت عمداً أن تغض النظر".

إذا كان الأمريكيون أنفسهم يتهمون حكومتهم بالتواطؤ، ويشككون في أنها كانت تعرف وغضت النظر، فلماذا لا تنتصر نظرية المؤامرة وتتحول إلى بديل متكامل لتفسير ما حدث؟!.

إن عبارة يسري فودة مسبوقة بكلمة تتبنى التوجه نفسه:

" فهمي هويدي- كاتب في شؤون الإسلام السياسي: هناك فرق بين أن يكون تنظيم القاعدة هو الذي قام بالعملية وبين نفي أن تكون هناك جهة أخرى، يعني أن يكون عندي انطباع أنه فيه هناك مساحة مظلمة لم تُرَ بعد، رأينا شيئا وشيئا حقيقيا أو اقتنعنا بأنه حقيقي ولكنه ليس كل الحقيقة".

بعد كلمات يسري، التي تعلي من شأن نظرية المؤامرة كما يذهب فهمي هويدي، تأتي الاستعانة بمقولة أمريكية لتأكيد الفكرة نفسها، بصياغة مختلفة:

"إدوارد اسبانوس- مجلة إنتيليجنس ريفيو: ربما اعتَقدَ الذين نفذوا العملية أنهم نفذوها وحدهم لأغراضهم، لكن ذلك لا ينفي احتمال أن تكون أبواب بعينها فُتِحَت أمامهم".

وبمثل هذا التسلسل، يسعى يسري إلى تحقيق تراكم مقصود، مع الغياب العمدي الكامل للفكرة المضادة التي ترفض مثل هذا النمط من التفكير. واللافت للنظر، أن الأفكار التي لا تتوافق مع نظرية المؤامرة، يتم تضمينها في سياق يوحي بغير ذلك:

"تييري ميسون – مؤلف الخديعة الكبرى: المسألة ليست مسألة مؤامرة بل هي تحديد المذنب، إدارة بوش تحاول جهدها منع محاكمة جادة، بل إنهم طلبوا من عائلات الضحايا التي تسلمت تعويضات أن يوقعوا على وثيقة يتنازلون فيها عن حقوقهم في رفع دعوى أمام محكمة جنائية أو مدنية".

الفارق الكبير بين التآمر العمدي والإهمال الجسيم لا تتم الإشارة إليه، ووضع مقولة ميسون في غير سياقها بمثابة الرغبة الكامنة في التدليل على فكرة بعينها لا يقصدها. الإدارة الأمريكية، بكافة أجهزتها، لا تنجو من تهمة الإهمال والتقصير، وقد قادها الشعور بذلك الخلل إلى محاولة التستر على ما جرى وإغلاق الملف الشائك، لكن مثل هذا السلوك الخاطئ يختلف جذريا عن التواطؤ والتآمر والمساحة المظلمة وتحول القاعدة إلى أداة بلا إرادة، وهي التي يتم الإعلاء من شأنها في الحلقات نفسها، مما يمثل مفارقة لافتة يصعب تفسيرها.

ولعل الصياغة المثلى لفكرة المؤامرة تتجسد في كلمات ضياء رشوان، الخبير في مركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية، الذي يستعرض المعلومات الهائلة المتاحة للولايات المتحدة الأمريكية، وصولا إلى أن الشكوك قائمة حول ما حدث.

الفكرة التي يسعى يسري فودة إلى البرهنة عليها، تتمثل في أن "بعض الأمريكيين قادرون على الأقل على التفكير في ضرب أنفسهم ببلطة، كي يتخذوا من ذلك ذريعة لتنفيذ أغراضهم"!.

مثل هذه المقولة الساخرة، تكتسب قدرة أكبر على التأثير إذا جاءت عبر وسيط فني يملك جاذبية أكثر؛ ولذلك يقدم يسري مشهدا ذا دلالة من الفيلم الأمريكي المعروف "القبلة الطويلة قبل النوم":

"١٩٩٣ المركز التجاري الدولي، التفجير، أتذكرين؟ أثناء المحاكمة أحد المشاركين ادعى أن المخابرات المركزية تعلم مسبقا بالأمر.. الدبلوماسي الذي أصدر التأشيرات للإرهابيين كان من مكتب المخابرات ليس بالأمر الذي يصعب التفكير فيه، فهم مهدوا الطريق للتفجير لتبرير زيادة الاعتمادات.

- تقصد إنك ستقوم بعملية إرهابية كاذبة لموافقة الكونغرس على زيادة الأموال؟

- لسوء الحظ يا سيد هنسي ليس عندي فكرة كيف أكذب بمقتل أكثر من أربعة آلاف شخص لذا يستوجب أن نقوم بها حقيقة وبالطبع ننسبها للمسلمين، هكذا أحصل على مخصصاتي المالية".

الخيال الفني مختلف بالضرورة عن التحليل السياسي، لكن الفن قادر على تهيئة المشاعر لتقبل واستيعاب الأفكار التي لا يسهل استيعابها بشكل مباشر، وبخاصة إذا كانت تتسم بالغرابة. هل تختلف الرسالة الفنية للفيلم عن الفكرة التي يعبر عنها كتاب بريجنسكي، مستشار الأمن القومي السابق، ويقول في كتابه، قبل الهجوم بأربع سنوات: إنه إذا لم تهاجم أميركا كما هوجمت في بل هاربر فإن الشعب الأميركي لن يؤيد العمل العسكري في وسط آسيا والشرق الأوسط للسيطرة على المنطقة، ثم لدينا مشروع القرن الأميركي الجديد الذي يدعو أيضا إلى هجوم كهجوم بل هاربر كانت هناك إذاً حاجة مطلقة لحدوث ذلك.

لماذا تغامر أمريكا بسمعتها وهيبتها وآلاف من الضحايا والمليارات من الدولارات؟ هل تحتاج إلى ذريعة للتدخل؟ الأمر أبسط من ذلك بكثير، ولا يستحق مثل هذه المؤامرة الوهمية بالغة الغرابة والتعقيد؟!.

ولماذا يلح البرنامج الذي يقدمه يسري فودة على فكرة المؤامرة؟!. أهو دفاع غير مباشر عن الإرهاب؟ أم أنه تبرير وتجميل؟ أم أنه الاستمرار في عملية الإلهاء عن أهم التحديات التي تواجهها المنطقة العربية والعالم الإسلامي؟!.

الحلقة الثالثة من البرنامج مليئة بالإلحاح على تورط الإدارة الأمريكية في الاستهانة بأهمية أسامة بن لادن، وتفريطها في اعتقاله عندما أتيحت لها الفرصة في السودان والإمارات وأفغانستان. وبعد التأكيد على الخلل الأميركي والشبهات التي تدفع إلى ترسيخ فكرة المؤامرة، يبدأ التركيز على محور جديد تكتمل به لوحة المؤامرة الكبرى: الموساد!.

يقول الأستاذ يسري فودة في الحلقة الثالثة:

"يسري فودة: لم تكن القاعدة في حاجة إلى كثير من المساعدة على أية حال بدءًا من هذه المرحلة على الأقل إن لم يكن من قبل وقع أعضاء القاعدة في أميركا في شباك الموساد، لسنا ندري إن كان ذلك أتى صدفة أم أنهم كانوا في انتظارهم، لكن الذي لا شك فيه أنهم كانوا هناك حولهم في كل زاوية وفي كل شارع".

هل يمثل جهاز الموساد حلا سحريا، تتأكد من خلاله فكرة المؤامرة، ويتم تفسير كل ما هو شرير وسلبي؟!.

إلى أي حد تغلغل جهاز الموساد في صفوف القاعدة، وإلى أي حد وصل نفوذه؟!. هل كان محيطا بالعملية التي نفذت في الحادي عشر من سبتمبر؟!. السؤال الأهم، الذي لا تتطرق إليه أي من حلقات البرنامج: لماذا يظهر الموساد؟ وما المصلحة الإستراتيجية لإسرائيل من التغلغل داخل القاعدة؟!.

يكتفي يسري فودة بتوجيه الاتهام، ولا يجد ما يدلل به عليه إلا حكاية غائمة غامضة، لا تقدم أدلة واضحة صريحة:

"يسري فودة: ربما لم يعلم الإسرائيليون ساعة الصفر لكنهم علموا دون ذلك الكثير ولعل ذلك ما يفسر كلمة قالها لي أثناء لقائي به في ذلك المنزل الآمن في كراتشي عام ٢٠٠٢ منسق عملية الحادي عشر من سبتمبر رمزي بن الشيبة، لم أستطع وقتها أن أفهم هذه المعلومة.

رمزي بن الشيبة: ويكفي أن أقول إن عزمي أحد الشباب قد نحر أحد رجال الأمن وذلك على متن الطائرة التي كان يستقلها مع أخينا محمد عطا، وكان بينهم وبين الطائرات الأخرى اتصال ليطمئن الإخوة على بقية إخوانهم.

يسري فودة: كيف علم ابن الشيبة قبل عامين من علم لجنة الشيوخ الأميركيين نفسها؟ الله أعلم، لكننا نستطيع الآن على الأقل أن نفسر النصف الآخر من اللغز، فأما عزمي فهو كنية سلطان السقامي الذي جلس على المقعد رقم عشرة (B) الواقع مباشرة خلف المقعد الذي كان يجلس عليه من كان يظن رمزي أنه أحد رجال الأمن، لم يكن هذا في الواقع سوى ضابط الموساد الإسرائيلي دانييل لوين، هل كان وجوده على متن الطائرة صدفة؟ هل كان يؤدي وظيفته ولم يكن يعلم ساعة الصفر؟ هل حاول المقاومة؟ أم أن لمقتله علاقة بكلمة أخرى قالها لي رمزي أثناء ذلك اللقاء ولم أعرها وقتها ما تستحق من الاهتمام".

من أين يستمد يسري فودة معلوماته ويستقي تحليلاته؟ كيف يتأكد من جهل الموساد بساعة الصفر ومعرفته للكثير دون ذلك؟ المسألة هنا لا تتعلق بالموساد وتغلغله في كثير من العمليات، لكنها تتعلق بالبناء المنطقي لتفسير وتحليل الأحداث، فبغياب الوثائق والأدلة والبراهين، يتحول الأمر كله إلى رجم بالغيب، ويكتسب الموساد قوة مبالغا فيها، فضلا عن استثماره الدائم لتبرير الأخطاء، فكأنه المسئول عن توريط من يرتكبون الجرائم. ثمة معلومة، لا يذكر مقدم البرنامج من أين استقاها، تقول:

"يسري فودة: في هذه الأثناء قبل ساعتين تقريبا من ساعة الصفر وصلت إلى عميلين في شركة إسرائيلية للاتصالات مركزها هنا في هرتسيليا رسالة نصية من مجهول تحذر من وقوع الهجوم، للشركة فرع يقع على بعد خطوات من مركز التجارة العالمي في نيويورك".

وتكتمل الدائرة الجهنمية بمشهد آخر يستعرضه يسري فودة، منسوبا إلى شهود عيان، ويقول فيه:

"يسري فودة: ما يستحق التأمل أن عملاء الموساد هنا هم الذين كانوا في تلك اللحظات وفقا لشهود عيان يرقصون ويهللون أمام مركز التجارة العالمي، قُبِض على الإسرائيليين في نيويورك ثم رُحِلوا فيما بعد إلى واشنطن ثم إلى إسرائيل وسرعان ما كُتِم الخبر".

لماذا يرقص ويهلل عملاء الموساد أمام مركز التجارة العالمي؟ وإذا صح أنهم ضالعون في مؤامرة محكمة مجهولة الأهداف، فهل تصل بهم السذاجة إلى الدرجة التي يكشفون فيها عن مواقفهم بمثل هذا السفور الصبياني غير المبرر؟.

ليس من تفسير للزج بالموساد إلا على ضوء النقطة التالية التي سنتوقف عندها، وتتعلق بتجميل صورة القاعدة وزعيمها بن لادن.

الشعبية والتعاطف:

في الحلقة الثانية، يشير وزير الخارجية اليمني، أبو بكر القربي، إلى ما يرى أنه أسباب تعاطف الرأي العام العربي والإسلامي مع تنظيم القاعدة وزعيمه أسامة بن لادن:

"أبو بكر القربي- وزير الخارجية اليمني: عناصر القاعدة الآن التي تقوم بهذه الأعمال تستغل.. الحقيقة التعاطف الذي تحظى به ليس لأن الشعوب العربية أو الإسلامية مع الإرهاب، ولكن لأنهم يشعروا أن هذه العناصر تتصدى للولايات المتحدة الأميركية التي للأسف الشديد يشعر هذا العالم بتحيزها في العديد من المواقف وبالذات في القضية الفلسطينية".

جوهر المسألة يتمثل في محورين متداخلين: الشعوب العربية والإسلامية ليست مؤيدة للإرهاب والإرهابيين، ثنائية التعاطف والشماتة مبررة بالسياسة الأمريكية غير العادلة تجاه القضايا العربي، وبخاصة قضية فلسطين.

الرسالة الإعلامية الواعية تستهدف، من منطلق التحليل السابق، تقديم مجموعة من الرؤى بالغة الدقة، والتي تتمثل في:

- الإدانة الكاملة للإرهاب، دون محاولة لتجميله أو تبريره
- المطالبة بالعلاج الجذري للإرهاب
- الكشف عن الإطار الفكري والعقائدي للإرهاب، وتقديم رؤية فكرية بديلة

قناة "الجزيرة"، لا تنشغل بما سبق، والبرنامج الذي نتوقف عنده يكشف عن رؤى مختلفة في الخاتمة التي يتوج بها يسري فودة حلقاته الأربع:

"يسري فودة: رغم أنه لا يوجد أي شك في أين استقر حد السكين فإن ثمة شكا لا يزال في أين كان مقبضها؟ تبقى رغم ذلك مجموعة من الحقائق واضحة لا لبس فيها، أن الشعب الأميركي الأعزل وقع ضحية مأساة لم يكن يستحقها، وأن مَن يدفعون رواتبهم عجزوا على الأقل عن حمايته، وأن المسئولين عن ذلك لم يُحاسبوا لأن تحقيقا جاداً لا يُراد له أن يتم وأنه وصل بعد ذلك إلى حرب لم يكن لها أي علاقة بما حدث، وأن الهوة تتسع يوما بعد يوم بشكل مخيف بين أديان نبيلة وحضارات رائعة، وأن العالم يُدفَع من جراء ذلك نحو هاوية لا يعلم منحدرها إلا الله، وأن بوش لا يزال في البيت الأبيض، وأن بن لادن لا يزال في مكان ما".

إنه ينتهي مثلما بدأ، فالقاعدة أداة وحد سكين، والإشفاق على الشعب الأمريكي ضحية المؤامرة المحكمة، وثنائية الصراع تتمثل في بوش وبن لادن، وكأنهما يرمزان للخير والشر، مع تجاهل من يمثل فيهما الخير، ومن يمثل الشر!.

يتفوق برنامج "أكثر من رأي" على البرنامجين اللذين عرضنا لهما من قبل، لكن لا يستطيع أن يتجاوز السياسة العامة لقناة "الجزيرة" التي تتجاوز الأفراد بلا شك، والتي تحمل قدرا كبيرا من الثوابت والأهداف تسعى إلى تحقيقها والتأثير من خلالها على جمهور المتلقين، لكن الفارق ينبثق من عناصر ذاتية تفضي إلى قدر ملموس من الاختلافات الموضوعية.

إذا كان "الاتجاه المعاكس" و"بلا حدود" نموذجيين للتجاوز المهني والفكري، على الرغم من ضرورة الإقرار بجماهيرية البرنامجين، فإن "أكثر من رأي" نموذج مقابل محاولة الإفلات دون جدوى من السياسة الأم للقناة، وهو ليس بالنموذج الوحيد.

من واشنطون :

برنامج "من واشنطون"، الذي يقدمه حافظ الميرازي، أحد أهم البرامج الجادة في خريطة "الجزيرة" البرامجية، ويتسم بقدر كبير من الاعتدال والاتزان المهني، فضلا عن تفرده باستضافة شخصيات ذات ثقل على المستويين العربي والعالمي.

البرنامج، كما يتضح من عنوانه، يتم إعداده وتقديمه عبر بث مباشر من العاصمة الأمريكية واشنطون، وينشغل بدراسة وتحليل ومناقشة الأبعاد الإستراتيجية لعديد من القضايا المصيرية في المنطقة العربية.

ولقد قدم البرنامج حلقتين عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر: أذيعت الحلقة الأولى في ٢٣-٨-٢٠٠٢، وناقشت تداعيات أحداث سبتمبر على الحقوق المدنية في المجتمع الأمريكي، وكان الضيف هو القس جيسي جاكسون، زعيم ائتلاف الحقوق المدنية، أما الحلقة الثانية فقد أذيعت في ١-٩-٢٠٠٣، بمناسبة مرور عامين على حوادث التفجيرات، وناقشت تداعيات هجمات سبتمبر خلال هذين العامين، وتمت المناقشة عبر استضافة عدد كبير من الشخصيات البارزة، ومنهم:

الأمير الحسن بن طلال: مقرر المؤتمر العالمي للأديان والسلام

فريد زكريا: مدير تحرير الطبعة الدولية لمجلة نيوزويك

كولن باول: وزير الخارجية الأميركي

خليل جهشان: خبير الشؤون العربية الأميركية

محمد نمر: مدير العلاقات الإسلامية الأميركية

العنوانان ينمان عن الجدية في اختيار القضايا التي تتم مناقشتها، والضيوف بمثابة عينة مختارة متميزة، ينتظر منهم تقديم الجديد والخطير على المستويين: المعلوماتي والتحليلي.

في الحلقة الثانية، يتعرض البرنامج لعديد من المحاور المهمة التي لا تحظى بالاهتمام الإعلامي المناسب:

- آثار أحداث سبتمبر على الجانب العربي والإسلامي
- حصاد السياسة الأميركية داخلياً وخارجياً بعد أحداث سبتمبر
- الدروس المستخلصة من أحداث سبتمبر على الجانب الأميركي والعربي
- تقسيمة الصقور والحمائم في الإدارة الأميركية إفراز لأحداث سبتمبر
- مشاعر الجالية المسلمة في أميركا بعد مرور عامين على أحداث سبتمبر
- الأمن والأمان في أميركا بعد عامين من أحداث سبتمبر

أذيعت الحلقة في الذكرى الثانية للحادث الإرهابي الذي زلزل الولايات المتحدة الأمريكية، ومن المنطقي – مهنيا – أن يكون مسرح الحدث الدامي هو منطلق الحلقة وبدايتها:

"حافظ الميرازي: بالطبع سنبدأ التغطية من خلال مواقع الأحداث التي كانت قبل عامين، والتي أيضاً شهدت بعض المراسم اليوم، مواقع الأحداث بالطبع كانت البداية فيها، في مركز التجارة العالمي في نيويورك".

سنتحدث مع مراسلنا من موقع المبنى، حيث تجمعت صباحاً عائلات الضحايا تنعى موتاها دون رغبة في حضور رسميين من واشنطن لتلافي التعقيدات الأمنية، بينما صاحب الرئيس (بوش) نائبه (تشيني) وقرينتيهما في دقيقة حداد في البيت الأبيض، ونتحدث مع مراسلنا هناك، كما نتحدث مع مراسلتنا في البنتاجون حول المراسم المحدودة لهذه الذكرى هناك، والتي شارك فيها وزير الدفاع ورئيس هيئة أركانه، ونتحدث مع الجنرال (ريتشارد مايرز) رئيس هيئة الأركان المشتركة عن مغزى هذا اليوم، وتحدي القاعدة الجديد لأميركا، وهل أميركا أكثر أمناً اليوم أم أقل؟.

كما نتحدث مع وزير الخارجية الأميركي (كولن باول) متسائلين هل سياسة بلاده الخارجية فاشلة بعد عامين من الحادي عشر من سبتمبر -كما يقول منتقدو أميركا- في الداخل والخارج؟ كولن باول بالطبع سنقدم المقابلة المطولة التي أجريناها معه، وإن كنا قد أجريناها قبل قرار الحكومة الإسرائيلية بالموافقة المبدئية على طرد الرئيس الفلسطيني عرفات، لكنه تحدث في نهاية المقابلة عن المطلوب بالنسبة للولايات المتحدة فلسطينياً، وأيضاً ربما إسرائيلياً.

هذه الموضوعات سنتحدث عنها ونتحدث مع ضيوفنا من العالم العربي، سيكون معنا في هذه التغطية الخاصة (من واشنطن) من عمان الأمير الحسن بن طلال (مقرر المؤتمر العالمي للأديان والسلام)، لنتعرف عن الخريطة الفكرية والثقافية في العالم العربي والإسلامي بعد عامين من الحادي عشر من سبتمبر، سنتحدث من نيويورك مع فريد زكريا (محرر ورئيس تحرير الطبعات الدولية لمجلة "النيوزويك") وكيف أيضاً تغيرت الخريطة الثقافية الأميركية بعد الحادي عشر من سبتمبر؟ ومع اثنين من الزعماء والناشطين في المنظمات العربية والإسلامية الأميركية".

قضايا مهمة، وضيوف لا يقلون أهمية من حيث القدرة على إضاءة الجوانب المختلفة لحادث التفجيرات وما يترتب عليه من تداعيات، والحوار يتسم بالكثير من الالتزام المنهجي والاعتدال البعيد عن الغوغائية والتطرف، وهو ما ينعكس على اللغة التي تبتعد عن الإفراط العاطفي والتشنج. مقدم البرنامج يجيد الإنصات والاستماع، بقدر ما يتقن اختيار الوقت المناسب للتعليق والتدخل الذي ينم عن إحاطته الواعية بالقضايا التي يناقشها من ناحية، ومعرفته الوثيقة بالشخوص الذين يستضيفهم من ناحية أخرى. لا يخفي تعاطفه مع المصلحة العربية وانحيازه لها، لكنه لا يخفي – كذلك – انحيازه الصريح في إدانة الإرهاب والتطرف، وحرصه على اكتشاف الجذور التي قادت إلى الأزمة، تمهيدا لالتماس الطريقة المثلى لتجاوز الصراع القائم المفضي إلى المزيد والمزيد من الإرهاب.

البرنامج، بالمقاييس الجماهيرية التقليدية، قد لا يكون ساخنا أو مثيرا، لكنه الأكثر قدرة على بث الوعي والإعلاء من شأن التناول العقلاني المتزن. السر في ذلك يرتبط بأهداف البرنامج الإستراتيجية من ناحية، ونوعية الضيوف الذين يتم اختيارهم بعناية فائقة من ناحية أخرى، وبشخصية مقدم البرنامج من ناحية ثالثة.

وقد يكون من المفيد هنا أن نشير إلى أن البرنامج لابد أنه تأثر بالنمط الأمريكي في المعالجة الإعلامية، ذلك أن عملية البث تتم من العاصمة الأمريكية، وليس من المنطقي أو المبرر أن يكون التهييج والإثارة مما يمكن قبوله أو ترويجه. بصياغة أخرى، فإن البرنامج يعكس تأثير المكان على طبيعة الرسالة الإعلامية، فما يمكن قبوله في الدوحة لا يسهل مروره في واشنطن!.

حوادث أخرى:

لقد كانت تفجيرات سبتمبر حادثا بارزا في مسيرة الإرهاب، وتمثل معالجته أهمية خاصة في الكشف عن موقف قناة "الجزيرة" من الأعمال الإرهابية والفكر المتطرف الذي قاد إليها. ومن المنطقي أن يحظى حادث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ بأكبر قدر من الاهتمام، لارتباطه المباشر بتنظيم "القاعدة" من ناحية، ولآثاره الفادحة الممتدة من ناحية أخرى. وقد امتد هذا الاهتمام لسنوات طوال بعد وقوع التفجيرات، وهو ما لا نجده في تغطية القناة الإخبارية لمجموعة أخرى وأحداث إرهابية في السنوات التالية، وهذه الحوادث هي التي وقعت في كل من: مدريد "٢٠٠٤"، طابا "٢٠٠٤"، لندن "٢٠٠٥"، عمان "٢٠٠٥".

لقد انصب تحليلنا عند التوقف أمام أحداث ١١ سبتمبر على أربعة برامج رئيسية:

- الاتجاه المعاكس
- بلا حدود

- أكثر من رأي
- أجراس الخطر
- من واشنطون

وفي تحليلنا لموقف قناة الجزيرة من الحوادث الأخرى، سينتقل الاهتمام إلـــى برامج مختلفة، ضمانا للمتابعة الشاملة، وهذه البرامج هـــي: حـــوار مفتـــوح، منبـــر الجزيرة، لقاء اليوم، ما وراء الخبر.

المبحث الثاني

✍ تفجيرات طابا

في السابع من أكتوبر عام ٢٠٠٤، وعقب احتفال مصر بالذكرى الحادية والثلاثين لنصر أكتوبر المجيد، هزت ثلاثة انفجارات قوية منتجعات جنوب سيناء السياحية؛ مما أدى إلى مصرع ٣٥ شخصا, وإصابة١٦٠ على الأقل, معظمهم من الإسرائيليين. وقع الانفجار الأول في فندق هيلتون طابا, ثم تلاه انفجار ثان على مسافة ٤٥ كيلومترا بمخيم أرض القمر السياحي بجزيرة رأس شيطاني الواقع بين طابا ونويبع, ووقع الانفجار الثالث بمنطقة مخيم الطرابين السياحية بفاصل١٥دقيقة بين كل من الانفجارات الثلاثة.

هذا وقد ذهبت أجهزة الأمن في حينه إلى أن منفذي التفجيرات ربما يكونون قد تسللوا من خارج البلاد للقيام بعمليات ردا على ما تقوم به حكومة شارون ضد الفلسطينيين. الأمر الذي أظهرت الأحداث اللاحقة عدم صحته. فبعد انفجارات شرم الشيخ والجورة أكدت السلطات المصرية وجود تنظيم مصري إرهابي جديد وراء كل هذه التفجيرات يدعى "التوحيد والجهاد". وقد تم تقديم أفراده للمحاكمة، بينما قتل العشرات منهم في مواجهات مع أجهزة الأمن المصرية.

لا تحظى تفجيرات طابا باهتمام خاص في برامج قناة "الجزيرة"، فلم تقدم القناة إلا حلقة واحدة من برنامج "منبر الجزيرة"، أذيع في أعقاب الحادث، وقدم الحلقة عبد الصمد عبد الناصر. من أهم القضايا التي يناقشها البرنامج:

- نظرة الشارع العربي لتفجيرات سيناء
- أهداف تفجيرات سيناء وإجراءات الأمن المصرية
- استقبال مصر للسائحين الإسرائيليين
- الجهة المسئولة عن التفجيرات ومدى مصلحتها للفلسطينيين
- أثر التفجيرات على علاقات مصر وإسرائيل

واللافت للنظر هو التركيز على "القتلى الإسرائيليين" في العملية، وهي إشارة تسهم في تحويل المسار بعيدا عن مجراه الحقيقي، وبخاصة أن عديدا من الحوادث المماثلة لم يمت فيها إسرائيلي واحد. يقول عبد الصمد ناصر في تقديمه:

"عبد الصمد ناصر: السلام عليكم وأهلا بكم في حلقة جديدة من منبر الجزيرة، للمرة الأولى منذ توقيع اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل منذ ٢٥ عاما يُقتَل هذا العدد الكبير من الإسرائيليين على أرض مصرية، شاءت الأقدار أن تكون سيناء التي كانت ميدانا لحرب أكتوبر عام ١٩٧٣ هي ميدانها، تفجيرات طابا أثارت الكثير من التساؤلات عمن يقف وراءها وإن كانت حسب الكثيرين قد حققت أهدافا عدة في وقت واحد، لكن الآراء تجمع أنها قد ألحقت ضررا أمنيا واقتصاديا وربما سياسيا بمصر، رئيس الوزراء الإسرائيلي شارون أكد بعد وقت قصير من التفجيرات أنه اتفق والرئيس المصري حسني مبارك في اتصال هاتفي على التعاون لمكافحة الإرهاب، وهذا ما قد يترتب عليه حسب البعض التزامات على مصر وإن كانت القاهرة تؤكد أن مساعيها السلمية لم تتأثر بالتطورات الأخيرة فهل يكفي أن تحمل هذه التفجيرات بصمات القاعدة لكي يُتهم هذا التنظيم بتدبيرها ومن يقف وراءها حقيقة وما الأهداف المتوخاة منها؟ وهل تكون تهديدات القاعدة ضد إسرائيل قد تجسدت واقعا في سيناء؟ وما انعكاسات تفجيرات سيناء على العلاقات المصرية الإسرائيلية؟ هذه الأسئلة وغيرها تمثل جانبا من محاور حلقتنا لهذا اليوم".

المرتكزات الأكثر أهمية في التقديم السابق، تتمثل في:

- التأكيد على القتلى الإسرائيليين
- الإلحاح على غياب تحديد الجهة المسئولة
- الإشارة إلى الأضرار الأمنية والاقتصادية والسياسية

وباستثناء اتصال واحد متوازن، تميل كافة الاتصالات الأخرى إلى تبرير العملية وترى أنها رد فعل، أو تبالغ في الإعلاء من شأن فكرة المؤامرة، وتضيع الأصوات

القليلة العاقلة في زحام الإسراف العاطفي والإفراط الإنشائي الذي لا يعتمد على معلومات موثقة. يقول أحد هؤلاء المتصلين إن السياح الإسرائيليين يملئون مصر، ويقول آخر إن إسرائيل هي التي دبرت العملية وقتلت الإسرائيليين:

"عبد الصمد ناصر: يعني قتلت مواطنيها؟

خالد الدوسري: نعم لأغراض دعائية ولأغراض تكريس أمر.. نعم؟!

عبد الصمد ناصر: يعني تريد تقول بأن إسرائيل قتلت مواطنيها لأهداف غير معلنة".

وينفرد طلال الرمحي بتوجيه اتهام ثلاثي: الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل والأنظمة العربية!، ولا يعلق مقدم البرنامج على الاتهام أو يناقشه بجدية، على الرغم من أنه يفعل ذلك عند تقديم رؤى أخرى لا تروق له أو تصطدم مع سياسة القناة!.

وتصل اللامبالاة إلى ذروتها عندما يتساءل المشاهد محمد علي في نبرة استخفاف ولامبالاة:

"محمد علي: لماذا يعني زعلانين إنه ماتوا شوية يهود في طابا يعني؟

عبد الصمد ناصر: مين زعلان أخي؟

محمد علي: الأخ المصري المتحدث..

عبد الصمد ناصر: هو يتحدث عن بلده عن الضرر الذي ألحق بمصر فقط".

تساؤل عبد الصمد ناصر: "مين زعلان يا أخي؟"، يطرح تساؤلا مهما عن حدود مقدم البرنامج وطبيعة الدور الذي يقوم به، فإذا كانت إتاحة الفرصة للمشاهدين دليلا على الديمقراطية، فإن المقاطعة في حالة أخرى والرد الغاضب على مقولاتهم ينسف الفكرة الديمقراطية من جذورها!.

لقد تطرق البرنامج، دون امتلاكه للحد الأدنى من المعلومات والبيانات الموثقة، إلى اتفاقية السلام التي وقعتها الحكومة المصرية مع إسرائيل، وتحدث كثير من المشاهدين عن احتلال إسرائيلي جديد لسيناء، ومشروعات متنوعة في القاهرة

والإسكندرية، ولم يعلق عبد الصمد ناصر: لأنه لا يعرف، أم لأنه لا يريد أن يوضح الملامح الحقيقية للصورة؟!. والذين تحدثوا عن الإجراءات الأمنية لا يفهمون الكثير عن الأمن وإجراءاته، وما يقولونه ليس إلا مجموعة من الآراء الانطباعية التي لا تجد من يتصدى لها.

يختلف الأمر جذريا عند مداخلة تليفونية لكمال علي من الدنمارك، فقد قدم المتصل رؤية مباغتة أربكت مقدم البرنامج وعرضت ديمقراطية القناة لمأزق حقيقي:

"كمال علي: نعم أخي بالنسبة هذه التفجيرات تفجيرات إرهابية، وأنا عندي نقطة إذا تسمح لي يا أخي بالنسبة لمصر مصر تقول يعني ولو الموضوع ما يخص العراق بس مصر تقول بالنسبة للقوات الأميركية الموجودة في العراق توجد أيضا مثلا إسرائيل في شمال العراق توجد حاليا في مصر أربعين خمسين ألف إسرائيلي وهم يشجعون على الإرهاب والقتل بالعراق وقطع الرؤوس ومع الأسف الجزيرة تشجع هدول الإرهابيين مثل هدول القتلة وأرجوكم لا تطلعوا صور قطع الرؤوس..

عبد الصمد ناصر: يعني أنت تريد أن تستغل الفرصة عفوا كمال هذا ليس موضوعنا من فضلك إذا كان لك رأي في موضوع الليلة دون تصفية حسابات مع أحد فأدلِ بدلوك من فضلك دون جوانب أو خلفيات أخرى".

لقد بدأ الارتباك واضحا على مقدم الحلقة في مواجهة الاتهام المفاجئ غير المتوقع، ولم يجد من مهرب إلا التأكيد على أن ما يقوله "ليس موضوعنا"، وكأن كل المداخلات السابقة هي من صميم الموضوع!.

ويستمر هجوم المتصل الدانماركي على قناة "الجزيرة"، منتقلا إلى نقطة جديدة تضيف المزيد من الارتباك إلى عبد الصمد ناصر:

"كمال علي: نعم العفو أخي هذه التفجيرات لا تخدم القضية الفلسطينية، هذه التفجيرات بالعكس تخدم إسرائيل، هذه المنظمات الإرهابية الإسلامية مع الأسف يعني عندنا عايشين بأوروبا يعني مثلا تقول للأوروبي إحنا مسلمين يزعقون علينا يعني

إذا عُرِض بالتليفزيون قطع الرؤوس هذه الجزيرة مع الأسف أنـــتم صـــرتم أعـــداء الشعب العراقي عند تذيعوا صور وتنشروا صور الإرهابيين..

عبد الصمد ناصر: نحن لا نذيع قطع الرؤوس كمال علي عفوا أفسحت لـــك المجال أكثر من اللازم".

لماذا يضيق صدر مقدم البرنامج بالرأي المضاد؟ ولماذا يتورط في إنكـــار مـــا تقوم به "الجزيرة" فعلا؟ ولماذا يقول إنه أفسح المجال "أكثر من اللازم"، وهـــو الـــذي يترك الفرصة لوجهات أخرى بلا تدخل، عندما تكون أفكارهم وتحليلاتهم مؤيـــدة أو متوافقة؟!.

المبحث الثالث

✍ تفجيرات لندن

يوم الخميس ٧-٧-٢٠٠٥، هزت مجموعة من الانفجارات العاصمة الإنجليزية لندن، وقد اختار منفذو التفجيرات أربعة أماكن متفرقة لإحداث أكبر قدر من التأثير والصدمة لدى سكان العاصمة البريطانية لندن، ثلاثة منها في محطات المترو، منها محطة "إيدج وير"، المحاذية للشارع المعروف بهذا الاسم والمشهور بكثافة رواده (يعتبر مركزا للجالية العربية)، وحافلة نقل، وهو ما يعني أن التفجيرات مخططة منذ فترة وتم تحديد توقيتها بعناية، والهدف منها هو إيقاع أكبر عدد من القتلى والجرحى، وربما لهذا قال بيان منسوب إلى تنظيم القاعدة وتبنى التفجيرات إنها أخذت "مجهودات شاقة قام بها المجاهدون الأبطال واستمرت فترة طويلة لضمان نجاح الغزوة"، وفق تعبير البيان.

أعلنت الجماعة التي تسمى "تنظيم قاعدة الجهاد في أوربا" مسئوليتها عن الهجوم في موقع "القلعة" على الإنترنت الذي ينشر عادة بيانات التنظيم، وحذرت الجماعة إيطاليا والدنمارك من استمرار الإبقاء على قواتهما في العراق وأفغانستان، ما أشار لعلاقة التفجيرات أيضا بالوضع في العراق.

كما جاء في البيان أن التفجيرات جاءت ردا "على المجازر التي ترتكبها بريطانيا في العراق وأفغانستان"، وقال: "لقد حذرنا الحكومة البريطانية والشعب البريطاني مرارا وتكرارا، وها نحن قد أوفينا بوعدنا ونفذنا غزوة عسكرية مباركة في بريطانيا بعد مجهودات شاقة".

في متابعتها لأحداث العملية الإرهابية في لندن، قدمت قناة "الجزيرة" حلقتين من برنامج "أكثر من رأي"، وحلقة واحدة من برنامجي "حوار مفتوح" و"لقاء اليوم"، وأذيعت الحلقات السابقة على النحو التالي:

١- أكثر من رأي، ٨-٧-٢٠٠٥

٢- أكثر من رأي، ٧-٧-٢٠٠٦

٣- حوار مفتوح، ٨-٧-٢٠٠٦

٤- لقاء اليوم، ١٠-٧-٢٠٠٦

حلقة واحدة مواكبة للحدث، وثلاث حلقات أذيعت بمناسبة الذكرى الأولى لوقوع الحادث الإرهابي.

يقول الأستاذ سامي حداد، في تقديمه للحلقة الأولى المواكبة لوقوع الحادث الإرهابي:

"سامي حداد: مشاهدينا الكرام أهلا بكم في حلقة اليوم من برنامج أكثر من رأي تأتيكم من لندن على الهواء مباشرةً، أولاً نعتذر عن عدم تقديم البرنامج الذي كان مقررا حول السودان بسبب تفجيرات لندن، لم تُعمِّر فرحة اللندنيين باستضافة دورة الألعاب الأوليمبية القادمة أكثر من عشرين ساعة؛ إذ إنهم استيقظوا على دوي التفجيرات التي هزت قطارات الأنفاق وحافلة للركاب راح ضحيتها حتى الآن أكثر من خمسين قتيلا وسبعمائة جريح، التفجيرات تزامنت مع بدء قمة الدول الثماني الصناعية الكبرى في اسكتلندا التي كان من المفترض أن تتصدر جدول أعمالها قضية شطب ديون الدول المعدمة ومكافحة الفقر؛ فهل خطفت التفجيرات الأضواء من القمة وأعادت الاعتبار من جديد لشعار الرئيس الأميركي وحليفه رئيس وزراء بريطانيا لمحاربة الإرهاب؟ هذا الشعار الذي بدأ يفقدان بريقه كما يرى كاتب فلسطيني في صحيفة عربية تصدر في لندن اليوم، فهل يمكن محاربة الإرهاب بالوسائل العسكرية فقط التي ستؤدي إلى الفشل كما تساءل اليوم روبن كوك وزير الخارجية البريطاني العمالي السابق الذي استقال بسبب الحرب على العراق، مشيرا إلى أن محاربة الإرهابيين في عقر دارهم لم تحمِنا من الإرهاب في عقر دارنا، أما الآن فماذا عن منفذي التفجيرات مجهولي الهوية ولو أن مسئولين بريطانيين لم يستبعدوا ضلوع تنظيم القاعدة في حين أن مجموعة تطلق على نفسها تنظيم قاعدة الجهاد في أوروبا ادعت المسؤولية، فهل حاول من كانوا وراء التفجيرات حشد الرأي العام لإجبار توني بلير على الانسحاب من العراق والتخلي عن تحالفه مع بوش كما جاء في صحيفة الإندبندنت البريطانية في عددها الصادر اليوم؟ وما هي

مضاعفات هذه العملية على مسلمي بريطانيا؟ وكيف ستكون ردة فعـل البريطـانيين الذين خرجوا بالملايين ضد الحرب على العراق؟ مشاهدينا الكرام معنا اليوم في هذا البرنامج الدكتور حافظ الكرمي مدير المركز الإسلامي في منطقة ميفير بلندن رئيس مجلس الشورى للرابطة الإسلامية في بريطانيا والدكتور منـصور العجـب رئـيس المنظمة السودانية لحقوق الإنسان والمقيم في بريطانيا وأخيرا وليس آخرا الدكتور هاني السباعي مدير مركز المقريزي للدراسات التاريخية، ولو بدأنا بالدكتور هـاني السباعي، دكتور هاني التحريات البريطانية حتى الآن لا تزال جاريـةً فيمـا يتعلـق بمنفذي هذا الهجوم في لندن إلا أن وزير الخارجية جاك سـترو ووزيـر الداخليـة ومدير عام شرطة لندن سكوتلانديارد لم يستبعدوا احتمال ضـلوع القاعـدة، قـالوا أصابع القاعدة في هذه العملية الوحشية كما وصف توني بلير رئيس الحكومة، يعني برأيك تنظيم القاعدة هل يستطيع أن يقوم بمثل هذا العمل في وقت.. يعني بعد شـن الحرب على ما يسمى بالإرهاب اعتقال العديد من القيادات قتل العديد منهم يعني هل تستطيع القاعدة القيام بمثل هذا العمل في بريطانيا ضد المدنيين؟"

تتمثل القضية الأولى في حقيقة أن محاربة الإرهاب في منابعه الأصلية لم تَحُل دون انتقال الأعمال الإرهابية إلى الداخل البريطاني، أما القضية الثانية فهـي تتعلـق بمصير مسلمي بريطانيا ومدى تأثرهم سلبا بالعملية الإرهابية "الوحشية" المنسوبة إلى الإسلاميين.

النتائج الخطيرة للعملية الإرهابية، من منطلق القضيتين السابقتين، تختلف جذريا عن السؤال الذي يتوجه به مقدم البرنامج ليناقش فكرة توجيه الاتهام إلى تنظيم القاعدة، فسؤاله يسعى إلى تبرئة التنظيم، أو – على الأقل – إلى التشكيك في حقيقة قيامه بهذه العملية. وتأتي إجابة هاني السباعي لتطرح فكرتين متناقضتين لا يمكن التوفيق بينهما: تشتيت الاتهام وتوزيع مسئوليته على أكثر من جهة، والمباهاة والفخر – في الوقـت نفسه – بقوة وقدرة تنظيم القاعدة على تنفيذ العملية موضوع النقاش:

"هاني السباعي – مدير مركز المقريزي للدراسات التاريخية: بسم الله الرحمن الرحيم، أنا أعتقد أن رئيس الوزراء البريطاني توني بلير ارتكب خطأ كبيرا عندما استبق التحقيقات وزعم أن منفذي هذه الهجمات يعني تحركوا باسم الإسلام، فأعتقد أن هذا الخطأ الكبير سيدفع هو ثمنه مستقبلا، لابد ألا نستبعد أية فرضيات، لا نستبعد أن تكون مخابرات غربية أخرى لدول كارهة لبريطانيا، لا نستبعد دولا معينة يعني بعض الناس الصهاينة الأمريكان بعض من يريدون أن يغطوا على القمة، لكن لا نستبعد أيضا تنظيم القاعدة لأن تنظيم القاعدة قالوا إنه مات في أفغانستان، قُبر في كهوف أفغانستان فإذا به يحيا مرة أخرى بعد احتلال أميركا للعراق، إذاً والآن صار هو الذي يتحكم في أجندة الحرب في العراق صار تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين بقيادة أبي مصعب الزرقاوي هو الذي يفرض سياساته لدرجة أن الحكومة المصرية اضطرت أن تسحب بعثتها الآن وتخشى أي دولة أن ترسل سفيرا".

مثل هذا الخطاب الإرهابي الصريح، الصادر عن رجل ينعم بالإقامة والحماية في الدولة التي وقعت فيها التفجيرات الإرهابية، يتناقض مع تشكيكه في اتهام القاعدة بتنفيذ العملية، كما أنه يتضمن تأييدا صريحا للإرهاب، وتجنيدا للقيام بعمليات مشابهة، دون نظر إلى الضحايا المدنيين الذين يسقطون من جراء هذه العمليات. وثمة حوار قصير دال يدور بين مقدم البرنامج وهاني السباعي، لابد من التوقف عنده وطرح بعض التساؤلات:

"سامي حداد: اسمح لي يعني هل الشيخ أسامة بن لادن يعني هل هو فقيه يعني يصدر فتاوى شرعية أم أنه هو رئيس تنظيم قاعدة؟

هاني السباعي: أولاً هو ابن من أبناء الأمة والله سبحانه وتعالى.. إحنا لسنا لدينا كهنوت ولدينا بابا ولدينا أي شيء من.. أي إنسان يستطيع أن يقوم بواجب الشرع حتى لو كنت وحدك..

سامي حداد: لا إصدار الفتاوى يا أستاذ هاني..

هاني السباعي: على أن لديه..

سامي حداد: إصدار الفتاوى يأتي من شيوخ علماء..

هاني السباعي: نعم لديه مجلس شورى، لديه علماء وهو طالَب بمناظرتهم فلم يناظروه، طالَب أن يناقش معهم لم يناقشوه، أين هؤلاء العلماء؟

سامي حداد: اسمح لي الحديث ليس عن أسامة بن لادن، أنا.. السؤال باختصار العلماء يا سيدي المجمع الفقهي في مكة المكرمة في نهاية الشهر الماضي أصدر فتوى.. بيانا يقضي بعدم جواز قتل مدنيين يعني نرد عليهم بأسامة بن لادن؟

هاني السباعي: هذا مجمع.. هذه المجامع الأشبه بالمجامع الكنسية الآن، هذه المجامع هي التي تحرم على الشباب أن يذهب إلى العراق ليجاهد، هذه المجامع وهؤلاء كبار العلماء هم الذين أفتوا بوجود القوات الصليبية في أرض الحرمين، هذه المجامع الرسمية هي التي تزين الباطل..

سامي حداد: لا اسمح لي أستاذ هاني أرجو ألا تغالط هذا المجمع نفسه اعتبر أن الجهاد في العراق مشروع؛ لأنه ضد العسكريين حتى إن الشيخ محمد المقدسي أستاذه أبو مصعب الزرقاوي.. طالب الزرقاوي بألا يقتل المدنيين وإنما فقط الأميركيين.. رجاءً العسكريين رجاءً..

هاني السباعي: أولا لا يوجد اصطلاح يا أستاذ سامي، لا يوجد اصطلاح اسمه المدنيين، في فقه الشريعة الدكتور الكرمي جالس وأي إنسان فقيه جالس وأنا جالس وفاهم في الشريعة لا يوجد مصطلح مدنيين بالاصطلاح الغربي الحديث، فيه مصطلح محارب وغير محارب، هؤلاء.. هذا يقول يقتل الأبرياء؟ البريء بريء في الإسلام، البريء لا يجوز قتله في الإسلام".

لقد تحول الأمر إلى مناقشة فقهية، لا يملك سامي حداد مؤهلات الخوض فيها، ولا يملك إلا أن يحيل الكلمة إلى ضيف آخر، هو الدكتور حافظ الكرمي ليكون حكما وفيصلا!. الخطورة هنا تتعلق بسؤال مهم: ماذا لو جاء رأي الضيف الحكم مؤيدا للمقولات الخطيرة التي يرددها هاني السباعي؟!. وماذا إذا كان الرأي معارضا وضعيف الحجة؟!. هل نترك تشكيل الرأي العام لمثل هذه المغامرات؟!.

لقد تحول الحوار بين هاني السباعي وحافظ إلى مشاجرة، ومن المفردات التي استخدمها في الحوار نجد ما يلي:

- بيزنس مع بعض
- هو في بطنه شيء
- هم لا يمثلون جمهور المسلمين
- هم يتفقون مع الشرطة البريطانية في مصالح معينة
- يريدون إسلام إنجليزي
- لدي أيضا ملفات
- لو زدت سأزيد

هكذا يتحاور ممثلو الإسلام في العاصمة البريطانية، والمفترض أن المناقشة تدور حول العملية الإرهابية وأسبابها والمسئولين عنها والنتائج المترتبة عليها!.

على من تقع مسئولية الاضطراب والارتباك والعجز عن إدارة حوار صحي صحيح؟!.

أهي مسئولية مقدم البرنامج؟، أم مسئولية اختيار القناة لنوعية معينة من الضيوف؟!. في مقدمتهم هاني السباعي وأمثاله!

هذا ما نترك الحكم عليه للقارئ.

المبحث الرابع

تفجيرات عمان

أطلق عليها "الأربعاء الأسود" لوقوعها يوم الأربعاء الموافق ٩ نوفمبر ٢٠٠٥ . في هذا اليوم المشئوم وقعت ثلاث عمليات انتحارية استهدفت ثلاثة فنادق تقع في وسط العاصمة الأردنية عمان. وقع أولها في تمام الساعة التاسعة والنصف في التوقيت المحلي لمدينة عمان في مدخل فندق الراديسون ساس، ثم ضرب الثاني فندق حياة عمان، ثم بعدها بدقائق تم استهداف فندق دايز إن. وصل التقدير المبدئي للقتلى إلى ما يوازي ٥٧ قتيلا وما يزيد على ١١٥ جريحا. كان السبب الرئيسي لارتفاع عدد القتلى هو حدوث تفجير فندق الراديسون أثناء حفلة زفاف. تبنى تنظيم القاعدة مسؤولية التفجيرات، في إعلان على شبكة الإنترنت نشر في اليوم التالي للتفجيرات، أعلن فيه التنظيم أسماء المنفذين وهم: أبو خبيب وأبو معاذ وأبو عميرة وأم عميرة، وكلهم عراقيون.

ضرب أكبر هذه التفجيرات حفل زفاف في فندق الراديسون ساس فيه حوالي ٣٠٠ مدعو. وبالرغم من نجاة كل من العروسين، فإن كلا الأبوين بالإضافة إلى والدة العروس لاحقا و ١١ قريبا قتلوا. كما توفي المخرج السوري مصطفى العقاد الذي كان في مدخل فندق حياة عمان بعد إصابته في التفجيرات بيومين، كما قتلت ابنته ريما أثناء التفجيرات أيضا.

كما كان بين الضحايا ٣٣ أردنيا، ٦ عراقيين، ٥ فلسطينيين، ثلاثة أمريكيين، واثنان من فلسطينيي الداخل (عرب إسرائيل)، وبحرانيان، وثلاثة صينيين مندوبون عن جيش التحرير الصيني، وسعودي واحد ومواطن إندونيسي واحد. وكان من بين الضحايا الفلسطينيين العقيد بشار نافع، رئيس الاستخبارات العسكرية في الضفة الغربية، والجنرال عبد علون، وجهاد فتوح شقيق القيادي الفلسطيني روحي فتوح والملحق الاقتصادي في السفارة الفلسطينية في القاهرة، ومصعب خورما،

الرئيس التنفيذي السابق لشركة الاتصالات الفلسطينية، كما كان أحد فلسطينيي الداخل هو حسام فتحي محاجنة، رجل أعمال من مدينة أم الفحم, ومن العراقيين علي الشمري ومحسن الفضل وفرات عبد الصاحب وهم من موظفي وزارة النفط العراقية.

وتعتبر هذه الحادثة واحدة من سلسلة حوادث استهدفت الأردن على يد مجموعات إسلامية متشددة، ففي شهر أغسطس ٢٠٠٤، أطلق ثلاثة صواريخ على سفينة أمريكية في خليج العقبة، أخطأت بعضها السفينة لتصيب مواقع مدنية في مدينة العقبة، كما تم إحباط عدة محاولات لعمليات سابقة من ضمنها محاولة تنفيذ هجوم في عمان ادعت الحكومة الأردنية أنه كيماوي في العام ٢٠٠٤ أيضا، ومحاولات لمهاجمة سياح أمريكيين وإسرائيليين عام ٢٠٠٠.

بعيدا عن المتابعة الخبرية التقليدية، لم تحظ تفجيرات عمان باهتمام برامجي في قناة "الجزيرة"، فليس إلا حلقة واحدة في برنامج "ما وراء الخبر"، ناقشت العملية الإرهابية، وأذيعت هذه الحلقة يوم ١٠-١١-٢٠٠٥.

مقدمة الحلقة هي جمانة نمور، وضيفاها هما محمد الحلايقة، نائب رئيس الوزراء الأردني الأسبق، وعزام التميمي مدير معهد الفكر السياسي الإسلامي.

تنشغل الحلقة بمناقشة قضيتين متداخلتين:

- دلالات تفجيرات عمان
- تداعيات الحادث على السياسة الأردنية

ويتمثل هذان المحوران بوضوح في المقدمة التي تفتح بها جمانة نمور:

"جمانة نمور: أهلا بكم، نحاول في حلقة اليوم التعرف على ما وراء الانفجارات التي شهدتها العاصمة الأردنية عمّان ونطرح فيها تساؤلين اثنين: ما هي الدلالات التي حملتها الانفجارات التي شهدتها العاصمة الأردنية؟ وكيف ستكون تداعياتها على بلد يفتخر بتجربته الأمنية؟ سابقة فريدة في الأردن، تفجيرات انتحارية متزامنة في ثلاثة فنادق طرحت أسئلة عدة حول توسع نشاط القاعدة بالمنطقة ككل وحول أداء الأجهزة الأمنية الأردنية التي كانت إلى ما قبل التفجيرات تعد الأكثر نجاحا في إفشال عمليات قبل وقوعها".

بعد هذه المقدمة الموجزة، يظهر تقرير مسجل، أعده مكي هلال، عن ملابسات الحادث، وأهم الأسباب التي أدت إلى وقوعه.

الضيفان متفقان في إدانة العملية الإرهابية واستهداف المدنيين، لكنهما يختلفان بعد ذلك في الأسباب والدوافع وفي النتائج والآثار.

يقول الدكتور عزام التميمي:

"يا سيدتي هذا الموضوع لا علاقة له بموقف الأردن من الإسلام أو بفهم الإسلام، هو له علاقة بشيء أكبر من الأردن، لكن الأردن أصبح أو جر إليه، ألا وهو حرب كبيرة على مستوى الساحة العالمية، طرفاها النظام الأميركي الذي يسيطر عليه المحافظون الجدد والقاعدة من جهة أخرى والذي يدفع ثمن هذه الحرب هم الأبرياء من المواطنين، سواء في العراق أو في المملكة العربية السعودية أو في المملكة الأردنية الهاشمية أو في المغرب أو في لندن أو في أي مكان تصل إليه نيران هذه المعركة المحتدمة التي سببها في الأساس هذه الحرب التي أعلنها جورج بوش على ما يسمى بالإرهاب، الذين تورطوا في هذه الحرب واعتبروا أنهم يقدمون أو يقومون بالحسنات هم من وجهة نظر الزرقاوي ومن معه يرتكبون السيئات، هذا هو الإشكال، هذه هي المشكلة الحقيقية".

وفي مقابل هذه الرؤية التي تدين الإرهاب وترى له أسبابا تتجاوز النطاق المحلي، وصولا إلى اتهام الولايات المتحدة وسياستها بالمسئولية، يقدم محمد الحلايقة رؤية مناقضة:

"جمانة نمور: برأيك دكتور محمد هل يدفع الأردن ثمنا لكونه حليفا رئيسيا للولايات المتحدة في المنطقة؟

محمد الحلايقة: لا.. السياسة الأردنية ليس فيها جديد فيما يتعلق بهذا الموقف، منذ نشوء الدولة الأردنية والأردن يتعامل ببرغماتية وواقعية في قضية علاقاته الدولية وعلاقاته العربية، والأردن دوما كان له علاقات ومصالح مع الدول الغربية

ومع الولايات المتحدة الأميركية، لكن أنا أعتقد أنه.. يعني لماذا شرم الشيخ سابقا؟ ولماذا بالي في إندونيسيا؟ ولماذا.. أعتقد أن هذا الإرهاب أعمى، يريد أن يخلط كل الأوراق بحجة مقاومة الأمريكان وإذا كان لهذا الإرهاب مثل هذه القوة أن يصل إلى مثل هذه الاختراقات في الدول العديدة فمعروف ساحة المواجهة ومعروف ساحة المعركة ومعروف وين الاحتلال موجود، لماذا يلجأ إلى مثل هذا الأسلوب؟"...

المطلوب عند عزام التميمي أن تتغير السياسة الأردنية، دون تحديد واضح لمفهوم التغيير الذي يعنيه، وتأثير ذلك على العمليات الإرهابية، أما محمد الحلايقة فلا يرى جديدا في السياسة الأردنية يستوجب استهدافها من الإرهابيين، وهي مقولة لا تحظى بقبول وتأييد عزام التميمي الذي يسفه كل ما يقوله نائب رئيس الوزراء الأردني السابق:

"عزام التميمي: طبعا السياسيون سواء كانوا سابقين أو حاليين يريدون أن يهربوا من فهم الظاهرة على حقيقتها؛ لأن فهم الظاهرة على حقيقتها يحملهم مسؤوليات، هذا الإرهاب هو إرهاب إجرامي ولكنه ليس أعمى، أنا أظن أن من ورائه خطة وخطة مدروسة ويقصد به الضرب من أجل تحقيق أهداف بعيدة المدى، تماما كما تفعل الولايات المتحدة الأميركية، فيه منطق موجود في الولايات المتحدة الأميركية نرى صورته تماما معكوسة في مرآة القاعدة"..

ويصل التميمي إلى النقطة الجوهرية في قوله:

"عزام التميمي: يعني الآن مثلا في الولايات المتحدة الأميركية وفي بريطانيا أعداد كبيرة من الناس يقولون لقد ورطنا توني بلير وجورج بوش في هذه الحرب على الإرهاب وفي الحرب على العراق؛ لأن النتائج الوخيمة تعود علينا، آن الأوان أن السياسيين العرب في المملكة العربية السعودية، في قطر، في الأردن، في المغرب، في كل الأماكن التي زجت بنفسها وورطت نفسها في الحرب الأميركية على الإرهاب أن تراجع سياستها".

ما الذي تعنيه مراجعة السياسات؟! هذا ما لا يكشف عنه التميمي، ولا تتساءل عنه مقدمة البرنامج!. وربما تلك هي الرسالة التي أرادت الجزيرة أن توصلها للمشاهد. وها هي قد وصلت.

ولنا كلمة أخيرة :

السؤال الآن: إلى أي مدى حرصت "الجزيرة"، في الممارسة العملية، على الالتزام بميثاق الشرف المهني الذي أعلنت عن تبنيه؟.

الإجابة عن هذا السؤال تبدأ عند الموقف من إسرائيل، فكثير من المعارضين لسياسة القناة وتوجهاتها يرون أنها تحقق التفافا غير مباشر للوصول إلى درجة من التطبيع مع العدو المرفوض شعبيا؟ ويدلل هؤلاء على مصداقيتهم بالإشارة إلى الموقف الرسمي الذي تتخذه دولة قطر من الصراع العربي الإسرائيلي وقضية التطبيع، فعلى الرغم من أن قطر ليست من دول الجوار مع إسرائيل، ولم توقع معها اتفاقية سلام، ولا تتبادل معها تمثيلا دبلوماسيا رفيع المستوى، كما هو الحال مع مصر والأردن، فإن العلاقة تتسم بالكثير من الدفء والحميمية، التي تتجاوز القائم بين إسرائيل والدول العربية التي توجد بها سفارات!.

وإذا كان الموقف المريب تجاه إسرائيل وقضية التطبيع يمثل الملمح الأول الجدير بالاهتمام عند تقييم قناة "الجزيرة"، من منطلق تماهيها مع الدولة، فإن التحفظ الثاني يتمثل في مسلك القناة الذي يبدي انحيازا واضحا، على المستويين الفكري والسياسي، للتيارات السلفية ذات التوجه المتشدد والمتطرف، وهو ما يتمثل بوضوح عند بعض المذيعين ومقدمي البرامج والمراسلين. قد يكون صحيحا أن القناة تشهد تنوعا في الاتجاهات السياسية والانتماءات الدينية للعاملين فيها، إلا أن الصحيح – أيضا – هو احتكار الاتجاه المنحاز لأهم البرامج الحوارية ذات الشعبية والتأثير والنفوذ، ولن يصعب على متابعي هذه البرامج اكتشاف الخروج الصريح المتكرر

عن كل قواعد الحياد والموضوعية: عدم إتاحة فرص متكافئة للمتحاورين، التحامل على أصحاب الرؤى المختلفة، تجاوز الرصانة والجدية إلى مرحلة التسفيه والسخرية. الملاحظات السابقة لا تعني حكما عاما على كل البرامج التي تقدمها "الجزيرة"، لكنها تنطبق على الأغلب الأعم، والأكثر شهرة، من البرامج.

أما المحطة الثالثة فتتعلق بالموقف من السياسات والممارسات الأمريكية، تجاه القضايا العربية والإسلامية الملتهبة والمزمنة، وبشكل خاص في فلسطين والعراق. إن ما تستهدفه القناة هو خلق مناخ عام رافض وساخط لمجمل السياسات الأمريكية، وهو مجال خصب لتوجيه اتهامات ذات طابع بطولي فضفاض، لكن المأخذ على هذا التوجه، الذي قد يكون محمودا في ذاته، يتجسد في تعمد خلط الأوراق بين السياسي والديني.

وتبقى ملاحظة رابعة وأخيرة، هي الأكثر أهمية وخطورة، حول موقف قناة "الجزيرة" من دولة قطر. إن القناة لا تترك مظهرا أو موقفا عربيا رسميا، كبيرا كان أم صغيرا، دون ملاحقته والتدليل من خلاله على حالة التردي والضعف العربي أمام السياسات والمواقف الأمريكية، لكن السؤال المحير: ماذا عن دولة قطر وحكامها وسياساتها؟ ماذا عن الامتيازات والتسهيلات والقواعد العسكرية الأمريكية الموجودة على الأراضي القطرية؟!. عند هذا الحد تقف قناة "الجزيرة"، وتتوقف شجاعتها وتفقد مصداقيتها!.

نعود لنطرح السؤال من جديد: هل هو "التماهي" بين "الجزيرة" والدولة؟ من منطلق الخلل الذي أشرنا إليه، يذهب بعض المحللين إلى أن قناة "الجزيرة" ليست سوى أداة ذكية لترويج سياسة الحكومة القطرية وتلميع صورتها إعلاميا، بل والأهم من ذلك أنها تحقق طموحا ورغبة لدى قادة قطر في أن يلعبوا دورا على الساحتين الإقليمية والدولية، يتجاوز حجمهم المحدود من ناحية، ويتيح لهم القبض على كل اللذات من ناحية أخرى. ما هي هذه اللذات المتناقضة؟.

إنهم يسعون إلى الاحتفاظ بالعلاقات الحميمة مع أمريكا، واكتساب الشعبية المجانية في الشارع العربي والإسلامي!.

يتمسكون بارتداء ثياب القيم الديمقراطية التي تعلي من شأن المواطنة وحقوق الإنسان، ويرفضون السياسات الأمريكية ويعادونها!.

وفي هذا السياق، يبدو لافتا للنظر أن القناة تتجاهل كل ما يجري على الصعيد الداخلي في قطر، ولا تنشغل بقضايا الديمقراطية وتداول السلطة وحقوق الإنسان القطري. السؤال الذي يبدو ذا طابع ساخر من الناحية الشكلية، لكنه بالغ الجدية: هل تفتقد قناة "الجزيرة" لمراسلين لها في قطر، يتابعون كل ما يتعلق بالديمقراطية وحقوق الإنسان؟!.

وهل يليق بنا المقام.. لنتذكر تلك "النكتة السياسية" التي اشتهرت أيام الحرب الباردة بين العملاقين – وقتها – الأمريكي والسوفيتي، والتي تقول إن الرئيس الأمريكي في لقاء مع نظيره السوفيتي سعى للتدليل على أجواء الديمقراطية التي يعيشها الغرب الرأسمالي فقال: إن أي مواطن أمريكي يمكنه أن يقف أمام "البيت الأبيض" وأن يعترض علانية على سياسة الحكومة الأمريكية، بل ويمكنه أن "يسب" الرئيس الأمريكي ثم ينصرف لمنزله في أمان.. فرد الرئيس السوفيتي: بل الحال عندنا أفضل.. فيمكن لأي مواطن سوفيتي أن يقف أمام "الكرملين" وأن يعترض علانية على سياسة الحكومة الأمريكية ويمكنه أن "يسب" الرئيس الأمريكي ثم ينصرف لمنزله في أمان، والأكثر ستصله رسالة شكر وتقدير من الدولة.

ونحن "لا نجزم" هنا بالطبع.. بأن رسائل الشكر والتقدير تصل الجزيرة من دولة قطر!

الهوامش

(١) د. عادل عبد الغفار: مصادر معلومات طلاب الجامعات المصرية لمتابعة أحداث الحادي عشر من سبتمبر وتوابعها، المجلة المصرية لبحوث الرأي العام، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، العدد العشرون، سبتمبر ٢٠٠٣، ص ص ٣١٤-٣١٥.

(٢) د.مأمون فندي: الرجاء عدم الاتصال، جريدة الشرق الأوسط، يوليو ٢٠٠٦.

(٣) الموقع الرسمي لقناة الجزيرة.

(٤) برنامج "قضايا الساعة"، قناة الجزيرة، حلقة ٢٠٠٣/٢/١٦.

(٥) الموقع الرسمي لقناة الجزيرة.

(٦) د. عزة عبد العظيم: تغطية التقارير الإخبارية التليفزيونية لأحداث الإرهاب، مجلة البحوث الإعلامية، جامعة الأزهر، العدد الثامن عشر، أكتوبر ٢٠٠٢، ص ١٥٧.

(٧) د. علي عجوة: العلاقات العامة والصورة الذهنية، عالم الكتب، القاهرة ط ١، ١٩٨٣، ص ١٣.

(٨) أحمد بهجت: صندوق الدنيا، الأهرام، ٢٠٠٦/٩/١٦، ص٢.

الفصل الثاني

العربيـــــــــــــــــــــــــــة

تأسست قناة "العربية"، التي تنطلق من دبي في دولة الإمارات العربية المتحدة، في الثالث من مارس سنة ٢٠٠٣، أي بعد حوالي سبع سنوات من انطلاقة قناة "الجزيرة" في قطر.

إشارتنا إلى قناة "الجزيرة" لا تنبع من فراغ، فلا شك أن قناتي "العربية" و"الجزيرة" هما الأكثر نفوذا وتأثيرا على الرأي العام العربي والإسلامي، وهما – فى الوقت نفسه – تعبران عن اتجاهين مختلفين، على الصعيدين الإعلامي والسياسي.

فارقان مهمان لابد من وضعهما في الاعتبار عند المقارنة والمفاضلة بين القناتين، بحثا عن التوازن والموضوعية: الفارق الأول هو وجود سبع سنوات تفصل بين انطلاق القناتين، والفارق الثاني هو الاختلاف المنهجي، سياسيا وفكريا، الذي ينعكس بالضرورة على أسلوب التناول الإعلامي من الناحية المهنية.

لقد استطاعت "الجزيرة"، في السنوات السبع التى انفردت فيها بساحة العمل الإعلامي الفضائي، أن تستأثر بقطاع كبير من الجماهير العربية، التي رأت فيها لونا جديدا غير مألوف في الإعلام العربي، ووفقا لاستطلاع أجرته مؤسسة الزغبي إنترناشيونال وجامعة ميريلاند "فإن "الجزيرة" هى الخيار الأول لاثنين وستين فى المائة من مشاهدي القنوات الفضائية الإخبارية فى الأردن وستة وستين فى المائة فى مصر وأربعة وأربعين فى المائة فى السعودية".

عندما ظهرت قناة "العربية"، كانت "الجزيرة" قد استقرت وشكلت شخصيتها واستقطبت جماهيرها، ومما ساعد على نجاحها "الجماهيري" أنها استخدمت مفردات ساخنة، وروجت لأسلوب لا يقدمه الإعلام الرسمي التقليدي، محدود القدرة على التأثير فكريا ومهنيا. ومثل هذه اللغة الإعلامية، تقود بالضرورة إلى الفارق الثاني الذي يتمثل فى التباين المنهجي. قد يختلف كثير من العلميين والموضوعيين والمفكرين مع المنهج الإثاري الحماسي، لكن أحدا لا يستطيع أن يشكك فى قدرة هذا المنهج على تحقيق نجاحات شعبية، وهو ما يبرر الانصراف النسبي عن الرؤى المعتدلة المتزنة التى تسعى إلى مخاطبة العقل دون العاطفة.

كان لقناة "العربية"، منذ إنشائها، توجه مختلف عن الأسلوب الـذي تتـسم بـه "الجزيرة"، فلم يكن الاهتمام طاغيا بالبرامج ذات الطبيعة الدينية التى يمكن من خلالها الترويج للأفكار والآراء المتطرفة ذات الصبغة العنيفة، كما أنها لم تهتم بالبرامج التى يتنافس، أو يتناقش، خلالها ضيفان يتربص كل منهما بالآخر، ولا غاية من الحوار، إن كان هناك حوار، إلا الإثارة الشكلية والترويج لمعنى التعصب وتغييب الآخر.

ومن أجل تقييم علمي موضوعي لقناة "العربية"، أهدافها وفلسفتها ووسائلها، فإننا نعتمد على تحليل المعلومات الثرية الواردة فى التحقيق المطول الذي نـشرته مجلـة "نيويورك تايمز" الأمريكية عن قناة "العربية". وقد كان التحقيق المثير الذي قامت بـه شافنثا شابيرو، وليد معايشة كاملة لأجواء القناة، وتواصل حميم مع العاملين فيها، حيث أقامت مراسلة المجلة نحو ثلاثة أسابيع متصلة، تتجول فى مبنى القناة بحرية، وتحادث من تشاء، فيما تشاء من الموضوعات، دون تدخل من الإدارة. ويبدو جليا فـى ثنايـا التحقيق المهم، أن شخصية عبد الرحمن الراشد، مدير القناة، تلعب دورا محوريا بارزا فى تشكيل التوجه الفكري العام والممارسة اليومية للقناة، وهو ما يتطلب أن نتوقـف أمام كثير من أفكاره ورؤاه، التى تكشف عن فلسفته الإعلامية والسياسية.

يشير التحقيق المنشور إلى أن عبد الرحمن الراشد، الذي بدأ حياته الإعلاميـة صحفيا قبل أن يتولى مسئولية القناة، معروف بمقالاته القوية الغاضبة الصريحة التـى تنتقد الاتجاه الإسلامي المتشدد وكتب فى عموده مقالا بعدما فرض الثـوار الشيـشان سيطرتهم فى أوستيا الشمالية انتهى بوقوع أكثر من ٣٠٠ قتيل، قال فيه "إنه من المؤكد أن المسلمين ليسوا جميعا إرهابيين، ولكن من المؤكد والمؤلم أيضا أن كل الإرهابيين تقريبا مسلمون".

وأضاف: "بالتأكيد، لا يشرفنا أن ينتسب إلينا من يحتجز تلاميذ فى مدرسة، ومن يختطف صحافيين، ومن يقتل مدنيين، ومن يفجر حافلات مهما كانت الآلام التى يعاني منها المنتقمون. هؤلاء هم من شوهوا وأساؤوا إلى الإسلام".

فى المقتبس السابق ما يكشف عن السمات الفكرية الرئيسية لعبد الرحمن الراشد، فيما يتعلق بقضية الإرهاب فى عالمنا المعاصر:

الملمح الأول: أن الإرهاب ليس صفة ملازمة للمسلمين، فالأغلبية العظمى منهم ترفض الإرهاب وتدينه.

الملمح الثاني: الحقيقة المؤسفة، التى لا مهرب من الاعتراف بها، مفادها أن معظم الإرهابيين المعاصرين ينتسبون إلي الإسلام.

الملمح الثالث: تتويج الملمحين السابقين، أن من يمارسون الإرهاب عمليا، ويحبذونه، فكريا، باسم الإسلام، هم فى حقيقة الأمر يشوهون الإسلام ويسيئون إليه.

الأفكار السابقة، الواردة فى عمود صحفي للأستاذ الراشد فى جريدة "الشرق الأوسط"، تمثل نواة مهمة للتوجه السياسي والفكري، ومن ثم الإعلامي، الذي تتبناه قناة "العربية": الإرهاب ليس إسلاميا، لكن المسلمين هم القائمون بالأغلب الأعم من العمليات الإرهابية، وبمثل هذه العمليات يشوهون الإسلام ويقدمون عنه صورة نمطية سلبية. لابد – إذن – من التصدي لهم على كافة الأصعدة، ومثل هذه المواجهة، العقلية العلمية دون إنشائية أو عاطفية، هي فى جوهرها دفاع عن حقيقة الإسلام من ناحية، وتشبث بحياة تخلو من الإرهاب والعنف من ناحية أخرى.

ضد التطرف :

يقول التحقيق المنشور فى مجلة "نيويورك تايمز":

"بالنسبة لعبد الرحمن الراشد، التحدي الذي يواجهه هو أكبر بكثير من تجديد قناة تليفزيونية فقط. هدفه هو تشجيع نوع جديد من الحوار بين العرب، وخلق مكان للأفكار المعتدلة والمتحررة للمشاركة فى النقاش، وفى عملية إنقاذ العالم العربي من نفسه".

الإطار العام الذي يحكم الرؤية الفكرية الإستراتيجية: تشجيع الحوار البناء بين العرب، على أرضية الاعتدال والتحرر، بهدف الخلاص من الهموم الرئيسية التى تهدد المستقبل العربي، ممثلة فى التطرف الفكري والعنف.

أي دور يمكن أن يلعبه الإعلام بشكل عام، والإعلام التليفزيوني الفضائي على وجه التحديد، فى نشر الوعي الحقيقي أو الوعي الزائف؟ يكشف الراشد عن إدراكه لخطورة المؤثر الإعلامي عندما يقول فى التحقيق:

قال لي "يصبح الناس راديكاليين لأن التطرف يمجد على التليفزيون. إذا ألقيت خطابا متطرفا فى مسجد، فإنه يصل إلى ٥٠ شخصا. لكن هل تعرف كم من الناس يمكن أن تصل لهم رسالة تبث على التليفزيون؟".

تمجيد التطرف وتحبيذ العنف، كما يتجلى فى بعض القنوات الفضائية، يخلق مناخا عاما يهيئ التربة العربية والإسلامية للتطرف والعنف. وإذا كانت خطب المساجد وأشرطة الكاسيت والكتب هي الأسلحة القديمة المحدودة التأثير القليلة الجمهور، فإن السلاح الجديد الفعال هو التليفزيون الذي يتجاوز الواقع المحلي، ويرتفع تأثيره من خانة المئات والألوف إلى خانة الملايين. وإذا كانت بعض القنوات تمجد التطرف وتحبذ العنف، فإن البديل الإعلامي لا يتمثل فى تسفيه التطرف وإدانة العنف فحسب، بل لابد أيضا استثمار إمكانات الوسيلة الإعلامية ذات النفوذ والتأثير بشكل غير مباشر:

"عندما وصل الراشد إلى قناة "العربية"، عين مديرا جديدا للأخبار، وتعاقد مع رئيس تحرير جديد. ويتقاسم الرجال الثلاثة رؤية مشتركة للمحطة تشمل عنفا أقل وتعريفا أوسع للخبر وما ينبغي أن يشد انتباه وعواطف مشاهديهم.

اهتمت هذه القيادة الثلاثية الجديدة بتناول قصص جرائم الشرف والعنف ضد النساء فى البلدان العربية، وهي ظاهرة واسعة الانتشار نادرا ما تتطرق إليها وسائل الإعلام العربية الأخرى. كما اهتم الراشد ومحرروه الكبار بالمواضيع الخفيفة عن الحياة اليومية – نوع البرامج غير السياسية التى تملأ البرامج اليومية للقنوات الإخبارية الغربية".

الحياة اليومية مليئة بالمفردات الجديرة بالاهتمام، بعيدا عن دائرة الإرهاب والعنف، وتركيز الاهتمام على القضايا المهملة والمسكوت عنها ليس نجاحا مهنيا بقدر ما هو نجاح سياسي وفكري؛ لأنه يرسخ معنى مختلفا للبرنامج الإخباري من ناحية، ولأنه يرتفع بمعنى الإثارة وتهييج العواطف والمشاعر إلى أفق جديد يختلف عن الدعاية الدائمة للعنف والإرهاب كما هو الحال فى قنوات أخرى.

ويكشف تحقيق المجلة الأمريكية عن إدراك عبد الرحمن الراشد لخطأ وخطورة الاتجاه الذي تسير فيه القناة المنافسة، ووعيه بضرورة التصدي والارتفاع بالوعي العام من خلال التركيز على الحقائق والمعلومات، وبها يتحرر العقل:

"ووراء انتقاد الراشد للاتجاه المتشدد يكمن الدافع الرئيسي الذي يثير غضبه العارم وهو الإعلام العربي. لم يرغب فى الحديث عن "الجزيرة" سلبا ولكن فى الأسابيع الثلاثة التى قضيتها فى الآونة الأخيرة مع إدارة القناة والعاملين فيها أوضح أن الجهة المنافسة له لا تسير فقط فى الاتجاه الخاطئ وإنما هي خطيرة أيضا".

وأضاف "أعتقد أن الناس سيصدرون أحكاما جيدة لو توفرت لهم المعلومات الصحيحة والكاملة. إن ما ينقصنا الآن هو الحقيقة والمعلومات. وبعد أن يتحقق ذلك سيكون مجتمعنا سويا. المجتمع الآن ليس سليم العقل بسبب الأسلوب الذي تنقل به المعلومات للأفراد".

غياب العقل مبرر بضبابية المعلومات والحقائق، وبالأسلوب الذي يتم من خلاله توصيل وعرض المتاح من البيانات. ولاشك أن التليفزيون هو الأداة الأكثر فاعلية فى التأثير على المنطقة العربية، سلبا وإيجابا، فهو قادر على تشكيل القيم والأفكار، ومن ثم التأثير على السلوك والممارسات. التليفزيون فى ذاته مجرد أداة، والخطورة كلها تتركز فى القائمين على الإدارة والتوجيه واختيار الرسالة التى يستهدفون تقديمها، وقد قال الراشد عبارة دالة وهو يتحدث عن العربية "أجلس على مفاعل نووي. يمكن أن ينتج الكهرباء ويضيء مدينة، أو يمكن أن يسبب الدمار. الأمر يتوقف على الشخص الذي يجلس فوق الكرسي حيث أجلس ليقرر أي الطريقين سيسلك".

التشبيه بالغ الدلالة والعمق، فالإعلام مثل القوة النووية، يمكن أن يكون نعمة أو نقمة، ويمكن له أن يضيء أو يدمر. الأمر كله مردود إلى من يملك سلطة اتخاذ القرار: هل ينحاز إلى الخراب والدمار وتغييب الوعي، أم يراود الإضاءة والتنوير والانتصار للعقل؟!.

الموقف من قناة "الجزيرة" ليس شخصيا أو تنافسيا، لكنه اختلاف فكري ومهني جذري. يعتقد وليم روغ، السفير الأمريكي السابق والأستاذ المساعد فى معهد الشرق الأوسط، أن الحوار على قناة "الجزيرة"، وإن كان ساخنا، فهو يفتح المجال لمناقشات ترغم السلطات على أن تظهر مزيدا من المسئولية:

ولكنه يقول إن اهتمام الجزيرة بالقضايا مثار الجدل ومختلف وجهات النظر لم يترجم إلى سياسة ديمقراطية. يقول "هذه الخطوة التالية لم تؤخذ كما يمكن أن تتوقع بمعنى إدخال الديمقراطية على العالم العربي. الشعوب لم تكوّن أحزابا سياسية ومنظمات تهتم بقضايا معينة. لا يمكن أن تفترض أنه لمجرد تعالي الأصوات بكثرة تكون هناك كثير من الشفافية والمساءلة".

يقول عبد الله شلايفر مدير مركز Adham لصحافة التليفزيون فى الجامعة الأمريكية فى القاهرة إن جانبا من الديمقراطية الصحفية يتمثل فى وجود بعض القواعد الأساسية للمناقشة. ويقول "إن خطر صحافة تبتعد عن الأسلوب الاستبدادي هو أسلوب الإثارة، وهذا يتحقق أحيانا فى "الجزيرة". هناك أشياء تقال فى هذه القناة لا يمكن أن تقال أبدا فى إنجلترا وأمريكا؛ لأنها تدخل أرضا مجهولة، ومن ثم ليس هناك محرمات ولا قذف أو تشهير، ليس هناك حدود لما يقوله أحد". واستطرد شلايفر قائلا: إنه يأمل أن يكون نهج العربية الأكثر حذرا والأكثر احترافا الثقل الموازن أمام قناة الجزيرة:

"ربما يبرهن ذلك على إمكان تحقق صحافة حرة ولكن بسلوكيات حسنة، والديمقراطية تتوقف على حسن السلوك".

الشكل الديمقراطي لا يعادل الديمقراطية، والاختلاف الشرس الذي يشبه صراع الديوك لا يقود إلى تشكيل الإحساس بضرورة وأهمية الاختيار الديمقراطي، بل إنه قد يؤدي إلى صورة عكسية منفرة. المسألة، إعلاميا وفكريا، ليست فى الأحداث العالمية والشعارات الرنانة والعبارات العاطفية الإنشائية التى تدعو إلى ما يستحيل تنفيذه.

الانحياز إلى العاطفة قد يحقق المزيد من الشهرة والشعبية، لكنه – فى الوقت نفسه – يرادف التدمير والخراب؛ لأنه بمثابة السير فى الطريق الخطأ. من المنطقي أن تتجمع الكتلة الجماهيرية حول الإثارة، لكنه تجمع لا يفضي إلى شيء إلا التنفيس والمتعة الرخيصة، والأخطر من ذلك هو تكريس العداء للعقل والتفكير العقلاني.

المستهدف فى قناة "العربية": إعلام جديد حسن السلوك، أي إنه إعلام شجاع بلا وقاحة، جماهيري بلا مغازلة رخيصة للعواطف، منتصر للعقل والتفكير المنطقي، منحاز إلى المستقبل الذي يخلو من الإرهاب والتطرف والعنف.

السعي إلى تحقيق هذه الرسالة المتوازنة لا يخلو من صعوبات بطبيعة الحال، فالمناخ العام ليس ديمقراطيا متسامحا، والصدام وارد مع بعض الحكومات والأنظمة العربية التى ترفض التغطية الموضوعية الحرة لبعض قضاياها. إن النجاح الإعلامي ليس رهينا بالأجهزة الحديثة والبشر الأكفاء المؤهلين فحسب، لكنه يتطلب – فى المقام الأول – مناخا داعما للحرية والحق فى الحصول على المعلومات، ولا مبالغة إذا قيل بوجود صعوبات جمة فى الوصول إلى بدهيات لا ضرر منها:

"حتى المعلومة الأساسية مثل الإحصاءات السكانية تعامل وكأنها سر من أسرار الدولة ومن المستحيل تقريبا أن تقوم أي قناة بتغطية مرتبطة بالعمل الداخلي للحكومات العربية وكيف يتم رصد الميزانيات أو اختيار القادة".

وفضلا عن المناخ الحكومي الرسمي غير الإيجابي، فإن التهديد الأكثر خطورة يأتي من جانب القوى الظلامية والإرهابية التى لا تتقن إلا لغة العنف والقوة والسلاح، وقد تعرضت قناة "العربية" لكثير من التهديدات، وظهرت بيانات منسوبة إلى بعض الجماعات الإسلامية، تتهم القناة بالانحياز إلى الحكومة العراقية، وتطالب بتغيير اسمها إلى "العبرية"!.

يتحدث باتيز، العضو فى مجلس حكام الإذاعة والتليفزيون، والذي كان الـرأس المفكرة لقناة "الحرة" وإذاعة "سوا"، عن وسائل الإعلام العربية باعتبار أنهـا "شـيء جامد"، ويشرح فكرته هذه بشيء من الاستفاضة عندما يقول:

"الجزيرة والعربية تجاوزتا الأدوار التقليدية لوسائل الإعلام. فهما فـى الواقـع تعملان كحركتين شبه سياسيتين وتعكسان اثنتين من السمات المميزة للشرق الأوسـط اليوم: إحداهما هي الافتقار إلى الحرية السياسية وحرية الصحافة.

والأخرى هي القومية العربية. والشبكات العربية تعبر عن الاثنتـين". قـال إن الجزيرة والعربية تفعلان ذلك بتغطية أخبار تحظرها الأنظمة العربية وأنباء "تثير بشدة عواطف العرب"، وبالتحديد النزاع الإسرائيلي الفلسطيني وحرب العراق.

وفى صفوف الخبراء الذين يتابعون وسائل الإعلام العزبية، هناك جدل عما إذا كان هذا النوع من التغطية جيدا أم سيئا بالنسبة لإمكانات الديمقراطيـة فـى الـشرق الأوسط. يتفق مارك لينش الأستاذ المساعد للعلوم السياسية فى "ويليامز كولـدج" فـى الرأي مع نورمان باتيز على أن المحطات الفضائية تركز على القضايا الساخنة".

لعل "تجاوز الأدوار التقليدية لوسائل الإعلام العربية" هو المشترك الوحيد بـين قناتي "الجزيرة" و"العربية"، وبفضل هذا التجاوز المشترك تحولت القناتان إلى ما يشبه الحركات السياسية، حيث يتجاوز الدور عملية الإعلام إلى التعبيـر عـن احتياجـات سياسية وفكرية لا تستطيع الأنظمة أن تلبيها. القناتان تناقشان القضايا الساخنة، لكـن السؤال الجدير بالاهتمام هو: كيف تتم هذه المناقشة؟ وعبر أي منهج؟!. هـل تقـود المعالجة إلى تعميق الديمقراطية واكتساب أرض جديدة لها، أم تفـضي إلـى تـشويه مفهومها وتنفير الناس منها؟!.

عبد الرحمن الراشد- كما يشير التحقيق الذي نحن بصدده- يسعى إلى المـزج بين الإطارين السياسي والمهني، ذلك أن الفكرة السياسية الناضجة لن يتأتي وصـولها وتأثيرها بمعزل عن الأسلوب المهني المتميز القادر على التمرير والتواصل.

يقول الراشد إنه التحق بوظيفته فى "العربية" لأنه يعتقد "أن العالم العربي غيـر قادر على أن يصبح معتدلا وحرا كما ينبغي؛ لأنه لا يحصل على معلومات صحيحة".

المعلومات الصحيحة، الدقيقة الموثقة، هي المدخل الذي ينبغي أن يسبق عملية التحليل السياسي والفكري. الصعوبة الحقيقية أن تواجه من يؤمنون بمنهج مختلف، ويضعون "المعلومة" فى درجة تالية للرأي والموقف السياسي.

لاشك أن قناة "العربية" تحقق نجاحا، وبعد عام واحد من إنشائها، استحوذت على حصة من السوق تثير الإعجاب، ففي استطلاع مؤسسة الزغبي إنترناشيونال وجامعة ميريلاند، الذي أشرنا إليه من قبل: "ذكر ٣٩ فى المائة من المشاهدين أنهم يشاهدون العربية يوميا تقريبا".

وكثير من خبراء الإعلام، ينتصرون لقناة "العربية" على "الجزيرة" مهنيا، ذلك أن:

"القيم الإنتاجية المتقدمة تميز قناة "العربية" عن قنوات إخبارية عربية أخرى. فتصميماتها وصورها لها مظهر ذو تقنية عالية ونشراتها الإخبارية سريعة، حيث لا يزيد كل موضوع عن دقيقتين ونصف الدقيقة، كما أن إيقاعا موسيقيا دراميا يصاحب هذه النشرات.

وفى المقارنة يجلس مذيعو "الجزيرة" خلف مكتب ووراءهم خلفية مملة ذات بعدين تشبه إلى حد ما خلفية برنامج إخباري أمريكي فى السبعينيات بينما تذيع "العربية" بثها من غرفة أخبار تتميز بالحداثة ذات تصميم ثلاثي الأبعاد من المعدن الفضي والزجاج".

على ضوء ما سبق، فإن ما يميز قناة "العربية" هو المعالجة العقلانية سياسيا، المحترفة مهنيا، الأكثر شمولا وجذرية، لمفهوم الإرهاب وتاريخه وحاضره ومستقبله. وإذا كان إنشاء المحطة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر بأكثر من عام ونصف، قد حال دون تغطيتها المباشرة للحدث، فإنها قدمت معالجات بالغة الأهمية لما ترتب على التفجيرات من تداعيات، ولعل فى التوقف أمام أسلوبها فى التغطية ما يلقي الضوء ساطعا على المنهج المختلف الذي تتسم به القناة.

تفجيرات ١١ سبتمبر:

قدمت قناة "العربية" عديدا من المعالجات الجادة لحادث ١١ سبتمبر وما ترتب عليه من تداعيات، وانصب جانب كبير من اهتمامها بتنظيم القاعدة، على اعتبار أنه العنصر الفاعل فى تنفيذ العملية من ناحية، وفى قيادة "حلف الإرهاب" بعدها من ناحية أخرى.

وخلال الفترة من أول يونيو "حزيران" سنة ٢٠٠٤، إلى منتصف سبتمبر "أيلول" ٢٠٠٦، أي ما يزيد عن عامين، يمكن رصد مجموعة من المعالجات العميقة الجادة، يتمثل أهمها فيما يلي:

التاريخ	السنة	اسم البرنامج	عنوان المعالجة
١-٦	٢٠٠٤	تحت الضوء	العراق وتنظيم القاعدة
٧-١٠	٢٠٠٤	مهمة خاصة	أفغانستان بعد ثلاث سنوات
١٠-٥	٢٠٠٥	تحت الضوء	هل بدأ تنظيم القاعدة مرحلة الاحتضار؟
٢٩-٥	٢٠٠٥	مهمة خاصة	مشرف القاعدة
٢-٧	٢٠٠٥	العين الثالثة	الجماعات الاستشهادية وأسباب نشوئها
٧-٧	٢٠٠٥	مهمة خاصة	لندنستان.. أبو حمزة المصري
١٥-١٠	٢٠٠٥	العين الثالثة	وزير إعلام القاعدة بالسعودية
٥-٧	٢٠٠٦	بانوراما	إغلاق وحدة تعقب بن لادن
١٤-٧	٢٠٠٦	العين الثالثة	الموت فى غوانتنامو
١٣-٩	٢٠٠٦	بانوراما	مستقبل القاعدة وعالمها
١٤-٩	٢٠٠٦	مشاهد وآراء	الفيلم الوثائقي خلية هامبورغ
١٥-٩	٢٠٠٦	صناعة الموت	من التجنيد إلى التوبة

على ضوء الجدول السابق وما يتضمنه من برامج، يمكن التمييز بين ثلاثة توجهات رئيسية تحكم نظرة قناة "العربية" فى التعامل مع حادث ١١ سبتمبر وتنظيم القاعدة، ومع مجمل الفكرة الإرهابية بشكل عام:

التوجه الأول يتعلق بأسباب وجذور الظاهرة الإرهابية، فهي لم تنشأ من فراغ، وهو ما يمكن التعرف عليه من خلال ثلاث من الحلقات التى أشرنا إليها، وهي بترتيب إذاعتها:

- الجماعات الاستشهادية وأسباب نشوئها "٢-٧-٢٠٠٥"
- الفيلم الوثائقي خلية هامبورغ "١٤-٩-٢٠٠٦"
- من التجنيد إلى التوبة "١٥-٩-٢٠٠٦"

التوجه الثاني يتمثل فى الانتشار المكاني لجغرافية الإرهاب، حيث تمتد عملياته وتداعياته ومؤثراته لتشمل بلدانا عدة، مثل أفغانستان وباكستان والعراق والسعودية والمملكة المتحدة، وهو ما يتجسد فى المعالجات التى تقدمها الحلقات التالية:

- العراق وتنظيم القاعدة "١-٦-٢٠٠٤"
- أفغانستان بعد ثلاث سنوات "٧-١٠-٢٠٠٤"
- مشرف والقاعدة "٢٩-٥-٢٠٠٥"
- لندنستان.. أبو حمزة المصري "٧-٧-٢٠٠٥"
- وزير إعلام القاعدة بالسعودية "١٥-١٠-٢٠٠٥"

أما التوجه الثالث فيرتبط بالاهتمام الذي تبديه "العربية" بمستقبل الإرهاب، وهو ما نجده فى حلقات:

- هل بدأ تنظيم القاعدة مرحلة الاحتضار؟ "١٠-٥-٢٠٠٥"
- إغلاق وحدة تعقب بن لادن "٥-٧-٢٠٠٦"
- الموت فى غوانتنامو "١٤-٧-٢٠٠٦"
- مستقبل القاعدة وعالمها "١٣-٩-٢٠٠٦"

الجذور والأسباب:

يوم السبت، ٢-٧-٢٠٠٥، أذاعت قناة "العربية" حلقة من برنامج "العين الثالثة"، الذي يقدمه أحمد عبد الله، وخصص البرنامج جانبا لمناقشة قضية "الجماعات الاستشهادية وأسباب نشوئها".

القضية التى يناقشها البرنامج ترتبط بارتفاع نبرة التهديدات الأمريكية الموجهة إلى إيران، وهو ما دفع "حركة الاستشهاديين" الإيرانية إلى الإعلان عن فتح باب التطوع لاستقبال المزيد من الراغبين فى مواجهة التهديدات الأمريكية، فالحركة فى مجملها ليست إلا سلاحاً مباشراً لتهديد مصالح الولايات المتحدة عند الحاجة.

السؤال الجوهري الذي تسعى الحلقة إلى الإجابة عنه، يتمثل فى الطرح الذي يقدمه أحمد عبد الله فى تقديمه للفترة التى تناقش قضية الاستشهاديين، ويتساءل فيه:

"هل تمثل الحركة نوعا من التطرف الفكري العقائدي، أم أنها نتاج طبيعي لما يعتبره البعض تطرفا أمريكيا فى التعامل مع القضايا الإسلامية؟".

ما الأسباب التى تدفع المسلمين والمسلمات، من أبناء الشعب الإيراني وغيرهم من الشعوب الإسلامية، إلى تنفيذ مثل هذه العمليات الاستشهادية ضد أعدائهم؟!.

واحدة من الاستشهاديات الإيرانيات، تقول ما نصه:

"استشهادية: نحن مسلمون بالدرجة الأولى، ومن واجبنا الدفاع عن إخواننا وأخواتنا فى كل أنحاء العالم ولا نحتاج إلى إذن من أي أحد، فهذا مرتبط بواجبنا ومسؤوليتنا الدينية، هذه خياراتنا ولا خوف لدينا، ونحن متمسكون بتوصيات قائدنا الراحل الإمام الخميني".

العمليات الاستشهادية صناعة إيرانية فى المقام الأول، وتتكئ على توصية واضحة صريحة من الزعيم الإيراني آية الله الخوميني، لكنها توسعت وتشعبت لتشمل كافة أرجاء العالم الإسلامي، سنيا كان أم شيعيا، وفى مواجهة أعداء الداخل والخارج

معا. الكلمات التى تقولها الاستشهادية الإيرانية تكشف عن إيمانها الراسخ بضرورة الدفاع عن الإسلام والمسلمين، وبعد أن ينتهي تصريحها الموجز الدال، يقدم البرنامج ما يؤكد أن الظاهرة الاستشهادية ليست استثناء فرديا، بقدر ما هي ظاهرة موضوعية ذات إطار مؤسسي قادر على الحشد وتجنيد الأنصار من الرجال والنساء:

"حشد كبير من النساء المنتقبات الاستشهاديات يرددن وراء قائدهم:

لا إله إلا الله.. محمد رسول الله.. لا إله إلا الله.. محمد رسول الله".

الاستشهادية التى قدمها البرنامج من قبل ليست إلا واحدة من هذا الحشد الحافل الذي يتسم بالكثير من الحماس، ويأتي التعليق الصوتي متسما بالموضوعية والاعتدال والحياد، فهو لا يتبني موقفا إيجابيا أو سلبيا من الظاهرة، لا يهلل لها مشيدا أو يتحامل عليها مدينا، لكنه يطرح الفكرة المسيطرة على المؤمنين بها والمؤمنات، ويشير إلى بعض الملابسات المحيطة بها، وما قد تسفر عنه من أخطار:

"حشد كبير من النساء المنتقبات الاستشهاديات يرددن وراء قائدهم:

لا إله إلا الله.. محمد رسول الله.. لا إله إلا الله.. محمد رسول الله

. التعليق الصوتي: نساء صغيرات فى السن تركن الحياة بمغرياتها واخترن الطريق الصعب، نعم اخترن الشهادة دربا لتحرير الأراضي الإسلامية، هكذا يقلن.

٤٠ ألف قنبلة موقوتة فى إيران، هذا هو عدد المتطوعين حتى الآن، وباب الانتساب ما زال مفتوحا، "لا فرق بين رجل وامرأة، ولا بين سني ولا شيعي، فكلنا فداء للإسلام" هذا ما يرددونه، هي حركة الاستشهاديين التى مازال الغموض يلف أهدافها وتركيبتها التنظيمية، رفضوا الإفصاح عن تفاصيل أكثر، لكنهم لم يخفوا تصميمهم على التضحية بحياتهم، والسبب ما فعلته أمريكا فى الأماكن المقدسة فى النجف وكربلاء".

منشأ العمليات الاستشهادية إيراني شيعي، والامتداد يتشعب إلى أماكن جغرافية متنوعة خارج إيران، ويضم منتسبين إلى مذاهب تختلف مع الشيعة وتعاديها.

يمكن التأريخ لميلاد الظاهرة بالثورة التى قادها الإمام الخميني، وهذا المعنى هو ما يؤكده تعليق صوتي يكشف عن الأسس الفكرية والفقهية للنزعة الاستشهادية:

"التعليق الصوتي: الإمام الخميني قائد الثورة الإسلامية فى إيران كان الملهم الأول لتلك الحركة، فوصيته واضحة إذا اقتحم العدو أراضي إسلامية فعلى كل مسلم الدفاع عن تلك الأراضي بأية وسيلة ممكنة، وهذا يعني التضحية بالحياة وبالممتلكات".

هذه الحركة الاستشهادية، التى يتحمس للانخراط فى صفوفها آلاف من الشباب المسلم المؤمن بعدالة قضيته، واليائس من العثور على بديل يصحح المسار ويعيد الحقوق المسلوبة من الشعوب الإسلامية: هل هي حكومية ملتزمة بفلسفة وتوجه النظام الإيراني، أم أنها تتسم بقدر من الاستقلالية والخصوصية؟!. الإجابة عن هذا السؤال تبدو ضرورية لإدراك أبعاد الظاهرة، ذلك أن المستعد للموت لا يتحتم أن يكون ملتزما حرفيا بالتنظيم الذي يتبعه ويوجهه، ومن هنا تنبع خطورة الانفلات الذى لا يخدم القضايا المراد الدفاع عنها بقدر ما يعقدها. وفقا للأرقام التى يعلن عنها البرنامج، فإن إيران وحدها تضم أربعين ألف قنبلة موقوتة، فكيف بآلاف آخرين فى بلدان إسلامية خارج إيران؟!. إلى أين تتجه هذه القنابل الموقوتة، ومن الذي يتحكم فيها، وما درجة إيمانها وارتباطها بفكرة النظام والالتزام الحزبي أو التنظيمي؟!.

يقول التعليق الصوتي: مسلطا الضوء على طبيعة العلاقة بين الحركة الاستشهادية والنظام الحاكم فى إيران:

"التعليق الصوتي: الحركة تنفي أي علاقة لها بالحكومة الإيرانية وتعتبر نفسها منظمة مستقلة، ورغم أن الحكومة تبدي فى بعض الأحيان تحفظها على حركة الاستشهاديين وعملياتهم فإن الحركة استخدمت مباني حكومية خلال تدريباتها والبعض من حرس الثورة دافعوا عن تلك الحركة فى العلن".

الموقف الحكومي المعلن منطقي ومتوقع، واستخدام المنشآت الحكومية في العمليات التدريبية دليل عملي على التداخل الذي لا يمكن إنكاره. وعلى الرغم من أن الدكتور حميد رضا حاجي بابائي، عضو هيئة الرئاسة فى مجلس الشورى الإسلامي الإيراني، يرى أن الحركة شعبية ذات مواقف مستقلة، وأن الحكومة الإيرانية ديمقراطية تأخذ بالأساليب الدبلوماسية، فإنه يعود ليكشف عن تعاطف صريح مع الحركة، وهو ما ينم عن التقارب الذي يشبه الامتزاج:

"الدكتور حميد رضا حاجي بابائي (عضو هيئة الرئاسة فى مجلس الشورى الإسلامي): الاستشهاديون يمكن أن يكونوا فى أي بلد كان وهم فى إيران لديهم عقائدهم المقدسة بالنسبة إليهم، وهم حركة شعبية لا يمكن أن تكون بشكل تنظيم، وإيران استطاعت حتى الآن بتعاملها الديمقراطي والدبلوماسي أن تجاري جميع الدول وتحفظ مكانتها رغم المعاملة العدائية من قبل أمريكا، إن تعامل أمريكا الظالم وغير الإنساني وغير الديمقراطي خلال السنوات الماضية أدى إلى إيجاد وخلق حركات الاستشهاديين فى أي مكان".

يتلقى هؤلاء الاستشهاديون دروسا نظرية وتدريبات عملية، ويرى المسئولون عن إعدادهم أن الأمر لا يتطلب إلا أياما معدودات لتهيئة المتطوعين. لا شك أن السر فى ذلك يعود إلى طبيعة النشاط الذي يقوم به الاستشهادي، فهو لا يخوض معركة تقليدية فى مواجهة العدو، ولا يحتاج إلى مهارات بدنية أو تعلم الفنون القتالية واستخدام الأسلحة بمختلف أنواعها. الأمر أبسط من ذلك بكثير، فليس مطلوبا إلا ترسيخ فكرة الإيمان بالموت فى سبيل الفكرة، وعندها لا يحتاج الاستشهادي إلى سلاح، فهو نفسه يتحول إلى أداة وسلاح!.

يفكر الإيرانيون فى إرسال كتائب استشهادية خارج حدود بلادهم، لكنهم لا ينفون وجود علاقة وثيقة مع حركتي "حماس" و"الجهاد الإسلامي" في فلسطين. والمستخلص من هذا التعاون، الذي تتجلى آثاره فى العمليات الاستشهادية التى يقوم

بها الفلسطينيون، تتم صياغته فى تعليق صوتي مهم، والسر فى أهميته أنه يتجاوز الانشغال بحقيقة الموقف الإيراني المعلن، إلى بلورة الفكرة المحورية التى لا تستدعي خلافا حقيقيا أو جدلا طويلا:

"التعليق الصوتي: سواء فى العراق أو فلسطين أو أي بلد إسلامي فإن حركة الاستشهاديين مستعدة للعمل، لكن الحكومة الإيرانية لا تعرف بعد ما إذا كانت حركة الاستشهاديين قد أرسلت بالفعل بعض المتطوعين إلى العراق أو حتى إلى إسرائيل".

العراق وفلسطين، ومجمل البلدان الإسلامية التى تعاني من المشاكل والاضطرابات والصراعات، تمثل تربة مناسبة لاستقبال الاستشهاديين، القادمين تطوعا من الخارج، أو الذين يتم إعدادهم فى الداخل عبر مؤسسات مماثلة. الظاهرة قائمة وآخذة فى الازدهار والانتشار ما بقيت الأسباب والجذور التى أفرزتها، ولعل أفضل صياغة لهذا المعنى هي ما نجده فى كلمات أحد المسئولين الإيرانيين، الذي لا يرى بديلا للمقاومة إلا الاستشهاد:

"على صمدي (مسؤول تنظيمي فى حركة الاستشهاديين): كما يرى الجميع فالصهاينة لا يعيرون أدنى أهمية للحكومات الإسلامية والعربية، وهم ماضون فى سياساتهم العدوانية لتحقيق أهدافهم، والعالم يعتبر جيش إسرائيل خامس قوة فى العالم وجهازها الأمني ثاني أقوى جهاز فى العالم، وبما أنهم لا يفهمون سوى لغة القوة فسلاحنا الجديد وهو العمليات الاستشهادية كفيل بتغيير جميع المعادلات".

تبدأ الحلقة بسؤال مهم يطرحه مقدم البرنامج: هل يمثل الاستشهاد تطرفا فكريا وعقائديا، أم أنه نتاج طبيعي لتطرف مضاد؟! الإجابة المستخلصة: قد تكون العمليات الاستشهادية نوعا من التطرف، لكنها بمثابة الإعلان عن يأس الشباب المسلم المؤمن بعدالة قضيته، اليأس من الإصلاح والإنصاف. وهذا هو السبب الأول الذي يكشف عن جذور الإرهاب: اليأس من العدل!.

إذا كان البرنامج السابق قد توقف أمام "اليأس من العدل"، على اعتبار أنه السبب الأكثر أهمية فى تفسير الظاهرة الإرهابية، وهو ما يتجلى فى العمليات الاستشهادية الآخذة فى الازدياد والانتشار، فإن برنامج "مشاهد وآراء"، الذي تقدمه ميسون صقر، قدم حلقة بالغة الأهمية، أذيعت يوم الخميس ٤-٩-٢٠٠٦، لمناقشة الفيلم الوثائقي "خلية هامبورغ".

استضاف البرنامج:

د. أحمد موصللي (خبير فى الحركات الإسلامية)

فارس بن حزام (صحفي متخصص فى شؤون القاعدة)

د. نصر عارف (أستاذ فى العلوم السياسية)

د. جمال عبد الجواد (رئيس وحدة العلاقات الدولية فى مركز الأهرام)

مشاري الذايدي (كاتب صحفي سعودي)

وتكشف مقدمة البرنامج عن الأهداف التى تراودها فى الحلقة، وهي الكشف عن مزيد من الأسرار المحيرة المتعلقة بأحداث سبتمبر ٢٠٠١، وهي الأحداث ذات الأثر المستمر على الرغم من مرور خمس سنوات على وقوعها. لقد أدت تفجيرات سبتمبر إلى وقوع آلاف الضحايا، بشكل مباشر، كما أنها قادت إلى تغيير ملموس فى السياسة الأمريكية، انعكس سلبا على العالمين العربي والإسلامي.

وعن هذا المعني تقول ميسون:

"هجمات الحادي عشر من سبتمبر أنجبت الحرب العالمية على الإرهاب، وحرب أفغانستان وحرب العراق، وحروب وأزمات أخرى عديدة فى أنحاء الكوكب تحديدا فى منطقتنا فى الشرق الأوسط، أقل ما يقال أننا فى الشرق الأوسط تحديدا تحت وهج وغبار هجمات الحادي عشر من سبتمبر التى غيرت أمريكا وغيرت العالم. ماذا جرى فعليا فى الحادي عشر من سبتمبر؟ وماذا حصل قبل ذلك اليوم؟ وكيف أثر على العالم وأمريكا والشرق الأوسط تحديدا؟"

الأسئلة الرئيسية فى الحلقة، هي:

- ماذا حدث فى الحادي عشر من سبتمبر؟
- ماذا حدث قبل الحادي عشر من سبتمبر؟
- كيف تأثر العالم بشكل عام، ومنطقة الشرق الأوسط على وجه التحديد، بتداعيات الحادي عشر من سبتمبر؟!.

البداية مع الدوافع الحقيقية والإستراتيجية التى أملت على تنظيم "القاعدة" تنفيذ الهجمة غير المسبوقة، والدكتور نصر عارف يتجاوز الأسباب التقليدية المعلنة، وهي الأكثر شيوعا وانتشارا، ليضع يده على الجوهر الإستراتيجي الذي يمنح الحادث مثل هذا الثقل والتأثير، فهو ليس حادثا عاديا عارضا، ولا يمكن التعامل معه بمنظور عادي سطحي.

يقول الدكتور نصر:

"إن أهداف القاعدة من وراء كل هذا هدفان أساسيان، الهدف الأول تعميق الصراع بين الإسلام والغرب؛ لأنهم رأوا أن العالم الإسلامي بدأ يدخل فى حالة من الميوعة وحالة من المهادنة وحالة من التقبل للثقافة الغربية والتبني لهذه الثقافة، وإزالة ما يرونه من قواعد الولاء والبراء وقواعد العداء مع الغرب والاختلاف بين الحضارات، فأرادوا أن يشعلوا هذا الصراع ويزكوا هذا الصراع من فترة إلى أخرى، وقد ساعدتهم السياسات الأميركية على تحقيق هذا الهدف، وحقق بنجاح باهر نتيجة للأخطاء المتوالية لهذه الإدارة، الهدف الثاني هو دفع الغرب للتخلي عن قيمه وتدميره اقتصاديا من الداخل، الغرب الآن بدأ يتخلى عن كثير من قيمه قيم حرية الأفراد الخصوصية الفردية".

المسألة إذن لا تتعلق بطرد قوات الاحتلال الأمريكية من جزيرة العرب، أو نصرة الإسلام والمسلمين، فالهدف الأساسي الكامن هو تأجيج الصراع بلا هوادة، واستثمار الأخطاء الأمريكية الفادحة لتحقيق مزيد من التراجع الذي يطول العرب والمسلمين من ناحية، والولايات المتحدة والغرب من ناحية أخرى.

ويضيف الدكتور أحمد موصللي بعدا جديدا فى التحليل، من منطلــق الرؤيــة نفسها، عندما يقول:

"د. أحمد موصللي: أعتقد أن رؤية القاعدة للصراع ما بين العــالم الإســلامي والغرب تتخطى الأمور السياسية العادية، بل هي تتجزأ أساسا فى رؤيتها للحــضارة الإسلامية وإلى الدرك الذي وصلت إليه هذه فى الحــضارة اليــوم، هــي تعتبــر أن الحضارة الغربية هي الحضارة التى أدت إلى زوال الخلاف الإسلامية، هي الحضارة التى قطعت أوصال العالم الإسلامي والعالم العربي، هي الحضارة التى خلقت جميــع أزمات المنطقة بما فيها الدول القائمة اليوم وحكامها وما إلى ذلك، الصراع بالنسبة للقاعدة مع العالم الغربي وحتى مع جزء كبير من العالم الإسلامي هو صراع دينــي حضاري ثقافي إيديولوجي سياسي اقتصادي اجتماعي وما إلى ذلك، وهــو مفتــوح على كل الأفق وليس له هدف واحد معين".

الترسيخ لفكرة التناقض الدائم والصراع الذي لا ينتهي هو الهدف، فلابد – من منظور القاعدة – أن يبقى الشرق شرقا والغرب غربا، وأن يكون المسلمون بمعــزل كامل عن المشاركة الإيجابية فى السياق الحضاري الذي يمثله الغرب. الفيلم الوثائقي الذي تناقشه الحلقة، يكشف عن محور جديد من أسباب وجذور الإرهاب، وحالة "زياد جراح"، التى تتناولها المعالجة فى الفيلم، تمثل نموذجا شائعا مكررا لآلاف من الشباب المسلم الممزق بين العقيدة الموروثة والمعطى الحضاري الغربي المختلف.

كيف تم تجنيد زياد جراح، وتحويله إلى أداة فى يد الإرهاب؟!. الإجابــة عــن السؤال المهم لا تتعلق بزياد وحده، ذلك أن الأمر ينطبق على آلاف غيره من الشباب، وثمة مقطع دال من الفيلم تعرضه الحلقة:

" [مقطع من الفيلم الوثائقي]

- ***لقد تعلمت فى مدرسة كاثوليكية، أنا مسلم على الأوراق لكن عائلتي ليست متدينة كثيرا..***

- *حسنا لكنك مسلم أليس كذلك؟*
- *أنا مسلم."*

إذا كان "اليأس من العدل" سببا جوهريا للإرهاب، فإن ازدواجية الثقافة والتنشئة هي سبب آخر لا يقل أهمية وخطورة. زياد وأمثاله لا ينبعون من فراغ، بل إن الدوافع الحقيقية لتحولهم وانقلابهم، ضد الحضارة الغربية التى يعيشون فيها، ذات أصول تاريخية قريبة، ولعل تجربة المفكر الإسلامي الإخواني سيد قطب، الذي أصابه تحول عميق بعد رحلته إلى الولايات المتحدة فى بدايات الخمسينيات من القرن العشرين، هي الدليل الأكبر على أن الاقتراب من الغرب لا يعني الذوبان فيه، بل إنه قد يكون من دواعي السخط والرفض. وعن هذه الفكرة يعبر الدكتور الموصللي بقوله:

"إذا أخذنا شخصا مثل سيد قطب هذا كان إنسانا متطورا جدا معتدلا جدا، انقلب على الحضارة الغربية عندما كان فى الولايات المتحدة الأمريكية، وكتب أهم كتبه فيما بعد حول جاهلية العالم، وحاكمية الله، والرؤية الأيدلوجية للحركات الإسلامية المتطرفة، أي إن جذور هذا الفكر ليس جذورا بعيدة عن الغرب، بل هي حسب المؤسس الأول لها برأيي يعني سيد قطب هي جذور تأسست من خلال رؤيته لعلاقة العالم الإسلامي مع العالم الغربي، وكيفية أن يعيش الفرد المسلم فى العالم الغربي".

ليس من تناقض بين الدافعين المتشابكين المتداخلين: اليأس من العدل، وصعوبة الاندماج الحضاري وليد الازدواجية والثنائية، وفى مقطع من الفيلم الوثائقي يكشف زياد عن الأفكار والهواجس التى تراود الملايين من أمثاله، ولا يملكون إلا البحث عن علاج، قد يكون بالعمليات الاستشهادية، أو عن طريق خطف الطائرات وتفجيرها!.

الانتقام لما يعانيه المسلمون من اضطهاد وظلم، فى أماكن شتى من العالم، هو الدافع الأكبر لوجود الإرهاب والعنف، فليس من سبيل آخر يتيح للشباب الغاضب أن يشعر بأنه أدى واجبه لنصره الإسلام وإخوانه من المسلمين:

" [مقطع من الفيلم الوثائقي]

رأيت الصفوف فى المدرسة رأيت الشبان المسلمين لم يكونوا جالسين على طاولاتهم وكتبهم أمامهم يتعلمون كما تتعلمون فى المدرسة، الشبان الذي رأيتهم فى كاراكاج كانوا ممدين على الأرض وحناجرهم مقطوعة، والنساء؟ لقد تعرضن للاغتصاب، رأيتهن بعدما انتهى الصرب منهم مقطعات إلى أشلاء، كانت نهودهن مقطوعة، رأيت جثثا ترمى فى الآبار، رأيت منازل المسلمين تحترق، سممت رائحتهم كانت مثل رائحة اللحم المطهو بالفرن، من ينكر أن هذه المحرقة الجماعية تحدث؟ المسلمون يذبحون فى كل مكان فى البوسنة والشيشان وأندونيسيا، العراق، كشمير، وفلسطين".

السؤال الذي تطرحه ميسون صقر، بعد المقطع السابق، بالغ الأهمية ومتنوع الإجابات: كيف يمكن لشخص أن يتصور أنه بعملية انتحارية يذهب من ورائها الأبرياء المدنيون، إن كانوا أجانب أو كانوا عربا، كيف له أن يتصور ذلك انتقاما للمسلمين المظلومين فى العالم؟!.

لا يمكن تفسير مثل هذه الأفعال بالمنطق التقليدي المألوف، وليس من تحليل يتوافق مع المنطق الخاص للإرهابيين والانتحاريين والاستشهاديين، إلا عبر إدراك فكرة اليأس من العدل، وصدمة التوافق الحضاري الضائع. إنهم يحتجون بطريقتهم الخاصة، ولا يفكرون إلا فى الانتقام المطلق غير المحسوب، ودون اهتمام بالتفكير فى جدواه وآثاره.

وتنتقل المناقشة إلى نقطة لا تقل أهمية: كيف للإرهاب أن يتماشى مع تعاليم الإسلام القائمة على التسامح؟!.

فى قنوات أخرى، تتبنى مناهج مضادة، يكون التبرير المطروح هو ازدياد حجم المظالم التى يعاني منها المسلمون، لكن الحلقة المهمة التى تقدمها "العربية" تتجاوز التسليم بفكرة "رد الفعل" التقليدي، وصولا إلى نقد مفهوم الخطاب الديني الذي يحكم تنظيم "القاعدة"، والتنظيمات والحركات المتشابهة، ويتحكم فى بناء النسق العام الذي

يوجههم ويدفعهم إلى ممارسات الإرهاب تحت مظلة وفطنة أنه التعبير الوحيد الصحيح عن فكرة "الجهاد" فى الإسلام، وأنه السبيل الوحيد لإثبات الوجود وأداء الواجب ونصرة العقيدة. على المشاهد أن يدرك حقيقة تغيب عن أذهان الكثيرين: الاتفاق على ظاهر القواعد الإسلامية، مثل التسامح والجهاد وغير ذلك من المصطلحات، لا يعني اتفاقا مماثلا على الفهم العملي لهذه القواعد والأسس:

"د. أحمد موصللي: طبعا يعني القاعدة والحركات المشابهة تعتبر أن القواعد الأساسية التى قام عليها الفكر الإسلامي السياسي القديم والمعاصر هي أفكار خاطئة، وبالتالي هي تعيد طرح صياغة جميع المفاهيم التى نتحدث عنها اليوم، مثلا على سبيل المثال هى تعتبر أن آيات الجهاد والقتال هي الحالة الدائمة مع الآخر، وأن حالات التسامح هي الاستثناء، بينما فى الفكر الإسلامي الفقهي التقليدي والإصلاحي اليوم يعتبر أن الأساس هو التسامح وحالة السلام، وأن الاستثناء هو القتال أو الجهاد، بالتالي القاعدة وحركات أخرى هى التي تقلب المقاييس رأسا على عقب وهي تؤسس على ذلك كما ذكر باستخدام آيات قرآنية معزولة عن سياقها التاريخي، معزولة عن تفسيراتها وعن واقع نزولها، وبالتالي هي تعيد تفسير الفكر الفقهي والسياسي الإسلامي من منظور الواقع الحاضر وتضع عليه الآيات القرآنية، بمعنى آخر أن رؤيتها للدين الإسلامي لا تنبع من فهم ديني معين بل بالعكس، أن الواقع هو الذى يفرض نفسه على الفكر الديني".

الطرح السابق يتجاوز مناقشة عملية إرهابية بعينها، مهما تكن خطورتها، إلى مواجهة الأساس الفكري والعقائدي الذي يهيئ المناخ والتربة للمزيد من العمليات. هل يمثل التسامح حالة استثنائية فى الإسلام، أم أنه الأساس الراسخ الذي يمثل الخروج عليه استثناء ونشازا؟!.

يقدم الفيلم الوثائقي، موضوع المناقشة فى الحلقة، نموذجا لآليات التعبئة والتحريض لدى تنظيم القاعدة، ومن ذلك ما نجده فى المقطع التالي:

" [مقطع من الفيلم الوثائقي]

- *هل تظن أنه سيصبح أخا صالحا؟*
- *من المبكر جدا معرفة ذلك.*
- *لا يزال مرتبكا.*
- *أول شيء علينا فعله هو إقناعهم بأن يضعوا الله في مركز حياتهم، بعدها سيصبحون مستعدين للتدريب."*

ما الذي يعنيه أن يكون الله مركزا للحياة؟، ومن الذي يحدد ما يريده الله وما يتحتم فعله للحصول على رضاه؟. عملية "غسيل المخ" التي يمارسها التنظيم، تنجح في إزالة حالة الارتباك التي يعانيها "الأخ الصالح" الجديد، والمعادلة التي يتم تقديمها بالغة البساطة: هل تكون مع الله أم ضده؟!. إذا كنت مع الله، فهذا يعني أن تكون معنا، وأن تطيع وتنفذ وتلتزم!.

ولعل أهم القضايا، التي تعرضت لها الحلقة، ويحتاج المشاهد العربي والمسلم إلى الوعي بحقيقة أبعادها، قضية تتعلق بالموقف من اليهود بشكل عام، والرد على ما أشيع من مسئوليتهم عن تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر، على اعتبار أن الأمر كله ليس إلا مؤامرة مدبرة بإتقان، ضد الإسلام والمسلمين، بقيادة اليهود. يقول مشاري الذايدي، نافيا فكرة المؤامرة اليهودية التي تعشش في أذهان الكثيرين، وتروج لها جهات سياسية وإعلامية:

"مشاري الذايدي: موضوع اليهود لا أعتقد أنه.. يعني هناك مثل عربي يقول إذا خرج السر عن اثنين افتضح ما بالك أن يخرج عن ٥٠٠٠ إنسان، يعني ٥٠٠٠ إنسان يتواطئون على وجود حدث من هذا النوع ويتفقون جملة ثم لا يتسرب، لا أعتقد أن هذا قابل للتصديق."

الترويج لخرافة "المؤامرة اليهودية" يشيع في أماكن أخرى، ويسهم في مزيد من الارتباك وخلط الأوراق، فالفرضية المطروحة أقرب إلى قصة بوليسية غير متقنة الصنع. المعالجة في "العربية" ترفع راية العقلانية والموضوعية، وفي هذا الإطار لا تكون تبرئة اليهود جريمة، بل إن الجريمة الحقيقية هي المبالغة في إظهار قوتهم وإضفاء سمات تنظيمية خارقة على تحركاتهم!.

القراءة السياسية الواعية المتزنة لا تنكر استفادة إسرائيل من أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وليس "اليهود" بشكل مطلق، لكن هذه الإفادة نتيجة منطقية لما فعلته "القاعدة"، وأحيت به مجموعة من المخاوف التى كانت قد أوشكت على التبخر والاندثار. ويكشف الدكتور نصر عارف عن هذه الأبعاد فى قوله:

"د. نصر عارف: هو بخصوص إسرائيل حقيقة الأمر النظر فى سياسة أو فى وضع إسرائيل فى الإستراتيجية الأمريكية سابقا كان لأهداف ثلاثة: أنها أقرب مكان للنفط وتأمينه، أنها تواجه القومية العربية المتطرفة، وأنها تواجه النفوذ الروسي، بعد انهيار القومية العربية وانتهائها وخروجها من العملية السياسية العربية بصورة قد تكون شاملة، وبعد انتهاء الاتحاد السوفيتي أصبح وضع إسرائيل وضعا حرجا جدا، جاءت أحداث سبتمبر لتعيد إحياء الدور الإسرائيلي، أنها تواجه الأصولية الإسلامية وتواجه التطرف والإرهاب..

ميسون عزام: إذن إسرائيل أنت تقول استفادت من هذه العلمية؟

د. نصر عارف: استفادت استفادة كبيرة جدا من هذا الحدث، واستطاعت بذكاء أن توظفه، ووظفت حتى مجرد صور لبعض الناس اللي كانوا فى فرح فى فلسطين لإثارة مشاعر العداء للفلسطينيين فى داخل أمريكان فوظفت هذا الحدث توظيفا أحيا دورها بالإستراتيجية الأميركية وأعاد الحيوية.."

العمليات الإرهابية – موضوعيا – تهدد استقرار واستمرار امتدادات النفط، والتطرف الإسلامي بديل أشد خطورة من تطرف القومية العربية، والاحتياج الأمريكي إلى إسرائيل يعود أقوى مما كان. هل يمكن اتهام اليهود بتدبير بعض الأفراح العربية المراهقة، احتفالا بتفجيرات الحادي عشر من سبتمبر، وهي المظاهر التى تم استثمارها إعلاميا لتكريس الصورة النمطية السلبية السائدة عن العرب والمسلمين؟!. قد تكون نظرية مريحة ولا تكلف من يتبنونها جهدا، لكنها وخيمة العواقب والنتائج، وتسهم فى تحقيق المزيد من النجاحات للتطرف والإرهاب.

هل ترسخ الإرهاب فى أعماق المجتمعات العربية والإسلامية، بحيث يتعايش معه المجتمع ويتقبله، بل يتجاوز ذلك إلى تأييده ودعمه؟!.

"صناعة الموت.. من التجنيد إلى التوبة"، عنوان الحلقة التى قدمتها ريما صالحة، وأذيعت يوم الجمعة ١٥-٩-٢٠٠٦. ضيفا الحلقة هما الدكتور يوسف العثيمين، الباحث فى شؤون الإرهاب، واللواء رؤوف المنادي، المساعد السابق لوزير الداخلية المصري.

فى تكثيف موجز، ومن خلال عبارات قصيرة محددة، تقدم ريما تصورها عن طبيعة الموضوع الذي تناقشه مع ضيفيها:

"ريما صالحة: الغموض، السرية، الكتمان، هذه هي بعض السمات المميزة لمجتمع الجماعات المتطرفة، وهي سمات تجعل من الصعب الدخول إلى هذا العالم، وتجعل من الصعب الخروج منه، فالدم هو الثمن الذي يدفعه من تقوده قدماه إلى هذا الطريق."

تسعى الحلقة إلى معايشة عالم الجماعات المتطرفة، والبحث عن إجابة لسؤال محير: كيف يلتقطون الشباب ويقنعونهم بأن دماء الأبرياء هي القربان الذي يوصلهم رأسا إلى الجنة؟!.

المحور الرئيسي السابق، يفتح الباب واسعا للتوقف أمام مجموعة من الأسئلة الفرعية المهمة، التى لا تكتمل الإجابة عن السؤال الرئيسي بمعزل عن التعرض لها والكشف عن خباياها:

- هل يعتمد تجنيد الأعضاء الجدد على العقل أم على العاطفة؟
- كيف يستثمر الإرهابيون وسائل الإعلام والدعاية لتحقيق أهدافهم؟
- أي الفئات العمرية هى المستهدفة فى عمليات التجنيد؟
- بأي أسلوب، علمي وعملي، يمكن أن تتم المواجهة الجادة لمشكلة إعادة تأهيل التائبين فى المجتمع؟!.

السؤال الأول يتعلق بفلسفة التجنيد: العقل أم العاطفة؟!. الإجابة التي يقدمها الدكتور العثيمين تجمع بين الفرضيتين فى إطار تكاملي مقنع، ويكشف عن المنهج السائد المتبع فى عمليات التجنيد هذه:

"د. يوسف العثيمين: هو فى الواقع أن العقل والعاطفة هما المدخلان للتجنيد، وطبعا لما أنا أقصد العقل أنا أعني تقديم وصفات جاهزة لإقناع هؤلاء الشباب بمشروعية المشروع الجهادي والأصولي والإرهابي الذي تتبناه جماعة القاعدة، وفي الحقيقة هو خطاب إسلامي ولكنه خارج عن السياق، عندما يتحدثون عن فضيلة الجهاد لا يفرقون بين ما يسمى جهاد الطلب وبين جهاد الدفع، ولا يفرقون بين المعاهد وغير المعاهد، ولا يفرقون بين أن تكون معتديا أو معتدى عليك، ولا يفرقون بين أن يكون دفاعا عن النفس وبين ما هو غير دفاع عن النفس، فأنا أعتقد أن الخطاب الذي تتبناه تلك الجماعات الإسلامية هو ليس جديدا، وإنما هو الذي خارج عن سياقه وخارج عما تواضعت عليه المؤسسة الدينية فى مشروعية الجهاد، ولهذا السبب خرج لهم ما يسمونهم بالشيوخ، هؤلاء المشايخ ما يسمى بمشايخ الصحوة هؤلاء هم الذين أنتجوا لنا خطابا دعويا متطرفا، حاولوا تجنيد هؤلاء الشباب من خلال مخاطبة عقولهم بما تحتويه الشريعة الإسلامية، ومخاطبة عواطفهم بما يتعرض له العالم الإسلامي من بعض المشاكل."

عملية تحريف عمدي واسعة النطاق لمقاصد الشريعة الإسلامية، والخطاب الجديد المشوة يتوجه إلى عقول لا تملك المؤهلات القادرة على التعامل النقدي مع ما يتم تقديمه باعتباره الموقف الإسلامي الصحيح. هذه القشرة العقائدية بمثابة الزاد الهش الذي يخاطب عقولا محددة الإدراك، أما الإطار العاطفي فيتكئ على معطيات الواقع المليء بالمظالم والمشاكل. هذا المنتج الملموس، بكل ما فيه من شحنات عاطفية، يتكفل بسد الثغرات التى يتضمنها الخطاب العقلي، ولذلك يتشبث الإرهابي الذي تم تجنيده بما يعتقد أنه دور جهادي مقدس، ويتغافل عن التفاصيل الدقيقة المهمة التى لا يعرف شيئا عنها، ويسعى مجندوه إلى صرف أنظاره عن التفكير فيها.

من هنا يظهر السؤال الثاني، عن الدور الذي تلعبه الدعاية ووسائل الإعلام لإضفاء هالة من القداسة والمجد على من يتوجهون بإرادتهم إلى الموت، وتتحول هذه الطقوس إلى أداه فعالة فى استقطاب المزيد من المجندين.

يقدم البرنامج تسجيلا نادرا لزفة سابقة لإحدى العمليات، عملية المحيا. على حامد المعبدي الحربي، المولود عام ١٩٧٦، وناصر عبد الله ناصر السياري، المولود عام ١٩٧٥، هما من قاما بتنفيذ العملية الانتحارية عام ٢٠٠٣. كلاهما دون الثلاثين عند تنفيذ العملية التى يتم الاحتفال بها قبل وقوعها، وكلاهما يعود ارتباطه بالتنظيم الإرهابي إلى مطلع العشرينيات من عمره.

السؤال الذي تطرحه ريما صالحة: هل يحتاج من يقومون بمثل هذه العمليات إلى زفة من هذا النوع؟، والإجابة التى يقدمها الدكتور العثيمين تسلط الضوء على الاختراع القاعدي الذي ينم عن ولع بالإعلام من ناحية ورغبة فى اكتساب مزيد من الأنصار الذين يتوهمون أن السابقين لهم سائرون فى الطريق الصحيح من ناحية أخرى. الحوار بين مقدمة البرنامج وضيفها تكاملي، ويتسم بقدر كبير من التناغم النابع من الرؤية الواعية المشتركة بطبيعة الإرهاب والأساليب التى يتبناها قادته:

"ريما صالحة: يعني دكتور يوسف هل من يقومون بمثل هذه العمليات يحتاجون إلى زفة من هذا النوع؟

د. يوسف العثيمين: أولا دعيني أعلق على الزفة بشكل عام، القاعدة لها شغف وولع بالإعلام، وأنا أتصور أنهم يتنفسون الإعلام لأنه هو وسيلتهم لإقناع المشاهدين على مستوى جماهيري، ليس فى الشرع كما أعلم على حد علمي المحدود شرعا أنه ليس فيه ما يسمى بالزفة، الزفة الشرعية ليست شرعية أنا لم أسمع عنها، هذه أول مرة، أنا أعتقد أن هذا اختراع قاعدي، اختراع قاعدي أن يعمل زفة بهذا الشكل وأن يزف، وإذا كان هناك شيء له أساس فى هذا الأمر فلماذا يصور؟ ولماذا يبث على ما يسمى بالجهاد الإلكتروني، أنا أعتقد أن ولع القاعدة بالإعلام هو السبب الذي أدى إلى اختراع هذه البدعة بما يسمى بالزفة.

ريما صالحة: ربما لدخول الحماس فى الشباب الآخرين أو لتحميسهم على الدخول أيضا فى هكذا أجواء وهكذا معتركات، كنا شاهدنا أيضا فى الصور ولفت نظري دكتور يغني من سيقومون أو قاموا بهذه العملية كانوا مبتسمين وكانوا فرحين بما سيقدمون عليه، ما هذا الذي يدخل إلى عقولهم ويغير فى نفسيتهم إلى هذه الدرجة حتى يقوموا بقتل نفس لا ذنب لها وهم مقتنعون؟

د. يوسف العثيمين: هذا صحيح والواقع أنكم وفقتم باختيار هذه السلسلة من البرامج وسميتموها صناعة الموت، أنا أعتقد أن هذه الزفة وما شاهدناه هو جزء من تكريس ما يسمى بثقافة الموت، بحيث يغرس فى نفس هذا الشاب فكرة أن هذه الحياة الدنيا لا تستحق الحياة ولا تستاهل المعيشة فيها، وإنما يعد لعالم آخر فيه الحور العين وفيه النعيم وفيه السكن المريح، فأنا أعتقد أن ما نراه اليوم أو ما نراه فى هذا الجزء من البرنامج تأكيد للعمليات التى يمر بها الشباب فى عملية غسيل المخ من أجل تكريس صناعة الموت، حتى يزهد بهذه الحياة الدنيا وحتى مزيد من الاندفاع للقتل غير المبرر للأبرياء كما هو واضح فيه من مجمع المحيا قبل قليل."

الأهمية ليست فى التسجيل النادر وحده، فكم من التسجيلات المشابهة التى تعرض فى قنوات أخرى لتحقيق أهداف مناقضة مضادة، ذلك أن المعيار الحقيقي هو فى تقييم محتويات التسجيل النادر، والحرص على مخاطبة عقول المشاهدين بما يتيح لهم إدراك المرامي والأهداف الحقيقية لصانعي الإرهاب.

التنظيم الأكثر تشددا "يخترع" بدعة الزفة، قبل الموت، لأسباب نفعية تتعلق بإضفاء هالة على الانتحاريين، وتحميس الشباب الذي لم ينخرط فى صفوفهم بعد، والحث على كراهية الآخر والاستهانة بحياته كوسيلة وحيدة للوصول إلى السعادة والخلاص الروحي.

إن صناعة الموت فى حاجة، وفقا للتعبير المتميز الذي يستخدمه الدكتور العثيمين، إلى ثقافة الموت، وهي ثقافة قوامها الكراهية: كراهية الحياة والأحياء معا.

ثمة حياة بديلة، مشرقة مضيئة، يزفون إليها، وعمليات "غسيل مخ" مستمرة لتكريس صناعة وثقافة الموت على حد سواء.

التقدم فى العمر يمنح الإنسان وعيا وعمقا بمعزل عن درجة ثقافته، والناضجون يعون أن الإسلام دين يبشر بالحياة، ويحض على الحب، وينبذ الكراهية والتعصب. الشباب، لأنهم الأكثر معاناة والأكثر اندفاعا وراء عواطفهم والاستسلام لها، هم المهيئون لتقبل الخطاب الدعائي المزيف، وهذا هو ما يقود إلى الإجابة عن السؤال الثالث، حول الفئات العمرية المستهدف تجنيدها فى المنظمات الإرهابية. يقول الدكتور يوسف العثيمين عن إستراتيجية هذه التنظيمات:

"د. يوسف العثيمين: يعني الفكرة المركزية بالتجنيد هو الاعتماد على الشباب، واضح أنهم لم يستعينوا لا بالشيوخ ولا بصغار السن، واضح أن الفئة العمرية من ١٥- ٢٥ هذه هي الفئة المستهدفة.

ريما صالحة: هل يدخل البطالة والفقر والأمية والجهل يعني فى سياق اختياراتهم؟ أم هم أيضا يختارون طلاب الجامعات وطلاب المدارس وبيئة معينة؟

د. يوسف العثيمين: يعني من قراءة السيرة الذاتية الحقيقة أنا اطلعت على عدة سير ذاتية لبعض التنظيمات الجهادية، وواضح أن التعليم كان هو المدخل الواسع لعملية التجنيد.. خصوصا ما يسمى بالنشاطات اللاصفية من واقع ما يسمى بالمعسكرات الصيفية أو بالرحلات الخلوية بعيدا عن أعين السلطة وعن أعين المعلمين".

الشباب هم المستهدفون، وإذا لم تكن المعاناة المادية هي المدخل لاستقطابهم وتجنيدهم، فإن المدخل البديل هو استثمار مشاعرهم الدينية المفرطة العاطفية، والتلويح الدائم بأن هؤلاء الشباب هم القادرون على نجدة الإسلام والدفاع عن المسلمين.

يقدم البرنامج لقاء مع أبو المنتصر بالله، رفيق الزرقاوي السابق فى أول تنظيم إرهابي، ومن كلماته بعد التراجع عن الإرهاب والكفر به، تستنبط ريما صالحة سؤالا بالغ الأهمية: ماذا يفعل المتشدد الذي يتراجع عن أفكار العنف ويريد العودة إلى المجتمع من جديد؟ هل يفتح له المجتمع ذراعيه، أم يتركه فريسة لأساليب التجنيد

الجهنمية التى تتقنها جماعات العنف والتكفير والتشدد؟. الإجابة، التى تتضمن كثيرا من التساؤلات والاقتراحات، يقدمها الدكتور العثيمين:

"د. يوسف العثيمين: والله أعتقد أن هذا إشكالية تواجهها جميع المجتمعات ليس فقط فى موضوع الإرهاب الذي نحن بصدد الحديث عنه، حتى فى موضوع الجريمة يعني جزءا من الدراسات العلمية أثبتت أن نسبة ما يسمى العودة إلى الجريمة ترتفع بتناسب طردي مع مستوى تقبل المجتمع للمجرم أو التائب فى عودته إلي حظيرة المجتمع، فنفس الشيء ينطبق الآن على موضوع الإرهابيين، أنا أعتقد أن الدول الإسلامية والعربية التى اكتوت بنار الإرهاب جزء كبير تتحملها تلك الدول بسبب أنها لم تكن مستعدة لإعادة تكيف هؤلاء بالذات الشباب، الذين بعد أن انتهت الحرب فى أفغانستان عادوا إلى دولهم ولم يكن هناك برامج لتقبلهم سواء من ناحية المجتمع بالنسبة لأسرهم، أو من ناحية استيعابهم فى أعمال، لأنه تعرفي أنت أن هؤلاء لما أمضوا فترة طويلة من قتال اعتادوا على هذا النمط من الحياة، حياة القتال وحياة التدريب والحياة العسكرية، وحياة المواجهة الأمنية وحياة المواجهات العسكرية، فبالتالي لما انتهت هذه الحرب كان لابد أن تكون البلاد الإسلامية والبلاد العربية أعددت لهم برامج لإعادة تكيفهم وإعادة استيعابهم فى الحياة".

الإرهاب هو ذروة الجريمة وأعلى مراحلها، وإعادة تأهيل المجرمين والإرهابيين التائبين، والمساعدة على اندماجهم فى المجتمع، عملية بالغة التعقيد والصعوبة، بقدر ما هي ضرورية وحتمية لا مهرب من مواجهتها.

التوبة، كما في نموذج أبو المنتصر بالله، ليست نهاية المطاف، فالعجز عن التوافق مع المجتمع قد يقود إلى انتكاسة لا شفاء منها. وإذا لم يكن المجتمع قادرا على الاستيعاب، فإنه يمنح المنظمات الإرهابية فرصة ذهبية لعملية إنتاج مستمرة لا نهاية لها.

لا يملك البرنامج أن يقدم الكلمة الأخيرة والتصور الكامل عن سبل العلاج، وهو ليس مطالبا بذلك، لكنه يطرح القضية ويشير إلى خطورتها، وعلى صانعي القرار أن ينتبهوا قبل أن يجرفهم الطوفان!.

- **جغرافية الإرهاب:**

مثلما تبدي "العربية" اهتماما كبيراً بأسباب وجـذور الظـاهرة الإرهابيـة فـي العالمين العربي والإسلامي، فإنها تظهر اهتماماً مماثلا باتـساع الرقعـة الجغرافيـة للإرهاب وتداعياته، ومن هنا تتوالى معالجتها المتنوعة، التي تشمل عديداً من البلدان، ومنها العراق وأفغانستان وباكستان والمملكة المتحدة.

- **العراق:**

يوم الثلاثاء ١-٦-٢٠٠٤، وفي حلقة من برنامج "تحت الضوء"، الـذي يقدمـه طالب كنعان، مناقشة مستفيضة لوجود تنظيم "القاعدة" داخل العراق، بعد سقوط نظام صدام حسين.

يستضيف البرنامج:

د. مصطفي العاني (المستشار في المعهد الملكي البريطـاني للدراسـات العـسكرية والدفاعية).

السيد مشاري الذايدي (كاتب صحفي).

السيد غسان عطية (مدير المعهد العراقي للتنمية والديمقراطية).

تبدأ الحلقة بإشارة من مقدم البرنامج إلى التقرير الذي أصدره المعهـد الـدولي للدراسات الإستراتيجية في لندن عام ٢٠٠٢، ويتضمن ما يفيد وجود أسـلحة دمـار شامل في العراق، وكان هذا التقرير أحد المبررات التي تم إعلانها لتبرير شن الحرب على العراق. المعهد نفسه، في مايو ٢٠٠٤، يصدر تقريراً جديداً يؤكد فيه أن الحرب على العراق أدت إلى تقوية تنظيم القاعدة.

التقريران، القديم والجديد، يفجران جملة من الأسئلة، تمثل المحـاور والركـائز التي يناقشها البرنامج، من خلال ضيوفه، عن انعكاسات حرب العراق ونتائجها على

"الأمن في أنحاء المنطقة. العراق الذي كان محرماً على القاعدة قبل الحرب، صار وبحسب التقرير واحة رحبة لتحركاتها، وساحة أساسية لإرهابها، خصوصاً أن القوات الأميركية فشلت وبعد أكثر من عام على الحرب، في حفظ أمن العراق، وفي منع تسلل إرهابيي القاعدة إليه عبر الحدود، وهو فشل يهدد بأن تكون لتلك الحرب انعكاسات بالغة الخطورة على العراق والمنطقة، فهل كانت هذه التطورات خارج حسبان الإدارة الأمريكية؟ ولماذا فشلت القوات الأمريكية في حفظ العراق من متسللي القاعدة؟ وهل أصبح العراق فعلياً قاعدة عمل خلفية لهذا التنظيم؟ وهل بات هذا البلد ممراً سهلاً لتصدير الأسلحة والمتفجرات إلى الدول المجاورة؟ وقبل هذا كله ما مدى صحة ما ورد في التقرير؟ وكيف جمعت المعلومات في الوقت الذي لم تنجح فيه أميركا في اعتقال أي من عناصر القاعدة في العراق؟ ثم إلى أي مدى ستسمح التطورات الأخيرة في العراق، وأبرزها اختيار رئيس وحكومة جديدين في التخفيف من أخطار الإرهاب وفي تقييد نشاط القاعدة".

أهم النقاط، التي يركز عليها طالب كنعان في مقدمته، تتمثل في العناصر التالية:

أولاً: تحول العراق من منطقة محرمة على تنظيم القاعدة قبل الحرب، إلى ساحة رحيبة لنشاط التنظيم وتحركاته بعد الحرب.

ثانياً: غياب التطور السابق عن حسابات الإدارة الأمريكية عند اتخاذ قرار الحرب، وفشل الجيش الأمريكي، والقوات المتحالفة معه، في حماية حدود العراق والحيلولة دون تسلل عناصر القاعدة.

ثالثاً: سقوط العراق في براثن تنظيم القاعدة، بحيث أصبحت الأراضي العراقية ممراً لتصدير الأسلحة والمتفجرات إلى الدول المجاورة.

رابعاً: مستقبل تنظيم القاعدة في العراق، وارتباط ذلك المستقبل بما قد يحدث من تطورات داخلية في الساحة العراقية.

الحقيقة المؤكدة أن نشاط تنظيم "القاعدة" قد تصاعد في العراق بعد الاحتلال، لكن هذا التصاعد لا ينبغي فهمه بمعزل عن طبيعة الأوضاع في العراق قبل الحرب، وإلى هذه الفكرة يشير الدكتور غسان عطية:

"الدكتور غسان عطية: في الواقع قبل ما نجيب على سؤالك يجب أن يكون واضحاً أن (صدام) وسياسة (صدام) السابقة، هي نموذج من الإرهاب أي إرهاب الدولة، فمن كان يقتل على يد ذلك النظام هم الآلاف والمقابر الجماعية تشهد على هذه الحالة، لكنا يجب أن لا نقع في خطأ أن نبرر خطأ بخطأ آخر، سياسة (صدام) كانت تستدعي أن الخلاص من عنده، ولم يكن هناك مجال للخلاص من هذا النظام إلا بمعونة خارجية. الولايات المتحدة تعاونت مع قوى عراقية مختلفة، أنا طلبنا العون من الولايات المتحدة، والولايات المتحدة وعدت أن تساعدنا، وتمكنا من أن نحكم أنفسنا، لا أن تحل محلنا، اللي حصل بقدر ما كانت السياسة الأميركية العسكرية ذكية وناجحة في إسقاط (صدام) في ثلاثة أسابيع، كانت هي بالعكس فاشلة في سياستها فيما بعد (صدام). أخطاء السياسة الأمريكية لا بل خطايا الإدارة الأميركية في التعامل مع ما بعد (صدام)، وبالتالي فشلها هو اللي خلق المناخ المناسب للحالة اللي ممكن أن يطلق عليها الفلتان واللجوء للإرهاب".

مرتكزات الخطاب الذي يقدمه الدكتور غسان، في مقولته السابقة، تتمثل في ثلاثة محاور رئيسية:

المحور الأول يؤكد على أن تدهور الأوضاع في العراق لا يعني تبرئة النظام السابق، فالحلقات المتصلة متداخلة، وإرهاب الدولة في ظل نظام صدام يمهد لإرهاب القاعدة بعد سقوط صدام.

المحور الثاني هو أن النجاح العسكري الأمريكي السريع في إسقاط صدام، لم يقابله نجاح سياسي مماثل لإدارة العراق بعد سقوطه، وهو ما هيأ المناخ للانفلات الأمني وهيمنة العنف.

المحور الثالث وثيق الصلة بالمحورين السابقين، فلا يمكن فهم وتفسير ظاهرة الانتشار السرطاني لأنشطة القاعدة بعد الاحتلال الأمريكي، إلا بإدراك بواعث العنف الكامن في عهد صدام من ناحية، وبرصد الفشل السياسي الأمريكي من ناحية أخرى.

نجاح القاعدة إذن ليس مردوداً إلى عناصر تتعلق بالتنظيم نفسه فحسب، لكنه يرتبط أيضاً بتفاعلات بالغة التعقيد والتشابك. الأخطاء الأمريكية قادت إلى خطايا، وفي ظل الخلل الفادح لا يبدو مستبعداً أو مستغرباً أن يقوى تنظيم القاعدة ويحقق نجاحاً، فمثل هذه التنظيمات لا تنتعش وتزدهر إلا في السياقات التي تتسم بالفوضى وأجواء الأزمة.

لقد أفادت القاعدة مما يحدث في العراق، كما أن طبيعة الصراع في فلسطين تساعدها في تجنيد الأنصار، أو النجاح مستمر ما بقيت العوامل والعناصر التي تتيح الفرصة لنجاح الخطاب الذي تقدمه.

ويتوقف الدكتور مصطفي العاني أمام قضية بالغة الخطورة، وهي أن تنظيم القاعدة لم يعد تنظيماً واحداً مركزيا خاضعاً للقيادة التقليدية التي يعرفها العالم، ذلك أن هناك تنظيمات متعددة محلية الصناعة، والرابطة مع التنظيم الأصلي جهادية عقائدية وليست تنظيمية بالمعنى المألوف:

"نحن نتكلم عن قواعد وليس قاعدة. نتكلم عن مجموعة من منظمات نشأت من نوع جديد وقيادة جديدة نشأت في هذه المدن هي التي تقوم بهذه العمليات. تدين بفكر القاعدة ليس بالضرورة لها ارتباط يومي أو لوجستيكي بتنظيم القاعدة في أفغانستان هناك الفكر الآن، أنا بنظري القاعدة تحولت من تنظيم إلى فكر، والفكر بدأ ينشئ منظمات تدين بهذا بالفكر القاعدي، لكن ليس بالضرورة أنها على اتصال يومياً بالقاعدة كما كانت قبل الحادي عشر من سبتمبر".

لقد تحولت "القاعدة" إلى "قواعد"، وأفرزت هذه القواعد قيادات جديدة لا تربطها صلة تنظيمية صارمة بالتنظيم الأم. هذا التحول الكيفي يسهم في الكشف عن ماهية الاتساع الجغرافي الذي أدى إلى انتشار فكر التنظيم ومرتكزاته العقائدية. الفارق بين

"التنظيم" و "الحالة" هو الفارق بين الانتماء الصارم الملتزم الذي يميز التنظيمات السياسية، والانتساب الفكري العاطفي الذي يتجاوز الأطر التنظيمية الضيقة. وفي هذا السياق، تتواجد القاعدة – الفكرة في أماكن شتى، وقد لا يكون التنظيم المركزي على دراية كافية بما يحدث في التنظيمات الفرعية التي تنتسب إليه وتسير على خطاه.

- **أفغانستان:**

في برنامج "مهمة خاصة"، الذي يقدمه حسن زيتوني، حلقة عن "أفغانستان.. بعد ثلاث سنوات"، أذيعت في ٧-١٠-٢٠٠٤، بعد ثلاثة أعوام من انطلاق الحرب ضد حكومة طالبان.

ينشغل البرنامج بمناقشة نقطتين أساسيتين:

الأولى تتعلق باللاجئين الأفغان، هل عادوا إلى وطنهم ليظلوا لاجئين؟، أم ليعودوا معززين مكرمين؟

الثانية عن دور المرأة الأفغانية بعد سقوط حكم طالبان.

أهمية الحلقة وخصوصياتها، على الرغم من أنها لا تتعرض بشكل مباشر لتنظيم القاعدة، أنها تقدم رؤية بالغة الأهمية عن طبيعة الأوضاع السائدة بعد سقوط نظام طالبان، وثيق الصلة بالقاعدة. مشاهد الحلقة لابد أنه يتوق إلى معرفة الإجابة عن السؤال المحوري: ماذا بعد سقوط طالبان؟. هل تغيرت الأوضاع إلى الأفضل، وهل يمثل هذا التغيير نموذجاً يمكن الاحتذاء به في المقدمة العملية للإرهاب والحد من نفوذه وانتشاره؟!. ملايين اللاجئين الهاربين والنساء المقهورات، ضحايا لنظام طالبان، والمسألة عند هؤلاء لا تتعلق بشكل الحكم القائم وطبيعة أفكاره، لكنها ترتبط بنجاح أو فشل النظام في علاج الآثار المترتبة على الحكم السابق.

التجربة الأفغانية مهمة، والتاريخ الأفغاني لا يقتصر على حقبة واحدة؛ ولذلك يشكل الوعي بمعطيات التطور التاريخي مدخلاً ضرورياً للإحاطة بمفردات الواقع والتطلع إلى آفاق المستقبل:

"أفغانستان بلد مزقته الحروب والتفرقة العرقية والدينية يريد أن ينهض من جديد، أفغانستان واحدة من بؤر التوتر التي يشعر فيها الباحث عن الحقيقة، كأنه يبحث في غياهب العصور عن شيء ربما يصعب إيجاده، سكان هذا البلد هجروا عنوة مرات عديدة وهاجروا طواعية في فترات أخرى، لكن التشرد واللجوء والهجرة أصبحت من العبارات التي ألفها الأفغان وتعودوا عليها لأسباب عديدة أبرزها الحروب الخارجية بسبب غزو البلد وأطماع الدول المجاورة له، أو بسبب الحروب الأهلية بين الفصائل الأفغانية المختلفة المنحدرة من عرقيات وديانات متباينة، قبل ثلاث سنوات فقط حدث تغير جذري في هرم السلطة السياسية في أفغانستان، بعد الإطاحة بحكم طالبان وذلك كجزء من أول حرب ضد ما وصف بالإرهاب الدولي، بالنسبة للعالم الخارجي الهدف الأسمى لتلك الحرب هو إنهاء حكم نظام تقليدي حرم مواطنيه من أدنى الحقوق الإنسانية مع إنهاء وجود تنظيم كان يشكل في نظرهم خطراً على الأمن العالمي هو تنظيم القاعدة".

للعالم الخارجي أن يتعامل مع القضية الأفغانية كما يريد، وفق مصالحه وأهدافه، لكن المواطن الأفغاني العادي يبحث، في المقام الأول، عن الاستقرار والحياة الآمنة. المسألة عنده ليست حرباً ضد الإرهاب والتطرف، كما أنها ليست في سقوط حكومة طالبان وحلفائها من أعضاء تنظيم "القاعدة"، لكنها في طبيعة الحياة البديلة وقدرة النظام الجديد على تجاوز الأزمات والمحن التي حاصرته عبر عقود متتالية.

اللاجئون الهاربون من جحيم الحروب والصراعات، والنساء اللاتي تعرضن للاضطهاد والقمع في ظل حكومة طالبان، أكثر فئات المجتمع الأفغاني تضرراً، والأكثر توقاً إلى الخلاص مما يعانونه. يقدم البرنامج عديداً من الشهادات للاجئين الأفغان، يكشفون من خلالها عن أحوالهم ومعاناتهم التي لم تنته بعد. والمحصلة النهائية لجملة هذه الشهادات، يطرحها مقدم البرنامج حسن زيتوني في قوله:

"حسن زيتوني: مشوار العودة إلى الوطن بالنسبة للاجئين الأفغان لم يعد يبدأ من باكستان أو إيران أو أي دولة أخرى، بل أصبح مشواراً داخل الوطن نفسه، وربما سيكون طويلاً وشاقاً لأنهم فقدوا صفة اللجوء، وتحولوا إلى دخلاء وغرباء على وطن تركوه، وطالما انتظروا العودة إليه ليجدوه وطناً يدير ظهره لهم وغير قابل وغير قادر على استقبالهم هذه المرة، وعلى اللاجئين الأفغان ينطبق بيت الشعر الذي قال: أمشي على ورق الخريطة خائفاً فعلى الخريطة كلنا غرباء".

المهاجر الأفغاني قد يكون مهاجرا "من" الوطن، وقد يكون مهاجرا "في" الوطن. الشعور بالغربة وغياب الاستقرار هو المشترك في الهجرتين. الحكومة الأفغانية عاجزة عن تلبية مطالبهم المشروعة، فالبلاد تعاني من ظروف عصيبة أمنياً وسياسياً، لكن المواطن العادي لا يملك إلا أن ينشغل بهمومه الذاتية، وأن يحاسب النظام القائم تبعاً لنهجه في التعامل مع هذه الهموم.

لقد أشرنا من قبل إلى أهمية استيعاب المجتمع للإرهابيين التائبين، على المستوى الفردي، ولابد أن يتكرر التأكيد على هذا المعنى في الإطار الجمعي، ذلك أن شعور المواطنين بحدوث تغيير إيجابي في حياتهم، بعد سقوط الحكم المتحالف مع الإرهاب، هو مقدمة أولى للحفاظ على النظام الجديد وتدعيمه والحيلولة دون عودة الأوضاع إلى ما كانت عليه، حيث يتم تفريخ أجيال من المتطرفين والإرهابيين.

لا يختلف الأمر كثيراً بالنسبة للمرأة، فقد عانت النساء في ظل حكم طالبان، لكن هذه المعاناة لم تنته بعد سقوطها. يقدم البرنامج رؤية موجزة متماسكة عن أوضاع المرأة الأفغانية، وما طرأ على هذه الأوضاع من تغيير نسبي:

"المرأة الأفغانية في عهد طالبان حرمت من التعلم ومن العمل في مجالات عديدة، وتحولت إلى كائن محجوب عن العالم الخارجي، وهي ما زالت اليوم تبحث في وسط اجتماعي ذي تركيبة معقدة عن دور ما يؤهلها لاستعادة مكانتها في المجتمع، ومثل اللاجئين فالنساء في أفغانستان يبحثن عمن يعيد لهن كرامتهن

في هذا البلد الإسلامي الممزق، مهمتنا الخاصة في أفغانستان تزامنت مع الحملة الانتخابية الرئاسية الأولى من نوعها في تاريخ أفغانستان السياسي، وكشفت الحملة أن للمرأة الأفغانية مثل الرجل طموحات وتطلعات عالية، إنها تريد أن تستغل الانفتاح الجديد الذي أفرزته الحرب ضد الإرهاب وإسقاط حكم طالبان لتخوض معترك الصراع والمنافسة السياسية أمام الرجل الذي اضطهدها كثيراً في وطنها، المرأة الأفغانية لا تطمح إلى أن تكون مشاركة في الانتخابات من خلال التصويت وحسب مثلما تقول هذه السيدة الأفغانية التي أكدت تأييدها للرئيس المرشح حامد كرزاي. المرأة الأفغانية: كرزاي نعم".

بحث المرأة الأفغانية عن مكان لها ومكانة مازال مستمراً، وليس وارداً بطبيعة الحال أن تنقلب الأحوال بين يوم وليلة، ولعل طموح المرأة الأفغانية إلى المشاركة الإيجابية في الانتخابات الرئاسية، هو دليل عملي على ما يوحى به المستقبل من تقدم، ينهض بالنساء الأفغانيات ويدفعهن إلى مزيد من المشاركة. لقد شهدت الانتخابات ظاهرة جديرة بالاهتمام والمتابعة، نعني بذلك ترشيح الدكتورة مسعودة جلال لمنصب الرئيس.

لم تكن التهديدات التي تلقتها دليلاً على قوة نفوذ طالبان والقاعدة، ذلك أن هذه التهديدات تبدو منطقية ومتوافقة مع طبيعة المجتمع المحافظ، قبل حكم طالبان وبعده.

المشكلة ليست في التطرف والإرهاب وحدهما، فالتقاليد الجامدة للمجتمع القبلي تسهم بدور بارز في حالة الحصار التي تتعرض لها المرأة، لأسباب اجتماعية موروثة لا علاقة لها بالدين، وهي التقاليد نفسها التي قد لا تتعارض في كثير مع الخطاب الديني والاجتماعي الذي حكمت به طالبان.

تنتهي الحلقة بما يشبه الاستنتاج العام الذي يمثل حصيلة التقارير واللقاءات:

"حسن زيتوني: كشفت مهمتنا الخاصة في أفغانستان أن التغيير تحصيل حاصل، ولكنه يسير ببطء شديد، وقد تستغرق عملية التغيير سنوات طويلة، والأهم من كل ذلك أن هنالك رغبة شعبية ورسمية لإحداث هذا التغيير في أفغانستان وهذا هو المهم".

الصورة في مجملها ليست قاتمة، والتغيير البطــيء أفــضل مــن الجمــود. المستخلص في الحلقة هو ترسيخ فكرة إيجابية، تسهم في مواجهة الإرهاب والتطرف، داخل أفغانستان وخارجها: نفوذ القاعدة ليس قدراً مقدراً لا فكاك عنه؛ والتخلص مــن الآثار السلبية لحكم طالبان يتم عبر تفاعلات عديدة تقود إلى البطء، لكن التغيير قــائم وقادم.

▪ باكستان:

في ٢٩-٩-٢٠٠٥، بعد عام تقريباً من الحلقة السابقة، يقدم بكر عطياني حلقة جديدة من البرنامج نفسه، عن الرئيس الباكستاني برفيز مشرف، وكان قد نجــا مــن محاولتين خطيرتين استهدفتا اغتياله. الحديث عن مشرف هو حديث ضمني حتمي عن الحالة الباكستانية، وكل حديث عن الإرهاب وتنظيماته، وبخاصة "القاعــدة"، لابــد أن يتوقف طويلاً أمام باكستان.

يمكن مناقشة وتحليل الحلقة عبر أربعة محاور، تقدم في مجموعها شهادة مهمة تتجاوز شخص الرئيس إلى عموم الدولة، وتنطلق من الواقع الباكستاني لتضيء السبيل أمام الراغبين في التعرف على طبيعة القاعدة وممارساتها:

المحور الأول هو الزج بين الذاتي والموضوعي، شخص مــشرف وسياســة باكستان.

المحور الثاني هو التأكيد على العداء الأصيل الــذي يحملــه مــشرف تجــاه الإرهابيين، وانعكاس ذلك الموقف الذاتي على السياسة الموضوعية.

المحور الثالث هو رصد وتقييم وتحليل ممارسات القاعدة التحريــضية ضــد مشرف.

المحور الرابع هو قوة القاعدة في باكستان على ضوء تعدد محاولات اغتيــال الرئيس الباكستاني.

اتخذ الرئيس الباكستاني قراراً بالانضمام إلى التحالف الدولي في حربه ضد القاعدة وطالبان، ووافق مشرف على مساندة التحالف عبر ثلاثة إجراءات: تبادل المعلومات في المجال الأمني، استخدام الأجواء الباكستانية في العمليات العسكرية، تقديم الدعم اللوجستي. صنع القرار أجواء مشحونة بالتوتر والغضب عند بعض قطاعات المجتمع الباكستاني. من هو برفيز مشرف؟!. الإجابة يقدمها بكر عطياني في قوله:

"بكر عطياني: برفيز مشرف البالغ من العمر ٦٢ عاماً عرف بتوجهاته الليبرالية منذ أن بدأ خدمته العسكرية في الجيش الباكستاني عام ١٩٦١، وعندما قاد الانقلاب العسكري الأبيض على رئيس الوزراء الأسبق نواز شريف بأكتوبر عام ١٩٩٩ صرح بأن مؤسس تركيا الحديثة كمال أتاتورك أحد أهم الشخصيات التي تأثر بها، وظهر بعد يوم واحد من الانقلاب العسكري مع عائلته في صور قالت الكثير عن شخصية قائد الانقلاب والرئيس التنفيذي الجديد البلاد، شخصية ليبرالية تبحث عن تغيير الصورة التي عرفها العالم عن باكستان، لم يقف الأمر عند الانضمام إلى التحالف الدولي بل كان لابد من تغيير الوجوه التي أشرفت على صنع السياسات العسكرية والأمنية في السابق تمهيداً لهذه المرحلة الجديدة".

التوجهات الليبرالية والإعجاب بمصطفي كمال أتاتورك ونمط الحياة الشخصية، ثلاثة عناصر تجعل موقفه الداعم للحرب ضد الإرهاب منطقياً ومبرراً. تنفيذ السياسة الجديدة يتطلب وجوها مختلفة، تؤمن بسياسات الرئيس وتعمل على تنفيذها، وهذه السياسة – من ناحية أخرى– تخلف حالة من المعارضة الإسلامية، التي ترصد خطورة العداء الأصيل الذي يكنه مشرف تجاه التطرف، وانعكاسات هذا العداء على مواقعها في الشارع الباكستاني:

"يحي مجاهد (أحد مسؤولي جماعة الدعوة): بسبب الانقلاب الذي حدث في سياسات باكستان من الطبيعي أن يكون هناك ردود فعل، والذين تضرروا بشكل أكثر

كانوا هم الإسلاميين بسبب هذا التحول الذي جرى على صعيد كشمير والبرنامج النووي، ولعب باكستان دوراً رئيسياً ضد الجهاد في أفغانستان وتزويد الـ "إف بي آي" بمكاتب للعمل في باكستان.

بكر عطياني: الشخصية الأهم التي قادت التظاهرات ضد مشرف كانت القاضي حسين أحمد، أمير الجماعة الإسلامية في باكستان ورئيس مجلس العمل الموحد الذي يضم ستة أحزاب إسلامية.

القاضي حسين أحمد (أمير الجماعة الإسلامية في باكستان ورئيس مجلس العمل الموحد): مشرف هو الذي كسر كل النظم في داخل الجيش باستمراره في قيادة الجيش لثماني.. تسع سنوات متواصلة، وهذا خرق للنظام، نحن لا نؤيد الاغتيالات، وسنستمر في نضالنا السياسي وفق الدستور. "الإسلاميون هم الأكثر تضرراً من سياسة مشرف، واللافت للنظر أن معارضتهم تنطلق من رفض موقف الرئيس الباكستاني في التحالف ضد الإرهاب، فهل يعني هذا أنهم يقفون موضوعياً في خندق الإرهاب، أو أنهم – على الأقل – لا يجدون فيه العدو الرئيسي الأولى بالاهتمام؟!. وتزداد الغرابة فيما يقوله القاضي حسين أحمد، عندما يتجاهل الحرب ضد الإرهاب، ويوجه سهام نقده العنيف إلى أسلوب قيادة مشرف للجيش! قد يكون هذا النقد صحيحاً، من منظور عسكري مهني، وقد يكون رفض حسين أحمد لعمليات الاغتيال موقفاً سياسياً لا يملك أن يعلن غيره، لكن المهم بحق هو حرص الأحزاب الإسلامية الباكستانية على رفض الإدانة الصريحة الحاسمة للإرهاب، فضلاً عن رفضهم الدائم لدعم من يحاربونه!.

وفي هذا السياق، تظهر بصمات وآثار تنظيم القاعدة، فهو الأكثر تضرراً في سياسة الرئيس الباكستاني، وهو الأكثر حرصاً على التخلص من مشرف، شخصاً وسياسة:

" الدكتور أيمن الظواهري: إن على الشعب الباكستاني عامة وقبائل البشتون خاصة أن يثأروا ممن اعتدى على أحفاد الصحابة الذين نزلوا في جوارهم، وأوجه

ندائي إلى الجيش الباكستاني، فأقول له: أيها الجيش المسكين أي وضع بائس وضعك فيه مشرف؟ فالهنود من أمامك ومن خلفك في أفغانستان، ومشرف يفسد عليك ضرعك الطبيعي من قبائل الحدود بإشغالك بقتالهم، ثم ينزع منك سلاحك النووي؛ فهل ستظل صامتاً حتى تقسم باكستان مرة أخرى وحتى تسقط إسلام آباد كما سقطت داكا؟".

لا يتورع الظواهري عن استخدام كل الأوراق المتاحة للتحريض ضد الرئيس الباكستاني، وهو يهمل – عمدا – أن عداء "القاعدة" لمشرف نابع من سياسته الصريحة في رفض الإرهاب والعمل على استئصاله، أما الحديث عن "أحفاد الصحابة" فيبدو عاطفياً مخالفاً للعقل، وكذلك التهييج القبلي والعسكري، فمثل هذا النهج يكشف عن إيمان قادة القاعدة بأن الغاية تبرر الوسيلة، مهما تكن هذه الوسيلة!.

العداء بين القاعدة ومشرف ليس نظرياً أو فكرياً، ومن المنطقي أن تأخذ القاعدة بزمام المبادرة، وأن تسعى إلى تصفية مشرف:

"بكر عطياني: وهكذا أصبح مشرف في مواجهة واضحة وصريحة مع القاعدة، وجاء تنفيذ التهديد سريعاً، ١٤ من ديسمبر عام ٢٠٠٣ وبينما كان يمر موكب الرئيس متوجهاً إلى منزله في مدينة روالبندي انفجرت عبوة ناسفة في الجسر الذي مر فوقه الرئيس".

لم تكن المحاولة الوحيدة أو الأخيرة لاغتيال مشرف، وتعدد هذه المحاولات يشير بالضرورة إلى القوة النسبية التي يحظى بها تنظيم "القاعدة" في باكستان. زاهد حسين، الكاتب والمحلل السياسي الباكستاني، يقدم تفسيراً لتمكن القاعدة من الوصول إلى مشرف مرتين خلال أحد عشر يوما. فشل محاولتي الاغتيال لا يحول دون التأكيد على أن هذه المحاولات – في ذاتها – دليل على الوجود القوي القادر على تنفيذ الاغتيال، وهو ما لا يمكن أن يتم بمعزل عن مساعدات محلية يقدمها متعاطفون أو مؤيدون، لم تفلح أجهزة الأمن الباكستانية في الوصول إليهم واعتقالهم:

"بكر عيطاني: زاهد حسين الكاتب والمحلل السياسي والذي يقوم حالياً بتأليف كتاب عن المرحلة التي وصل فيها مشرف إلى السلطة يفسر كيف تمكنت القاعدة من الوصول إلى مشرف مرتين خلال أحد عشر يوماً؟

زاهد حسين (الكاتب والمحلل السياسي): استمرار وجود عناصر القاعدة في باكستان يشير إلى أن باكستان بقيت مركزاً لأنشطتهم حتى بعد ١١ سبتمبر، ولا يمكن لهذا أن يتم إلا إذا كانت لديهم اتصالات مع الجماعات المتطرفة المحلية، وأنت ترى أن الذين اعتقلوا من القاعدة كانوا في حماية مثل هذه العناصر المحلية، الذي جرى أن الحكومة حينما قامت بالحملة ضد القاعدة لم تقم بنفس الحملة ضد العناصر المحلية، هذا أدى إلى استمرار نشاطهم تحت أسماء جديدة".

التجربة الباكستانية نموذج جدير بالاهتمام والدراسة، والدرس المستفاد منها أنها تبرهن على أن إهمال العناصر المحلية يمثل خطورة حقيقية عند زوال أو تراجع الحظر الظاهر المعروف. حصار هذه العناصر لم يُحسم بعد، والتهديدات قائمة، بقيت عناصره حرة طليقة، تقوم بدورها في دعم التنظيم الذي يتعرض للحرب.

القضية تتجاوز شخص الرئيس مشرف، ولا تنفصل عنه في الوقت نفسه. في ظل الأنظمة الانتقالية، وعند غياب المؤسسات الراسخة المستقلة، تكون السياسة الرسمية للدولة وثيقة الصلة برأس النظام!.

- **المملكة المتحدة:**

في ٧-٧-٢٠٠٥، يخصص برنامج "مهمة خاصة"، من تقديم محمد شبارو، حلقة عن المملكة المتحدة، التي تحمل عاصمتها لندن اسما جديداً بالغ الدلالة في تعبيره عن تصاعد النشاط الإسلامي ذي النزعة المتطرفة. يتضمن البرنامج خمس فترات منفصلة متصلة، تشكل في مجموعها وثيقة مهمة عن سطور التطرف والإرهاب، وما يمثله ذلك من تأثير على معطيات الحاضر وتغيرات المستقبل.

- لماذا تسمى لندنستان؟
- السلطات البريطانية تثق بالجالية الإسلامية.
- حوار مع أبو حمزة المصري.
- مؤتمر لجماعة متشددة بذكرى ١١-٩.
- ضغوط سياسية تنسق الحقوق والواجبات.

وفقاً لما يقوله أحد المسئولين البريطانيين، فإن بريطانيا تضم مليونا ونصف المليون من المسلمين. غالبية هؤلاء أقرب إلى الاندماج في المجتمع البريطاني والالتزام بقيمه وتقاليده، لكن الخطاب المتشدد ينجح في استقطاب طائفة من الشباب البريطاني المسلم، نتيجة لمزيج من الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والدينية. ما السر في إطلاق اسم "لندنستان" على العاصمة لندن؟. الإجابة يقدمها محمد شبارو:

" لندن أو لندنستان والإسلاميون قصة تعود إلى الثمانينيات عندما انتفض مسلمون بريطانيون وأحرقوا كتب سلمان رشدي، وتحولوا في تلك اللحظة من جالية مسالمة إلى جالية فاعلة في الحياة السياسية البريطانية، في مطلع التسعينيات تحولت العاصمة البريطانية إلى ملجأ للإسلاميين بعد حظر باكستان لنشاط المجاهدين العرب بعد الحرب الأفغانية وبسبب صعوبة عودتهم إلى الدول العربية بعد ملاحقة السلطات هناك للأفغان العرب، فاستفاد هؤلاء من حقوق اللجوء السهلة في لندن ومن النشاط الإعلامي العربي الكثيف، إضافة إلى وجود جالية مسلمة بريطانية كبيرة تحولت مسرحاً لنشاطات المعارضين وللترويج وربما التمويل والتجنيد".

عندما تحولت الجالية الإسلامية إلى قوة مؤثرة، شاع اسم "لندنستان" ذو الإيحاءات الإسلامية، ومع تزايد معدلات الهجرة إلى العاصمة البريطانية، تصاعد النفوذ الإسلامي مازجاً بين المسلمين المحليين والوافدين. آليات النظام الديمقراطي تعطي صلاحيات واسعة للحركة والنشاط، وفي سمات هذا النظام أنه يثق في مواطنين ولا يأخذهم بالشبهات، لكن السؤال الذي يطرحه البرنامج، من منطلق ما يعلن عنه الواقع ومعطياتي الجديدة: إلى متى تستمر هذه الثقة؟!.

مسئول بريطاني يكشف عن رؤية السلطات الأنشطة الإسلامية، ويؤكد على استمرار الثقة من منطلق أن التجاوزات هي الاستثناء الذي لا يبرر الانقلاب أو اتباع سياسات جديدة تحد من حرية الحركة:

"مسؤول بريطاني آخر: يجب وضع الأمور في إطارها، من هي هذه الجماعات الإسلامية؟ وما حجم مؤيديها في المجتمع البريطاني؟ إنها جماعات تثير الضجة، ويهتم بها الإعلام المحلي خصوصاً، مؤيدو هذه الجماعات على مستوى المساجد في بريطانيا ضئيل جداً، فمن أصل ١٥٠٠ مسجد لا تتواجد هذه الجماعات إلا في مسجد أو مسجدين، فـ ٩٩% من مؤسسات وجمعيات المسلمين تحظى بثقة السلطات والمسلمين ولا غبار عليها، وربما بعضها ليس مثالياً، لكنها لا تشكل جزءاً من الدعاية المغرضة باسم الدين التي يروجها هؤلاء".

النظام البريطاني لا يضيق بالضجة، ولا يجد في التعبير عن الرأي والدعوة إليه، مهما يكن محتواه، خطورة تستدعي القلق، لكن هذا النظام نفسه يرفض الأعمال غير القانونية، ويتعامل مع الخارجين على القانون دون نظر إلى معتقداتهم الفكرية أو الدينية. ينفي أبو حمزة المصري، في الحوار الذي يقدمه البرنامج، أنه تورط وتنظيمه "جماعة أنصار الشريعة" في نشاطات غير قانونية، لكن الحلقة تكشف عن حقيقة مغايرة:

"محمد شبارو: أبو حمزة وأعوانه يتهمون السلطات بتلفيق التهم ضده وضد المسجد، لكن فيلماً صور سراً داخل المسجد يظهر أنه بالإضافة إلى تحول هذا المسجد إلى ملجأ لمهاجرين شمال أفريقيين غير شرعيين فإن جوازات سفر وأوراقا ثبوتية تباع داخل هذا المسجد".

النظام البريطاني يتمسك بثوابته الديمقراطية، وفصائل من الإسلاميين تستثمر هذه الثوابت لتحقق أهدافها تحت حماية القانون وبرعايته، عبر اختراقه وانتهاكه!.

ما الذي يدور داخل المساجد؟، وهل تقتصر أنشطتها على الأمور الدينية والعقائدية؟!.

من الشهادات الخطيرة التي يقدمها البرنامج، ما يقوله الجزائري حسين رضا عن تجربة:

"حسين رضا: آه.. تسألني عما كان يجري خلف هذه الجدران؟ كل ما له علاقة بالإرهاب، من الدعاية والتمويل وجمع التبرعات، إلى بيع الأوراق المزورة والمخدرات والأسلحة إضافة إلى التخطيط للاعتداءات الإرهابية".

إلى متى تصمد السلطات البريطانية أمام الضغوط التي تحاصرها لاتخاذ موقف متشدد تجاه هذه الجماعات، التي تحول دور العبادة إلى ساحة لتمويل الإرهاب والاتجار في الأسلحة والمخدرات؟!. حرية الرأي والاعتقاد مكفولة ومقدمة في التقاليد البريطانية الموروثة، لكن بعض الممارسات التي يقوم بها الإسلاميون تتجاوز كل حدود حرية الرأي والتعبير، وفي ذلك مثلاً الاحتفال بذكرى اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر، وكان عنوان المؤتمر الذي أقامه المتشددون: "التسعة عشر العظماء"، لتكريم الانتحاريين الذين قاموا بخطف الطائرات الأمريكية!. وقد يكون مفيداً أن نتوقف أمام أحد التصريحات الصادرة عن المؤتمر:

"مسؤول إداري في الجماعة: نحن نحذر البريطانيين من تقديم الدعم للأنظمة الإرهابية أو زعمائها أمثال توني بلير وفرعون هذا العصر جورج بوش؛ لأنكم بذلك تتحملون تبعات غضب المجاهدين؛ لذلك ندعوكم للتخلي عن هؤلاء القادة".

استثمار مناخ الحرية ليس مطلقاً، فالضغوط الأمريكية تتزايد، وسلوكيات الجماعات المتطرفة تعطي مصداقية لهذه الضغوط وتمهد الطريق لقبولها.

لصراع عنيف بين القيم الديمقراطية والمتغيرات التي تدفع إلى إعادة النظر فيها، وقد يسفر الصراع عن عودة "لندنستان" إلى اسمها القديم!.

▪ مستقبل الإرهاب:

إذا كانت برامج قناة "العربية"، كما عرضنا من قبل، قد ناقشت أسباب وجذور التطرف والإرهاب، وتابعت الظاهرة الإرهابية في البقاع الجغرافية المختلفة التي

يتحرك فيها، فإن هذه البرامج- أيضاً - قد توقفت أمام مستقبل ظـاهرة الإرهـابيين، وللتدليل على رؤية القناة لهذا المستقبل ومحدداته، فإننا نتوقف أمام ثلاث حلقات مـن ثلاثة برامج مختلفة:

البرنامج الأول: "تحت الضوء"، ويناقش في إحدى حلقاته قضية: "هل بدأ تنظيم القاعدة بالاحتضار الفكري والتنظيمي؟".

البرنامج الثاني: "بانوراما"، ويتوقف في حلقة من حلقاته أمام قرار الحكومـة الأمريكية بإغلاق وحدة تعقب بن لادن.

البرنامج الثالث: "العين الثالثة"، ويخصص حلقة مهمة عن معتقل غوانتنـامو الشهير، وعنوانها "الموت في غوانتنامو".

- **احتضار القاعدة:**

أذاع برنامج "تحت الضوء"، الذي يقدمه مهند الخطيب، حلقة يوم الثلاثاء ١٠-٥-٢٠٠٥، لمناقشة ما يعانيه تنظيم القاعدة من أعراض الاحتضار الفكري والتنظيمي.

شارك في البرنامج ثلاثة من الخبراء والمتخصصين:

مشاري الذايدي (كاتب صحفي)

د. ضياء رشوان (خبير في شؤون الحركات الإسلامية)

واين ماديسون (خبير أمريكي في شؤون الأمن القومي)

**** ناقش البرنامج عدداً من المحاور:**

- التفريق بين القاعدة كتنظيم والقاعدة كفكرة.
- درجة تأثر التنظيم باعتقاد شخص بعينه.
- درجة وجود التنظيم في ساحات مختلفة.
- حقيقة تراجع تنظيم القاعدة في العراق.
- الجهود المبذولة لتضييق الخناق على القاعدة.

يشير الدكتور ضياء رشوان، بصدد الحديث عن المحور الأول، إلــى عنــف وقوة الضربات المتلاحقة التي أصابت التنظيم، وهي ضربات كفيلة بإجهــاض قــواه والحد من خطورته، لكن يشير – في الوقت نفسه – إلى ما سبق أن أشرنا إليــه فــي موضع سابق، ونعني بذلك تحول القاعدة من تنظيم إلى حالة وفكرة:

"تنظيم القاعدة كتنظيم لا شك أصيب بضربات قوية خــلال الأعــوام الثلاثــة الماضية، الضربة الأولى كانت في فقدانه المنطقة الجغرافية الرئيــسية التــي كــان يتحرك منها ويستند إليها وهي أفغانستان ودولة طالبان هناك، تلك هــي الخــسارة الرئيسية الأولى، وفقدان أي تنظيم أو أي قوة مسلحة حتى فقدانها لقاعدتها الرئيسية للمناطق الآمنة التي تقيم فيها إنما يعد الخسارة الكبرى في أي لحظة مــن لحظــات تطورها، أيضاً عرفنا بعد ذلك أن هناك بالفعل خسارات كثيرة بــشرية أصــيب بهــا التنظيم في صفوفه القيادية الثانية والثالثة والرابعة على الأقل، وبخاصة أيضاً فــي نفس المنطقة أي منطقة باكستان أفغانستان وهي المنطقة التي يوجد فيها التنظــيم بشكل خاص، انتهى الأمر بالتنظيم كما نعلم جميعاً اليوم إلى أنه موجود بالفعل حول قيادتيه الرئيسيتين أسامة بن لادن وأيمن الظواهري وبعــض آخــر مــن القيــادات الرئيسية في التنظيم في منطقة ما قد تكون في أفغانــستان أو مــا بــين باكــستان وأفغانستان ومحاطين بقبائل أو عدد من القبائل الباشتون وحركة طالبان، ويحاولون الحفاظ على أنفسهم في هذه المنطقة وفي نفس الوقت انضمت إليهم أو انضم إلــى هذا التحالف بعض من خصوم النظام الحالي في أفغانستان، وبالتحديد الــسيد قلــب الدين حكمت يار، ومن ثم فقد أصبح بالفعل هناك صعوبات حقيقيــة أمــام التنظــيم كتنظيم في التحرك خارج هذه المنطقة الجغرافية التي يمكن أن نعتبرهــا حتــى الآن حاضنة طبيعية أو شبه طبيعية للتنظيم؛ لأنه يجب ألا ننسى أن هذه المناطق ذاتهــا هي التي شهدت ميلاد فكرة القاعدة، وأن أسامة بن لادن أقام هناك فترة طويلة جداً من عام ١٩٧٩ على الأقل، وأن أيمن الظواهري أيضاً قضى أكثر من عشرة أعــوام

في هذه المنطقة، وأن هناك علاقات متبادلة بعضها علاقات أسرية وعلاقات نسب ومصاهرة يقوم بها أو قام بها أعضاء التنظيم مع سكان هذه المناطق، وبالتالي نعلم أن تنظيم القاعدة الآن محدود جغرافياً في هذه المنطقة، محدود أيضاً من حيث القدرات المالية واللوجستيكية بحكم الحصار الدولي الذي فرض عليه في الأعوام الأخيرة، فقد عدداً كبيراً من قياداته البشرية، لكن كل هذا شيء والحديث عن نموذج القاعدة الذي ربما يكون جزءاً من حوارنا هذه الليلة، شيء آخر، فهذا النموذج وهذه الفكرة شهدت تطوراً مخالفاً ومعاكساً تماماً لما شهده التنظيم في اتجاهه نحو الضعف".

خسائر جغرافية وبشرية وعسكرية لا يمكن التشكيك في أهميتها، وتراجع ملموس ظاهر لا سبيل إلى إنكاره، وانكماش نسبي للقيادات الفاعلة التي اشتهر بها التنظيم واكتسب قدرته على التأثير، لكن التمييز ضروري بين المسارين التنظيمي والفكري. تراجع التنظيم في كثير من معاقله، لكن أفكار التنظيم وأيديولوجيته انتقلت في المقابل إلى أماكن أخرى لم يكن متواجداً فيها، أو كان وجوده محدوداً، واكتسب جموعا من الأنصار والمتعاطفين الذين لا تربطهم بالتنظيم الأم صلة مباشرة، لكنهم يتبنون أفكاره، وينحازون إلى رؤاه، والأخطر من ذلك أنهم يشرعون في تنفيذ عمليات إرهابية في أماكنهم المحلية دون تنسيق معه.

المخيف، على حد تعبير مشاري الذايدي، في مداخلة تليفونية في الرياض، ليس التنظيم بالمرصود للعين الأمنية: "المخيف أحياناً أنه قد يكون خلايا هنا أو هناك تعمل من تلقاء ذاتها وتتحرك بمحرك ذاتي".

المسألة الثانية، التي يناقشها البرنامج، تتعلق بالمبالغة في تقييم اعتقال أحد قيادات القاعدة، فقد ثارت ضجة إعلامية عند اعتقال "أبو فرج الليبي" في باكستان، والسؤال الذي يحتاج إلى إجابة موضوعية معتدلة متزنة: هل توجد أهمية حقيقية لاعتقاله، تتناسب مع الصخب الإعلامي؟!.

الحقيقة، كما يقول ضياء رشوان، أن موضوع الحرب على الإرهاب، وبخاصة من الجانب "الأمريكي وأيضاً من الجانب الباكستاني كثيراً ما يتخلله اعتبارات مختلفة عن الاعتبارات الحقيقية للحرب على الإرهاب، بمعنى أن هناك بعض الاعتبارات الإعلامية أحياناً والاعتبارات السياسية المتعلقة مثلاً بعلاقة باكستان بالولايات المتحدة الأميركية، ورغبتها في إثبات حسن نواياها وقدرتها على القيام بهذه المهمة، وبذلك يحدث أحياناً أن تتم المبالغة في بعض الشخصيات وأهميتها، مثلاً أبو الفرج الليبي قدم على اعتبار أنه الشخص الثالث للقاعدة، وهذا الموقع سبق أن قدم فيه خالد الشيخ محمد وقدم فيه أيضاً أبو زبيدة، المشكلة أننا لا نستطيع حتى الآن وفي أي لحظة أن نحكم على ذلك إلا بالفترة التي تلي القبض على أحد الأشخاص من زاويتين: الأولى أنه إذا قام بتقديم معلومات كافية لأجهزة الأمن توصل إلى القبض على أشخاص آخرين مهمين هذا يعني أنه يحتل مكاناً مهماً في السلم القيادي، والمؤشر الثاني أن تتوقف بعض العمليات التي كانت تتم في بعض الأماكن التي كان من المفترض أن يكون الشخص مسؤولاً عنها، وبالتالي من المبكر الآن الحكم على أهمية أبو فرج الليبي ويجب الانتظار قليلاً حتى يمكن التعرف على هذين المؤشرين".

فارق كبير بين الجدوى الفعلية في اعتقال أحد قيادات القاعدة، وبين المبالغة المقصودة في تضخيم أهمية هذا الاعتقال لأسباب سياسية أو انتخابية. سقوط أبو فرج لا يمثل نقطة فارقة في آليات عمل تنظيم القاعدة، وما يذهب إليه الدكتور رشوان يؤكده الأمريكي وأين ماديسون، والخبيران- المصري والأمريكي – لا ينفيان أهمية اعتقال بعض قيادات وعناصر القاعدة، لكنهما يرفضان المبالغة في تقدير قيمة غير حقيقية لمثل هذه الاعتقالات. هذه الرؤية المتزنة تتسق مع الفكرة السابق الإشارة إليها، حول تحول التنظيم إلى فكرة ونموذج، كما أنها تتوافق مع المحور الذي يتوقف أمامه البرنامج بعد ذلك، وهو انتشار التنظيم، الفكرة والأيديولوجية والنموذج، في ساحات مختلفة عن تلك التي كان يشغلها.

هذه الساحات قائمة، أو مازالت بقاياها قائمة، في المملكة العربية السعودية والعراق وباكستان، وأماكن أخرى محتملة، وعن النموذج العراقي يقول مشاري الذايدي:

"هناك تنظيمات أصولية موجودة في العراق قبل انهيار النظام، وتحمل ذات الفكر وذات الملامح الأيديولوجية، ويأتي على رأسها مجموعة أنصار الإسلام مجموعة كاريكار وأيضاً مجموعة أنصار الجيش أنصار السنة الذي يقوم بجزء كبير من العمليات الإرهابية الموجودة في العراق، وبالتالي لا يجوز أن نقلل من أهمية الوجود أو الإمكان القاعدي من الأساس إذا تكلمنا عن القاعدة كفكر، فيما يخص الترابط بين هذه الساحات".

هزيمة القاعدة في إحدى الساحات، أو حتى في مجموعة من الساحات، لا ينفي أنها تحقق بعض النجاحات والمكاسب في ساحات أخرى، وتتأكد المقولة السابقة فيما يضيفه الدكتور ضياء رشوان:

"مثل شركة ماكدونالدز لها فروع في أماكن كثيرة من العالم، ولا يمكن للمركز الرئيسي أن يتحكم في هذه الفروع. هو فقط يعطي لها طريقة صنع الطعام، ويعطي لها الماركة المسجلة وهي حرة في التصرف، هذا ما يحدث الآن أسامة بن لادن وأيمن الظواهري في رأيي من الناحية الموضوعية أنهوا مهمتهم، والقاعدة كتنظيم لم يعد له الآن وجود حقيقي، الموجود الآن هو تلك الفروع، هذه الأفكار، هذه النماذج التي تنتشر والتي يعد بالفعل العراق هو الآن نقطة الارتكاز الرئيسية والجديدة لها".

هل تراجع تنظيم "القاعدة" في العراق؟

هل نجحت الجهود المبذولة في تضييق الخناق على "القاعدة"؟!

الإجابة عن السؤالين السابقين وثيقة الصلة بتحديد طبيعة المواجهة المطلوبة لتحقيق التراجع وإحكام الحصار، ذلك أن الفجوة واسعة بين التصدي الأمني لممارسات

الإرهاب، والمواجهة الفكرية للخطاب الإرهابي الذي يتكئ على معطيات دينية وينطلق منها ويفيد من السريان السريع لكافة الرؤى والاجتهادات التي تنتسب إلى العقيدة والشريعة.

يطالب مشاري الذايدي بإصلاح الفكر الديني السائد والمهيمن على عقول الشباب، فطالما أنه بمنأى عن الإصلاح والاستجابة لضرورات العصر ومتغيراته، يبقى تجنيد الأنصار الجدد متاحاً وقائماً. المسئولية إذن، في تحديد مستقبل الإرهاب، تقع في المقام الأول على عاتق المؤسسات الدينية، ولابد من الاعتراف بأن هذه المؤسسات مقصرة في أداء دورها المنشود، وعاجزة عن تقديم بديل مشبع متكامل يصنع مناخاً وسطياً ينبذ غلواء التطرف والإرهاب.

- **إغلاق وحدة التعقب:**

يوم الأربعاء ٥-٧-٢٠٠٦، قدمت منتهى الرمحي حلقة من برنامج "بانوراما"، عن قرار إغلاق وحدة تعقب بن لادن، التابعة لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية. القرار يفتح باب التساؤل واسعاً عن الأسباب التي دعت إليه، والتبعات التي قد تترتب عليه.

السؤال الأساسي الذي لابد أن يتبادر إلى أذهان المشاهدين، والأغلب الأعم منهم لا يعرف بوجود الوحدة، أو لا يعرف شيئاً ذا بال عنها: ما طبيعة هذه الوحدة؟ ومتى تم إنشاؤها؟ وما أهدافها وأهم إنجازاتها؟!.

عن هذه الأسئلة تجيب منتهى في تقديمها القصير:

"منتهى الرمحي: وحدة تعقب بن لادن في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية أو محطة أليك كما تُعرف أنشئت عام ٩٦، وبعد عقد من الزمان قررت السي آي إي إغلاقها حسب ما ذكر مسؤول فيها، السبب هو أحد الأسباب التالية كما أوضح المسؤول وهو تراجع أهمية هذه الوحدة بعد اعتقال وتصفية أعضاء كبار في

تنظيم القاعدة، مما جعل التنظيم في وضع أضعف مما كان عليه في السابق، غير أن ثمة من يتساءل إن كان إلقاء القبض على بن لادن لم يعد يمثل أولوية للولايات المتحدة، أو أن إغلاق الوحدة جاء بعد فشلها في اعتقاله حتى الآن ".

هل انتهى الصراع الأمريكي ضد الإرهاب، وحُسمت المعركة، حتى يتم اتخاذ مثل هذا القرار؟!. أسامة بن لادن حر طليق لم يتم اعتقاله، ولم تنجح الجهود في إلغاء أنشطته بالكامل، فهل تراجعت أهمية الشخص الذي يمثل العدو الأول للولايات المتحدة؟!. بصياغة أخرى: هل يمثل قرار إغلاق الوحدة تعبيرا عن النجاح في أداء مهمتها، أم أنه يجسد الفشل الذريع؟!.

أحد الرؤساء السابقين للوحدة، يرفض قرار إغلاقها، ويطرح أسباباً وجيهة للموقف المعارض الذي يتبناه:

"مايكل شور (رئيس سابق لوحدة القبض على بن لادن في السي آي إيه): أعتقد أنه من الخطأ بمكان تفكيك الوحدة؛ فأسامة بن لادن لا يزال يشكل المهدد الأهم والخطير للولايات المتحدة، وهو الشخص الوحيد الذي أجمع الرئيس وقادة الحزب الديمقراطي على أنه يستطيع تفجير أسلحة الدمار الشامل داخل أميركا، وبالتالي فإن تفكيك الوحدة قرار يثير التساؤلات".

التداخل قائم بطبيعة الحال بين التنظيم وقائده المؤسس، وليس من برر لقرار الإغلاق إلا باعتقال أسامة، وهو ما لم يحدث، فلماذا اتخذ القرار الذي يوحي – ظاهرياً – بأن أسامة بن لادن لم يعد في قمة الأولويات الإستراتيجية لمكافحة الإرهاب؟!.

لا تناقض بين مطاردة أسامة، الشخص، ومحاربة التنظيم، ومن السذاجة بمكان أن يُقال إن قرار الإغلاق يهدف إلى "تركيز الجهود" على التنظيم، فهل كانت الوحدة المغلقة هي السبب في غياب التركيز؟!.

التفسير الأقرب إلى الإقناع هو ما يطرحه عمرو الشوبكي:

"عمرو الشوبكي: أعتقد لأنه لم يعد لها فائدة كبيرة، وهي وحدة أسست لمواجهة خطر مركزي يسمى تنظيم القاعدة وفق تصور كان سائداً في ذلك الوقت وتحديداً عقب ١١ سبتمبر يقوم على أن تنظيم القاعدة تنظيم متسلسل هيراركي تُصدر فيه الأوامر والتكليفات بشكل مركزي، ويقوده أسامة بن لادن وأيمن الظواهري من أفغانستان، الواقع أثبت أن هذا التنظيم المركزي تكاد تكون آخر عملية وأهم وأكبر عملية قام بها هي ١١ سبتمبر وتفجيرات نيويورك، وبالتالي تحول هذا التنظيم بعد الغزو الأمريكي لأفغانستان وبعد سقوط نظام طالبان، وبعد حصار رموز القاعدة واعتقال البعض الآخر تحول إلى نموذج أو أمثولة أو طريقة في العمل، تستطيع أن تتواصل مع عشرات الخلايا النائمة أو النصف النائمة في كثير من بقاع العالم عبر النت وعبر وسطاء كثيرين، بل إن البعض اجتهد بطريقته الخاصة في أن يقدم أعمالا عنيفة وأعمالا إرهابية بمعزل عن تنظيم القاعدة ومتأثرين بنهجه أو بأمثولته، ومن هنا أتصور أنه لم يعد هناك فائدة عملية ربما منذ فترة طويلة، وربما كانت الولايات المتحدة ترغب في إطار الحرب الإعلامية مع القاعدة ومع الجماعات الراديكالية الإسلامية أن تصور أن هناك خطرا مركزيا يحيا بها اسمه تنظيم القاعدة، أعتقد بهذا الحل هناك اعتراف عملي بأن هذا الخطر المركزي لم يعد موجوداً وأننا أصبحنا أمام خلايا متفرقة في كل بقاع الأرض ".

سقوط واعتقال ابن لادن لا يعني نهاية القاعدة، الفكرة والنموذج، ومن هنا يأتي قرار الإغلاق تعبيراً عن إيمان الإدارة الأمريكية بأن الأمر قد تجاوز شخص أسامة، وأنه لم يعد مبرراً أن تنصب الجهود كلها على اعتقاله، والترسيخ لفكرة أن هذا الاعتقال هو نهاية المطاف. لقد تبخر الاعتقاد السابق بأن نهاية أسامة هي نهاية التنظيم الذي أسسه، فقد تحولت "القاعدة" إلى "قواعد"، وإذا لم تكن هذه القواعد قد أفرزت قيادات في وزن أسامة، فإن هذا لا ينفي حقيقية استقرار الفكر القاعدي واستقلاله الملموس عن شخص المؤسس.

من ناحية أخرى، فثمة حقيقة لا يمكن إنكارها، وهي أن أسامة بن لادن قد تحول إلى "رمز" بالغ الأهمية، يرادف "الإرهاب" في الذهن الأمريكي. وربما كان قرار إغلاق الوحدة المخصصة لمطاردة زعيم تنظيم القاعدة، بمثابة الشروع في تهيئة الأجواء لمرحلة جديدة، تترسخ فيها الفكرة القائلة بأن نهاية أسامة لا تعني نهاية التنظيم. المؤشر المهم هنا، فيما يتعلق بمستقبل الإرهاب، أن هذا المستقبل لن يحفل كثيرا بالأفراد والشخوص والرموز!.

▪ الموت في غوانتنامو:

يوم الجمعة ١٤-٧-٢٠٠٦، قدم أحمد عبد الله حلقة مهمة من برنامج "العين الثالثة"، عنوانها: "الموت في غوانتنامو".

السعوديان، مانع العتيبي وياسر الزهراني، كانا ضمن قائمة المعتقلين في سجن غوانتنامو، وقد تم الإعلان عن انتحارهما، في الوقت الذي أكدت فيه أسرة كل منهما أنه قُتل ولم ينتحر، أما المنظمات الدولية المنشغلة بالدفاع عن حقوق الإنسان فقد أكدت أن الظروف المصاحبة لعملية الاعتقال في غوانتنامو قد تدفع إلى الانتحار.

السؤال المحوري الذي يسعى التحقيق التليفزيوني المهم إلى الإجابة عنه، هو:

"هل انتحرا أم قتلا في معتقل وصفه البعض بوصمة عار في تاريخ الديمقراطية الأمريكية؟ "

الإجابة عن السؤال السابق ليست نهاية المطاف، فهي بمثابة المقدمة الضرورية للتوقف أمام قضية تتجاوز الفردين موضوع البرنامج: ما الأسلوب الأمثل في التعامل مع المتهمين بالإرهاب؟ وإلى أي حد يسهم أسلوب التعامل في التأثير الإيجابي أو السلبي على مستقبل الظاهرة الإرهابية؟ لا شك أن آفاق مستقبل الظاهرة وثيق الصلة بالأسلوب المتبع في مواجهتها، ومع تعدد الأساليب الأمنية والسياسية والفكرية، تبقى فكرة التعذيب المتطرف، الذي قد يدفع إلى الانتحار، دليلاً على غياب المنهج المتكامل

المتماسك عند الإدارة الأمريكية. الحالتان اللتان يعرضهما البرنامج عن مانع العتيبي وياسر الزهراني، وغيرهما كثير، تطرحان شكوكاً كثيرة حول جدوى المنهج الأمريكي المتبع وما قد يترتب عليه من آثار: هل يفلح التعذيب في التصدي للإرهاب، أم أنه يزيد الأمور تعقيداً واشتعالاً؟!. إذا ترسخ عند الإرهابيين يقين بما سوف يتعرضون له من معاناة تفوق القدرة على التحمل عند اعتقالهم، فإن ذلك سيزيدهم إصراراً على المضي في طريق الإرهاب والعنف، أم أنه سيدفعهم إلى التراجع؟!.

يستعرض البرنامج آراء شتى، تجمع على رفض أساليب التعذيب المتبعة، والذين يبحثون عن التبرير لا يملكون الموافقة على ما يحدث من انتهاكات، أو كما يقول أحدهم:

"لكن في النهاية غوانتنامو هي رد فعل، ممكن رد فعل غبي، ممكن رد فعل فاشل، ولكن هو رد فعل لتحديات شيء موجود في الأعلى اللي هو الإرهاب التكفيري".

أي فارق موضوعي بين الإرهاب الذي يمارسه التكفيريون والإرهاب الذي تمارسه الدولة؟!. إنه "رد فعل غبي"، ولابد أن يقود إلى نتائج سلبية.

يبدأ البرنامج برحلة شاقة للتعرف على الإطار المكاني والبيئة الأسرية والفكرية لأحد اللذين قيل إنهما انتحرا:

"أحمد عبد الله: كان علينا قطع نحو ٥٠٠ كيلو متر شمال غربي السعودية لنلتقي أسرة رفضت الرواية الأميركية بأن ابنها قد انتحر في غوانتنامو، تعيش أسرة مانع العتيبي في بلدة القرارة التابعة لمحافظة الدوادمي وهي بلدة صغيرة وسط البادية، اصطحبنا محمد جهجاه العتيبي ابن عم الراحل مانع ليعرفنا بالأسرة والبيئة التي ترعرع فيها وسط أهله وأصدقائه، ولماذا لا يصدق أحد منهم رواية الانتحار لشخص يقولون إنه قوي الشخصية وشديد الإيمان، مانع العتيبي ذهب وهو في ٢٤ من عمره إلى باكستان وأفغانستان من أجل الدعوة والتذكير كما يقول أهله، ذهب

قبل أحداث ١١ من سبتمبر بنحو ٣ أشهر، ذهب لينتهي به الأمر في غوانتنامو، وبعد نحو ٥ سنوات من الاعتقال عاد إلى أسرته جثة هامدة، هو توفي والده عندما كان عمره عاماً واحداً فتولى تربيته جده وأعمامه، وقضى مع أولاد عمومته معظم أوقات طفولته وشبابه".

حكاية مانع العتيبي تتكرر كثيراً عند آلاف من الشباب المسلم، في السعودية وغيرها: إيمان قوي يدفعه إلى الانخراط في صفوف من يعتقد أنهم يحملون لواء الحق والدفاع عن الدين ومبادئه وشريعته. ما يقوله أفراد الأسرة يؤكد على أن فعل الانتحار، مهما يشتد التعذيب، ليس وارداً. هكذا يؤكد أعمام مانع، وعن هذا المعنى تتم الرسالة الوحيدة التي أرسلها مانع إلى أسرته بعد الاعتقال.

ولا يختلف الأمر كثيراً بالنسبة لياسر الزهراني، فوالده العميد المتعاقد "طلال الزهراني" يرفض فكرة انتحاره.

في المقابل، ترد الإدارة الأمريكية بأن الانتحاريين الذين ينفذون عمليات إرهابية يدركون أنهم ميتون فيها، لا يُستبعد انتحارهم، كما أن بعض النشطاء في المنظمات الدولية لحقوق الإنسان، لا يستبعدون – موضوعياً – فكرة الانتحار الناتجة عن الظروف المادية والنفسية القاسية داخل المعتقل:

"نيكول شويري (منظمة العفو الدولية): لا شك أن ظروف الاعتقال والتعذيب الذي يلقاه المعتقلون في غوانتنامو من الممكن جداً أن تدفع بالمعتقلين لمحاولة الانتحار، هذه ليست المحاولات الأولى، واليأس والظروف التي يقاسيها أو التي يعاني منها المعتقلون قد دفعت بالعديد إلى محاولة الانتحار سابقاً، ونحن حذرنا من هذا الأمر وللأسف توقعنا حدوثه، وهنا نلقي باللوم بالشكل الأساسي على الإدارة الأميركية التي لم تأخذ أي مبادرة وأي خطوة للتحقق من العذاب التعذيب الجسدي والنفسي الذي يعاني منه المعتقلون في غوانتنامو".

انتحرا أم قُتلا؟!

السؤال مطروح ولا تعني الإجابة عنه شيئاً حاسماً، ذلك أن المتفق عليه عند الجميع هو أن ما يحدث في المعتقل ذي السمعة السيئة يمثل انتهاكاً صارخاً لكافة حقوق الإنسان، وفعل الانتحار نفسه – إن صح – دليل على المعاناة غير المحتملة:

"نيكول شويري (منظمة العفو الدولية): عن التصريحات التي قام بها بعض المسؤولين الأميركيين يعني تظهر ازدراء للحياة البشرية، إن الإدارة الأميركية لم تحترم هؤلاء المعتقلين في حياتهم ولم تحترمهم حين توفي، هؤلاء المعتقلون لم يقدموا للمحاكمة ولم يحق لهم حتى الآن الطعن بقانونية اعتقالهم؛ لأنه لم يتوفر لهم أي محاكمة عادلة، لا بل لم يُتهموا لم توجه لهم أي تهمة، وما نطالب به هناك كمنظمة عفو دولية هو يا إما إطلاق سراح هؤلاء المعتقلين إذا لم يكن هنالك تهم توجه لهم، أو بمحاكمتهم محاكمة عادلة، إذا كان هنالك أي شك أو أي تهمة وُجهت لهم، إنما حتى الآن لم نلق آذاناً صاغية في الإدارة الأميركية للأسف ".

الكلمات السابقة تقدم صياغة مثالية لما ينبغي أن يكون: المتهمون بالإرهاب إما أبرياء ينبغي إطلاق سراحهم، وإما أنهم مدانون يخضعون للمحاكمة. التعذيب الوحشي الذي يدفع إلى الانتحار سلوك لا علاقة له بحقوق الإنسان، كما أنه لا يجدي نفعاً في الحرب ضد الإرهاب، بل إنه موضوعياً يقود إلى تدعيم الظاهرة الإرهابية وتهيئة المناخ المنتج للمزيد من الإرهابيين.

يستعرض البرنامج بعض ما يتعرض له المعتقلون من تعذيب وإهانات، على المستويين الجسدي والنفسي، ويستعين بمصادر مختلفة لتشكيل لوحة بعيدة عن الانحياز: أسرتا الضحيتين، ممثلو المنظمات الحقوقية، محامو أسرتي مانع وياسر، مندوبون عن الإدارة الأمريكية. الدفاع عن المعتقل وما يحدث فيه من انتهاكات ليس واردا، والدفاع عن الإرهاب وأفكاره وأنصاره ليس مطروحا. المسألة في إيجاز هي البحث عن ضمانات العدل، وضرورة أن يعامل المتهمون بالإرهاب على اعتبار أنهم بشر لا مسوغ لإهانتهم وتعذيبهم:

"جوشوا كولانغيلو بريان (محامي جمعة الدوسري وبعض المعتقلين): أن نقول يجب أن يغلق معتقل غوانتنامو فهذه حقيقة لا تعني شيئاً، إن السؤال هو ماذا سيحدث لو أُغلق غوانتنامو؟ ومن ثم من غير المقبول أن يُغلق غوانتنامو ويؤخذ الناس إلى مكان سري آخر، أما أن يغلق نتيجة منح المعتقلين محاكمة عادلة فهذه مسألة مختلفة كلياً ".

معتقل غوانتنامو أحد أسلحة السياسة الأمريكية في الحرب ضد الإرهاب، وهو سلاح يرتد على من يطلقونه، ويبرهن على التخبط وغياب المنهج المتكامل المدروس لمواجهة الظاهرة الإرهابية الآخذة في التصاعد.

مستقبل الإرهاب، من منظور البرامج التي تقدمها قناة "العربية"، يدور حول ثلاثة محاور رئيسية:

- احتضار وتراجع تنظيم "القاعدة" لا يعني النهاية، فقد شاعت الفكرة وحظيت باستقلال عن التنظيم الذي تحول إلى نموذج.
- الإرهاب ظاهرة موضوعية يتجاوز الأفراد والأشخاص مهما علت مكانتهم وأهميتهم، والحرب الحقيقية ضد الأفكار دون الأشخاص.
- الإرهاب المضاد، كما يتجسد في معتقل غوانتنامو، ليس هو العلاج الناجح، ذلك أنه يصيب في خانة تقوية الإرهاب ولا يقود إلى إضعافه.

تفجيرات لندن:

لم تكن العملية الإرهابية الدامية التي شهدتها لندن في ٧-٧-٢٠٠٥، إلا حلقة جديدة من مسلسل الإرهاب الذي تتنامى رقعته الجغرافية وتمتد إلى أماكن وبقاع كانت تبدو نائية وبعيدة عن أيدي الإرهابيين.

لقد أشرنا فيما قبل إلى أن الديمقراطية البريطانية لا تضيق بالآراء المخالفة مهما يشتد تطرفها وغلوها، كما توقفنا أمام اسم "لندنستان" الذي شاع إطلاقه على العاصمة الإنجليزية، تعبيراً عن تصاعد نفوذ التطرف الإسلامي، عبر التناغم بين اللاجئين المهاجرين والمسلمين المحليين.

قدمت قناة "العربية" تغطية متميزة للأحداث الإرهابية التي هزت لندن، ويمكن استنباط ملامح هذه المعالجة من خلال ثلاثة برامج: الأول هو "تحت الضوء"، والثاني هو "السلطة الرابعة"، والثالث هو "مشاهد وآراء".

المسئولية البريطانية:

في ١٢-٧-٢٠٠٥، قدم مهند الخطيب حلقة من برنامج "تحت الضوء"، ناقش من خلالها دور بريطانيا، ضحية الحدث الإرهابي، في وقوع العملية داخل أراضيها، من منطلق أنها أوت المتطرفين ودعمتهم بإضفاء الحماية على أنشطتهم. المستضافون في الحلقة هم:

- ياسر السري، مدير المرصد الإسلامي في لندن.
- مشاري زايدي، الكاتب في صحيفة الشرق الأوسط.
- اللواء رؤوف المنادي، مدير الإعلام والعلاقات بوزارة الداخلية المصرية سابقاً.

ومن خلال هؤلاء المشاركين، مختلفي المشارب والاتجاهات، تناقش الحلقة عدداً من النقاط المهمة المرتبطة بالقضية الأساسية:

- الفارق بين إيواء مضطهدي الرأي والمتطرفين.
- هل تساعد أجواء الانفتاح على نشر التطرف؟
- مسئولية مسلمي بريطانيا عن تفجيرات لندن.
- هل تدفع الجالية المسلمة ثمن التطرف؟

يجمل مهند الخطيب، في تقديمه للحلقة، أهم الأهداف التي يراودها، ويتمثل طرحه في مجموعة من الأسئلة التي تتناول ما قبل الحادث من ناحية، وما قد يترتب عليه من ناحية أخرى:

"ما الذي دفع بريطانيا إلى الإصرار على تلك الرعاية للمتطرفين؟

وهل الحكومة البريطانية مدركة الآن أن مثل هذه الرعاية ساعدت في تحويل بريطانيا إلى مسرح للأعمال الإرهابية؟

ها هناك من علاقة بين تلك الرعاية والحماية للمتطرفين وبين أحداث العنف الأخيرة في لندن؟

وهل ستؤدي تلك الأحداث الدامية بالحكومة البريطانية إلى إعادة النظر في ذلك التوجه الذي يعتقد الكثيرون بأنه أدى إلى تعزيز قدرة المتطرفين على نشر تطرفهم؟

وهل سيؤدي ذلك إلى تعزيز التعاون الدولي في مكافحة الإرهاب؟ "

ما الذي تئول إليه كلمة "الديمقراطية"، عندما تستوعب من يعادونها ويتربصون بها ويصرون على استثمار المناخ الديمقراطي لممارسة العنف وترويع الآمنيين؟!.

تقدم الحلقة رؤيتين متعارضتين، ومن خلالهما يمكن استنباط اتجاهين متنافرين متناقضين تماماً في النظر إلى علاقة الديمقراطية بالإرهاب.

يميز مشاري الذايدي بين مضطهدي الرأي والإرهابيين، ولا يخفي دهشته من السماح بالنشاط العلني الحر لمن يؤيدون الإرهاب، فكريا، ويدعمونه، عمليا، مستشهداً بعدة نماذج واقعية، وصولاً إلى:

"أن مثل هذا الإيواء الذي مُنح لأناس هم أعداء للحرية في حقيقة الأمر كان لابد أن يأتي يوم وينعكس على من وفر هذا الغطاء، لا تستطيع أن تلعب بالنار

وخصوصاً النار الدينية؛ لأنها قد تطال بشررها وضررها الجميع، وهذا ما تم في لندن كما شاهدنا في الأيام الأخيرة للأسف الشديد".

الدفاع عن آليات وقواعد النظام الديمقراطي لا يعني السماح بتخريب النظام نفسه، وهي المهمة التي يقوم بها من لا يؤمنون بالديمقراطية مع الاستفادة من مناخها الحر. دفعت لندن ثمناً فادحاً للتسامح غير المحسوب، وللخلط غير المبرر بين من يفرون إليها نجاة من مطاردة حقوقهم المشروعة المسلوبة في إبداء الرأي، ومن يلوذون بها لدعم الإرهاب والدعوة إلى المزيد منه.

على الجانب الآخر يقف ياسر السري، فهو يرفض- منذ البدء - الإقرار بوجود "الإسلام العنيف"، الذي يدعو إليه إسلاميون متشددون، ويرى أن الإسلام واحد، فكأنه بذلك لا يرى فارقاً بين المنخرطين في صفوف التنظيمات الإرهابية وبين المسلمين العاديين البعيدين عن الغلو والتطرف والعنف. وعلى الرغم من أن ياسر السري نفسه لا يؤمن بالفكر الديمقراطي، فإنه يتشبث به طالما أنه الوسيلة الوحيدة لتحقيق الأهداف التي يراهن عليها. يقول ياسر كأنه من عتاة الديمقراطيين:

"السلطات البريطانية تلتزم بالقوانين، ولكن للأسف الشديد بعض الإعلاميين يقوم بعمليات تحريض، وأنا هنا أقصد أن يكون ملكي أكثر من الملك، أصحاب البلد هنا يلتزمون بأنهم يتعاملون في إطار القوانين والحريات التي نفتقدها في بلداننا، فهذه القوانين هنا لا يستطيع توني بلير أو حكومته أن تقفز على هذه القوانين وأن تعتقل الأبرياء".

واللافت للنظر أن السري لا ينفي تورط أبي قتادة في الدعوات الإرهابية وتدعيمها، لكنه يقدم دفاعاً متهافتاً عندما يقول بالحرف الواحد:

"بخصوص موضوع اتهام أبي قتادة بأنه كان يدعم الجماعة الإسلامية المسلحة. الرجل تبرأ بعد ذلك منها بعد أن ثبت له أن هناك ممارسات غير صحيحة".

هل توجد ممارسات "صحيحة" وأخرى "غير صحيحة" في الشأن الإرهـابي؟! وهل يمثل تأييد الإرهاب الذي مارسته الجماعة الإسلامية في الجزائر "خطأ بـسيطا" يمكن التراجع عنه والاعتذار بمثل هذه البساطة؟!.

الحوار السابق يقود إلى سؤال مهم، يتجاوز حادث لندن: هل تـساعد أجـواء الانفتاح على نشر التطرف؟!. ياسر السري يؤكد أن إنجلترا هي بلد الحريات، وأنه لا يوجد حجر على الآراء، وثمة حوار قصير بالغ الأهمية بين مهند وياسر:

"مهند الخطيب: حتى الأفكار العنيفة التي تحث ربما على سفك الدماء والقيام بعمليات وتبارك مثل هذه العمليات التي شاهدناها..

ياسر سري: ما يعني هنا مفهوم عنيفة؟ نحن نلتزم هنا بكتاب الله وبـالقرآن الكريم ولا ينبغي أن نقول عنيفة أو غير عنيفة، هناك يعني حتى لا ننسلخ من ديننا..

مهند الخطيب: ماذا تقصد بنحن سيد سري؟

ياسر سري: نقول نحن نحن الآن الذين نتحدث نحن كمـسلمين يجـب أن لا ننسلخ من ديننا، أقول لا ننسلخ من ديننا..

مهند الخطيب: يعني أنت تضع نفسك في نفس الصف مع أبو قتادة ومع أبو حمزة المصري؟"

رفض "الانسلاخ عن الدين"، وهو مفهوم نسبي زئبقي غير محدد، هو المدخل لتبرير الإرهاب والدفاع عنه، والقول بعدم وجود "إسلام عنيف" هو في حقيقة الأمـر نفي لوجود فكرة التطرف وممارسات الإرهاب، ذلك أن هـؤلاء المتطـرفين فكريـاً والإرهابيين عملياً يعلنون دائماً أن أفكارهم وسلوكهم بمثابـة التعبيـر عـن إيمـانهم بالإسلام، وفق فهمهم "الصحيح" له، وأنهم بأفكارهم وسلوكهم يرفـضون "الانـسلاخ" عنه!.

المناخ الليبرالي المتسامح أرض خصبة للإرهاب والفكر المتطرف، والنظـام البريطاني يسهم باستقبال هاربين صدرت بحقهم أحكام قضائية في بلادهم، من منطلق أن هذه المحاكمات غير عادلة، ولا تقدم ضمانات كافية لمن يحاكمون أمامها.

قد يكون الموقف البريطاني تعبيراً عن التمسك الكامل بحقوق الإنسان، وقد يكون صحيحاً أن الهاربين من الأحكام قد حرموا من المحاكمات العادلة، لكن السلطات البريطانية لا تهتم بالبحث في طبيعة الاتهامات التي حوكموا بسببها، ولا تميز بين آرائهم التي يحق لهم التعبير عنها، وبين أفعالهم العنيفة التي لا يمكن تبريرها والدفاع عنها.

في ظل هذا المناخ الذي يستقبل الجميع بلا تمييز، ينتعش التطرف الفكري ويبدو قادراً على دعم الإرهاب خارج بريطانيا وداخلها. ياسر السري، الذي استقبلته إنجلترا ومنحته الحماية، ذو تاريخ دموي يشير إليه اللواء رؤوف المنادي:

"هو رجل مطلوب ومتهم هارب وفي دمه وفي رقبته دم مصريين ماتوا من جراء أعماله وأعمال زملائه الهاربين من مصر".

لم يتعرض ياسر وأمثاله للاضطهاد بسبب "آرائهم" لكنهم حوكموا وأدينوا بسبب الأعمال الإرهابية العنيفة التي قاموا بها، وهي أعمال تنبع من فكر لا يتغير، وتستمر الدعوة إليه في العاصمة الإنجليزية نفسها.

مسلمو بريطانيا، الذين يقترب عددهم من المليونين، مواطنون عاديون مسالمون في الأغلب الأعم، وبعيدون عن التطرف والإرهاب، لكنهم يواجهون موقفاً لا يُحسدون عليه بعد التفجيرات التي طالت العاصمة الإنجليزية، فهم مطالبون باتخاذ موقف حاسم يبرهن على اعتدالهم ونبذهم للتطرف والعنف. لابد لهم من حركة إعلامية نشيطة، تؤكد اندماجهم في المجتمع البريطاني، وتعلن عن حقيقة أن الغالبية العظمى منهم إيجابيون فاعلون ناجحون، ينتشرون في كافة مناحي الحياة، ويسهمون في دفع المجتمع الإنجليزي وتقدمه وازدهاره:

"مشاري الذايدي: ما فيه شك أن مسلمي بريطانيا مطالبون بهذا الدور على وجه الخصوص يعني المتطرفين الذين يقومون بمثل هذه الأعمال سواء في بريطانيا أو في خارجها أو بعض الرموز التي ركز عليها الإعلام البريطاني في السابق

وأبرزها وجعلها وكأنه هي العنوان الوحيد للمسلمين، هذا الأمر مما لاشك فيه أنه قد ألحق ضرراً بالغاً بصورة المسلمين في لندن، المسلمون ليسوا كلهم على غرار أبو حمزة وأبو قتادة أو غيرهم أو على غرار صاحب الحذاء المفخخ الذي خرج من بريطانيا وألقى القبض عليه في أميركا وكان ينوي القيام بعمل إرهابي، المسلمون ليس كلهم من هذا النوع هناك مسلمون جيدون، وهناك مسلمون ناجحون على المستوى الاجتماعي وهناك علماء وهنا سياسيون وهناك أعضاء في مجالس اللوردات مسلمون، وهناك رياضيون مسلمون جيدون، وهناك إعلاميون مسلمون جيدون هناك مسلمون موجودون في كل مناشط الحياة وفي كل فعاليات المجتمع البريطاني، وهذا ما يجب على المسلمين أن يلقوا بالضوء عليه، وأن يبرزوا صورتهم بوصفهم وهم فعلاً كذلك، لكن هناك تقصير إعلامي في إبراز هذه الصورة، أتصور أنه بضع مئات قد يفسدون صورة عشرات الملايين وليس مليونين كما تذكر".

التشويه يطول المسلمين في العالم كله، وليس المسلمين المقيمين في بريطانيا وحدها، والدين الإسلامي نفسه معرض لسوء الفهم واتهامه بما ليس فيه من قيم وتوجهات. لقد نجح تيار الطرف في استقطاب عدد غير قليل من المواطنين الإنجليز المسلمين، وتم تجنيد بعض هؤلاء لمقاتلة القوات البريطانية في العراق وأفغانستان. وهكذا يتقاتل مواطن بريطاني مسلم مع مواطنين بريطانيين آخرين، من المسلمين وغير المسلمين على حد سواء!. ياسر السري لا يرى مشكلة في هذا الوضع المقلوب، وتحت شعار "الحرية" يبرر هذه الازدواجية؛ لأن الدفاع عن الإسلام والمسلمين "فرض عين"، ولا مجال فيه للاعتبارات الوطنية:

"مهند الخطيب: حر؟ يقاتل القوات التي تمثل بلده في مكان آخر من العالم؟

ياسر سري: هذا أمر حسب هو إذا كان.. هو الآن ينظر على أن.. ينظر على أن بريطانيا متحالفة مع الولايات المتحدة وتحتل العراق وأفغانستان وبالتالي هو يرى أنه يجب أنه يدافع عن بلاد المسلمين على اعتبار أن الدفاع عن بلاد المسلمين من أهم فروض الأعيان..

مهند الخطيب: إذًا أنت تؤيد أن يقاتل البريطاني القوات البريطانية إذا كان ذلك مناسباً؟ ".

لا يمكن أن يكون مثل هذا القتال بين أبناء الوطن الواحد "مناسباً"، ولا يستقيم الانتماء إلى بريطانيا مع القتال ضد جيشها. المأساة هنا هي حرص المتطرفين على تحويل الولاء من "الوطني" إلى "الديني"، ومثل هذا التحول ينسف الفكرة الوطنية من أساسها، ويعرض المواطن البريطاني المسلم إلى آثار سلبية.

ياسر سري وأمثاله لا يؤمنون إلا بجانب واحد، دون الجوانب الأخرى الكثيرة، في النظام الديمقراطي، فهم مع "الحرية" التي تمنحهم المأوى والأمان، وهم مع "الحرية" التي تبرر للبريطاني أن يحارب ضد بلاده، وهم - في المقابل - لا يبالون بنسف فكرة الانتماء الوطني من جذورها!.

هل تدفع الجالية الإسلامية ثمن التطرف؟.

هل تفسد الأقلية المتشددة الأجواء على الأغلبية المعتدلة داخل المجتمع الإسلامي في بريطانيا؟!

المؤشرات كلها تقود إلى أن الاحتمالات جميعاً قائمة، والتمسك العنيد بالتقاليد الديمقراطية الموروثة قد لا يستمر في مواجهة الضغوط المتزايدة التي تطالب بإعادة النظر والتقييم. الشعب البريطاني نفسه، بعيداً عن حكومته، قد يجد نفسه مدفوعا إلى كراهية كل ما هو مسلم وإسلامي!.

▪ تحذيرات مبكرة:

الحلقة التي قدمها طاهر بركة، من برنامج "السلطة الرابعة"، وأذيعت يوم الأحد ٧-٨-٢٠٠٥، تنبه إلى أن المملكة العربية السعودية قد حذرت البريطانيين من هجمات لندن قبل وقوعها. المعلومة الخطيرة مستمدة مما نشرته الصحف البريطانية، وقد أتى التحذير السعودي الرسمي "بعد تعقب نداءات أطلقها أحد أبرز الناشطين المطلوبين في تنظيم القاعدة، مستهدفاً خلية ناشطة في بريطانيا".

ويذكر المقال، الذي ينقل عنه البرنامج، أن التحذير السعودي "قد بُلِّغ إلى الجهات المختصة، وأن التحقيق جار على قدم وساق لمعرفة إذا كان البلاغ قد وجه بشكل مباشر إلى منفذي هجمات لندن".

وكان البرنامج نفسه في حلقة سابقة، أذيعت يوم الثلاثاء ١٩-٧ وقدمتها جيزال حبيب أبو جودة، قد نقل عن الصحف البريطانية أن الأحزاب السياسية متفقة على ضرورة الإسراع في إصدار قوانين جديدة لمكافحة الإرهاب. ومن اللافت للنظر، أن إحدى هذه الصحف، ذا ديلي إكسبرس، قد نشرت عنواناً بارزاً تقول فيه:

"امنعوا هذا الرجل الشرير من دخول بريطانيا"، والرجل الشرير المقصود هو الشيخ يوسف القرضاوي!.

الحلقتان السابقتان من برنامج "السلطة الرابعة"، تؤكدان أن تطوراً خطيراً يطرأ على الساحة البريطانية، وهو ما يتجلى في مظهرين:

المظهر الأول هو عجز السلطات البريطانيين عن الإفادة من التحذير السعودي الذي تلقته بشأن الهجمات الإرهابية المتوقعة، وهو ما يكشف عن خلل فادح وقصور ملموس في التعامل مع الظاهرة الإرهابية.

أما المظهر الثاني فهو التوجه الجديد الخطير إلى وضع جميع الإسلاميين في "سلة واحدة"، وعدم التمييز بين الاتجاهات الإسلامية المختلفة داخل الانتماء الديني الواحد، ويتجلى ذلك بوضوح في وصف الدكتور يوسف القرضاوي، وهو ممن يضافون في دائرة الاعتدال، بأنه "رجل شرير"، ينبغي منعه من دخول بريطانيا!.

ومن جانب آخر، فإن اتفاق الأحزاب الإنجليزية على أهمية إصدار قوانين جديدة لمكافحة الإرهاب، بمثابة المؤشر على أن المفهوم السائد للحرية المطلقة لم يعد قادراً على الصمود، وأن الجنة التي يمرح فيها المتطرفون والإرهابيون، متشبثين بالآليات الديمقراطية، لن تدوم أو تطول.

ما سبق يبدو متوافقاً ومنسجما مع الرؤية التي توقفنا عندها في سياق الحديث عن برنامج "تحت الضوء"، عندما ناقش مسئولية البريطانيين أنفسهم عن ازدهار التطرف والإرهاب، ويمكن تحديد المستخلصات الأساسية في النقاط التالية:

- التمييز ضروري بين حرية الرأي وفوضى الإرهاب، والهروب إلى لندن لا يقتصر على المضطهدين وحدهم، بل إنه يشمل من يمارسون الإرهاب ضد غيرهم.
- الفارق كبير داخل النسيج الإسلامي الواحد، ومن الخطورة أن يُنظر إلى الإسلام، من المسلمين وغير المسلمين، على اعتبار أنه كتلة واحدة.
- الضغوط المتزايدة المتواصلة لابد أن تؤثر على القوانين الموروثة السائدة، وأن تفضي إلى تشريعات جديدة أكثر صرامة.

كان ذلك كله نتيجة منطقية لما شهدته "مدينة الضباب" من إرهاب.

▪ إرهاب في مدينة الضباب:

في برنامج "مشاهد وآراء"، الذي قدمته ميسون عزام يوم الخميس ٦-٧-٢٠٠٦، تم عرض الفيلم الوثائقي "إرهاب في مدينة الضباب"، وبعد أن عرض الفيلم كاملاً، تمت مناقشة كثير من القضايا والآراء التي طرحها، من خلال ضيوف الحلقة:

- غسان العزي، أستاذ جامعي في العلوم السياسية.
- خير الله خير الله، كاتب صحفي.
- مشاري الذايدي، الخبير في شؤون الجماعات الإسلامية.

في تقديمها القصير، السابق لعرض الفيلم، تقول ميسون عزام:

"الحدث الذي كان أخطر ما شهدته لندن من أعمال إرهابية على مدى سنوات طويلة فتح العيون على الخطر الداهم الذي يمثله انتشار الجماعات المتطرفة في بريطانيا وغيرها من البلدان الأوربية، حدث السابع من تموز يونيو غير الكثير في بريطانيا سياسياً وأمنياً اجتماعياً، وتحديداً بالنسبة إلى ملايين العرب والمسلمين الذين يعيشون في ذلك البلد، وغير أيضاً الكثير من سياسات وتوجهات الحكومة البريطانية، الفيلم الوثائقي "إرهاب في مدينة الضباب" يطرح الأسئلة حول الأسباب وراء استهداف لندن بهذا الشكل الدموي".

القراءة النقدية للفيلم تخرج عن نطاق اهتمامنا هنا، ذلك أن الجديد بالتحليل والمناقشة هو ما يطرحه ضيوف البرنامج في تعليقهم على الفيلم الوثائقي الذي شاهدوه، لكن التوقف يبدو ضرورياً أمام بعض ما جاء في الفيلم، ذلك أن التعليقات التالية بمثابة المداخل للإحاطة الوافية بما تتم مناقشته.

(١) *" تعليق صوتي: بدأ رئيس الوزراء بإسكات المناضلين وترحيل رجال الدين الأجانب، وفي شهر مايو "أيار" ترنم عدد من الرعايا البريطانيين بتفجير بلادهم. لقد سمحنا ولمدة عشر سنوات بتجذر هذه الأفكار في وطننا فهل ندفع الثمن اليوم ".*

(٢) *"تعليق صوتي: في ذلك الوقت كانت السلطات البريطانية تعتقد أن العمل السياسي أمر مشروع وأنه من أبسط حقوق الإنسان، وأن المتطرفين العرب كانوا أحراراً في التخطيط كما يحلو لهم طالما أنهم لا يشكلون أي خطر على الداخل، وبالطبع فإن بريطانيا لم تكن هدفاً لأن لندن كانت ملجأ لنشاطاتهم، لقد سمحوا بالدخول للواعظين والمخططين والمقاتلين".*

(٣) *"تعليق صوتي: جان لويس بروجبير(قاض بقضايا الإرهاب): انتقل عدد من الأشخاص إلى بريطانيا، لماذا بريطانيا؟ لأنها اشتهرت بحمايتها لحرية التعبير أكثر من أي شيء آخر كما كانت بلدا يحلو العيش فيه، هكذا ولعدة أسباب أصبحت بريطانيا مقصداً لهم".*

(٤) *"التعليق الصوتي: سمحوا لأبي قتادة بإلقاء المواعظ في لندن مدة ثماني سنوات رغم أن السلطات كانت على علم بأفكاره المتطرفة التي كان يمررها لمسلمي بريطانيا".*

(٥) *"تعليق صوتي: حصل أبو قتادة على اللجوء السياسي هنا في العام ٩٣ وقد قابلته دوائر الأمن العام أكثر من مرة لأنهم كانوا على علم بأفكاره المتطرفة، إلا أنهم أدركوا أيضاً أنه كان مرجعاً روحياً ودينياً محترماً، في الواقع قال أحد ضباط الاستخبارات أعتقد أن أبا قتادة سيستخدم نفوذه للتحكم بغيظ الشباب وإبعاد الحركات الإرهابية عن شوارع لندن، وهكذا سمحت بريطانيا لأبي قتادة بالإقامة على أراضيها".*

(٦) "تعليق صوتي: أخيراً قال توني بلير إنه سيتصرف، لكن يبدو أن الحكومة وسياستها عبر عشر سنوات هي التي سمحت للمتطرفين بإرسال رسائل الحقد هذه لقد شاهدنا النتيجة بأعيننا".

(٧) "تعليق صوتي: أبو عز الدين: إذا حدث تناقش بين قانون الإسلام وبين القانون البريطاني فليذهب القانون البريطاني للجحيم".

الآراء والتحليلات التي يدلي بها المشاركون في مناقشة الفيلم الوثائقي، بمثابة الشرح الضافي لتسليط الضوء على الأفكار المحورية التي تقدمها المقتنيات السابقة، وأهم هذه الأفكار:

- التقاعس والإهمال وسوء التقدير في مواقف الحكومة البريطانية.
- استثمار المتطرفين والإرهابيين لمناخ الحرية لنشر دعوتهم.
- النجاح النسبي في اختراق صفوف المسلمين البريطانيين وتجنيدهم.

وفي إطار المحاور السابقة، لا يمكن إغفال الدور الذي يقوم به الإعلام في الحرب الطاحنة بين الإرهاب والحكومات الغربية، وفي هذا السياق يشدد مشاري الذايدي على أهمية الدور الذي يحتله الإعلام في فكر القاعدة، ويستشهد لإثبات ذلك الدور بما ورد في الرسالة التي وجهها أيمن الظواهري إلى أبي مصعب الزرقاوي:

"عن نصف الحرب أو ثلث الحرب تدور في ميدان الإعلام"

الفيلم المعروض جزء من الحرب الإعلامية الفكرية، والبرنامج الذي تقدمه "العربية" لمناقشة الفيلم جزء من هذه الحرب، وفي المقابل ينشط المعسكر الآخر لشن حرب مضادة. يشير الدكتور غسان العزي إلى طبيعة الحرب الإعلامية والنفسية بين القاعدة وبعض الحكومات الغربية، وينبه إلى خطورة ما يتضمنه الفيلم الوثائقي من مظاهر احتفالية صاخبة لبعض المسلمين البريطانيين، وهو يرى في المشهد المعروض مبالغة مقصودة:

"هناك عدد قليل من الأشخاص يعني تم تصويرهم على طريقة زوم إن مش زوم أوت يعني الإحصاءات تقول إنه من أصل مليون وخمسمائة ألف في بريطانيا هنا ٨٠٠٠ يتعاطفون أو يتفهمون أو يؤيدون تنظيم القاعدة أي ما نسبته ٠,٥% وهي ليست نسبة مرتفعة يعني حتى نضع الأمور في نصابها.. ".

الدفاع عن الأغلبية المعتدلة من المسلمين لا يعني التهوين من شأن السلوكيات المؤيدة للإرهاب والمحتفية بعملياته، والأرقام التي يذكرها الدكتور غسان تصطدم بمعطيات وأرقام أخرى، تشير إلى أن التعاطف الإسلامي البريطاني ليس بالنسبة الهامشية المذكورة. لقد أفاد المتشددون من مناخ الحرية، ومن معاناة وأزمات الشباب المسلم المأزوم، ونجحوا في رفع رصيد شعبيتهم ونسبة وجودهم في الشارع الإسلامي. يتجلى ذلك بوضوح فيما يقوله خير الله خير الله:

"خير الله خير الله: عملياً هناك شيء اسمه انقلاب السحر على الساحر، لقد تساهلت الحكومة البريطانية مع الإرهابيين طويلاً وكانت تقدم تسهيلات لهؤلاء الإرهابيين وتؤويهم في الأراضي البريطانية، كانت تعتقد أن ذلك سيجعلها في منأى عن شر هؤلاء، إلى ذلك كانت تستفيد من مراقبة الإرهابيين لمعرفة نوع الاتصالات التي كانوا يجرونها، ولكن في الواقع استفاد هؤلاء من مناخ الحرية الموجود في بريطانيا ومارسوا عمليات تحريض واسعة، الأرقام التي نشرت أخيراً استناداً لاستطلاع الرأي العام مثلاً أجرته صحيفة التايمز ونشر في يوم الرابع من هذا الشهر يعني قبل يومين يُظهر أن هناك نسبة ١٣% الاستطلاع أمامي نسبة ١٣% من المسلمين البريطانيين تعتقد أن الانتحاريين الأربعة يجب أن يوصفوا بشهداء، وهناك نسبة ٧% وهذا خطير جداً توافق على شن هجمات على أهداف مدنية في بريطانيا وترى أن هناك ما يبرر ذلك، وهناك نسبة ١٦% تعتقد أنه من المبرر شن هجمات على أهداف عسكرية في بريطانيا".

الأمر إذن لا يتعلق بعدة آلاف قليلة، فالتحريض الواسع الذي قام به المتطرفون حقق نجاحاً واضحاً ملموساً، والأرقام التي يتضمنها استطلاع الرأي المنشور في "التايمز" تعطي دلالات مخيفة.

١٣% من مسلمي بريطانيا، وهو ما يعادل ١٧٥٠٠٠ مسلم يرون في الإرهابيين الانتحاريين الأربعة "شهداء"، بكل ما تحمله الكلمة من هالات التقديس والإعجاب والتمجيد.

و٧% منهم، وهو ما يعني أكثر من مائة ألف مسلم، يوافقون على شن هجمات إرهابية ضد أهداف مدنية بريطانية.

و١٦% من مسلمي بريطانيا، وهو ما يمكن ترجمته عددياً إلى ما يقرب من ربع مليون، يؤيدون تنفيذ عمليات مماثلة ضد أهداف عسكرية داخل بريطانيا!.

صحيح أن الغالبية العظمى من المسلمين يقفون خارج دائرة التطرف والتعاطف مع الإرهاب والإرهابيين، لكن الصحيح أيضاً أن الأقلية المؤيدة والمتعاطفة تتزايد ولا يمكن التهوين في شأنها.

على من تقع المسئولية؟!

أهي الحكومة البريطانية بتساهلها وعدم تقديرها الصحيح، أم هم المسلمون الذين انساقوا وراء دعاوى التحريض؟، أم أن المسئولية مشتركة بين الطرفين؟!.

إلى هذه الفرضية الأخيرة ينحاز غسان العزي:

"غسان العزي: يعني المسؤولية يمكن توزيعها على أكثر من طرف، الحكومة البريطانية تتحمل مسؤولية سياسية ومعنوية، سياستها الخارجية سواء في العراق أو في فلسطين يعني ترتد عليها بطريقة أو بأخرى يعني سياستها الداخلية، ولكن هذا لا ينفي أن على المسلمين أيضاً مسؤولية كبيرة وكبيرة".

إذا كانت مسئولية الأزمة مشتركة، فإن الإصلاح المطلوب موزع – بالضرورة – بين الطرفين اللذين يتحملان مسئولية التدهور. الحكومة البريطانية مطالبة بمزيد من تحمل المسئولية، خارجياً وداخلياً، ومطالبة – أيضاً – بالتمييز بين الحرية والفوضى، وهو تمييز لا يتعارض مع الديمقراطية بقدر ما يدعمها.

والمسلمون بدورهم مطالبون بالإعلاء من شأن المواطنة، وعليهم أن يعوا حقيقة دينهم، وألا يسمعوا ويستجيبوا لمن يبشرون بأفكار غريبة عن الإسلام ودخيلة عليه ومسيئة إليه.

تفجيرات لندن، كما يتجلى في معالجات "العربية"، نقطة تحول حاسمة، ومحطة كان لابد من التوقف أمامها طويلاً لاستخلاص الدروس واستشراف المستقبل الذي ينتظر الظاهرة الإرهابية، داخل بريطانيا وخارجها.

الباب الثانى

الصحافـــة

الــــــــــشرق الأوســــــــــط

الفصل الأول

مقدمـــــة

نتوقف في هذا الباب أمام معالجة صحيفتين عربيتين بارزتين لقضايا الإرهاب، وهاتان الصحيفتان هما: "الشرق الأوسط" و "القدس العربي".

وقد وقع الاختيار على دراسة هاتين الصحيفتين تحديداً لثلاثة أسباب، تتمثل في:

١- الانتشار النسبي والقدرة على التأثير، نتيجة التفوق المهني والثراء الفكري لكل منهما.

٢- الصدور في المملكة المتحدة، وهو مشترك بينهما، يضفي عليهما قدراً كبيــراً من الاستقلالية.

٣- وجود نخبة كبيرة من المفكرين والكتاب الصحفيين، الذين يسهمون في تحرير الصحيفتين.

ولأن أشكال وأساليب التعرض لحوادث الإرهاب متنوعة، ولأن الإحاطة الشاملة بكافة فنون التحرير الصحفي تبدو صعبة، فقد رأينا أن يقتصر التحليـل علـى عينـة مختارة من مقالات وأعمدة الرأي، ذلك أنها الأكثر تعبيـراً عـن التوجـه الفكـري والسياسي للصحيفة.

يضم الباب الذي نقدم له فصلين: أولهما عن "الشرق الأوسط"، وثانيهمـا عـن "القدس العربي"، ثم خاتمة تتضمن مجموعة من المستخلصات والنتائج العامة في خاتمة الباب.

أولاً : جريدة لشرق الأوسط

لأن المتابعة الصحفية لعمليات الإرهاب تتسم بقدر كبير من التنوع، شكلاً ومضمونا، فإن الإحاطة الشاملة الوافية ليست واردة. ولاستنباط الموقف الذي تتخذه صحيفتا "الشرق الأوسط" و "القدس العربي" من أبرز العمليات الإرهابية، اعتباراً من حادث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، فقد كان لزاما أن يكون الاعتماد في التحليل على عينة مما نشرته الصحيفتان.

من الناحية التحريرية، فقد وقع الاختيار على شكل المقال الصحفي؛ لأنه الأكثر قدرة على تجسيد الموقف بوضوح وجلاء، ومن ناحية المرحلة الزمنية للعينة موضوع البحث، فقد تم حصر ما نشر في الصحيفتين عن حادث سبتمبر منذ وقوعه إلى نهاية العام الذي وقع فيه، ثم تتجدد المتابعة في الأسبوع السابق واللاحق لذكرى التفجيرات التي شهدتها الولايات المتحدة الأمريكية من ٢٠٠٢ إلى ٢٠٠٦.

يختلف الأمر بالنسبة للحوادث الأخرى؛ لأنها أقل أهمية نسبياً، وهو ما يدعو إلى متابعة المقالات المنشورة عنها خلال أسبوع من وقوعها.

المبحث الأول

تفجيرات ١١ سبتمبر:

وعلى ضوء ما سبق، فإن ما نشرته جريدة "الشرق الأوسط" من مقالات عن حـــادث ١١ سبتمبر يتضمن ما يلي:

م	العام	تاريخ النشر	عنوان المقال	اسم الكاتب
١	٢٠٠١	١٨-٩	أميركا.. ولعنة الثأر	سوسن الأبطح
			حتى لا نخدع: أفغانستان قطرة في محـــيط الحرب الكونية!	محمد الحسن أحمد
			دروس ما حدث	علي إبراهيم
			عملاق ضخم بكعب أخيل	بول كنيدي
			لا خيار أمام أمريكا إلا الحرب	عثمان الرواف
			هل تولد ضربة مانهاتن مدريد أخرى؟	عبد الرحمن الراشد
			وفي التأني السلامة	الشرق الأوسط
٢	٢٠٠١	١٩-٩	الغضب الأمريكي	رضا محمد لاري
			انطباعات عن انفجارات أمريكا	محي الدين عميمور
			أي أمريكا.. بعد "أم الكوارث"؟!	فؤاد مطر
			ثلاث رسائل	توماس فريدمان
			خطورة الكلام في الأيام الحرجة	الشرق الأوسط
			دور ضروري لعلماء المسلمين فـــي نـــزع فتيل القنابل البشرية	ويليام سافاير
			شارون يستغل العمليات الإجرامية في أميركا	بسام أبو شريف

٣	٢٠٠١	٩-٢٠	أين يكمن الخلل في النظام الأمريكي؟	عبد الهادي بو طالب
			قراءة في الركام: من كابل إلى نيويورك	سمير عطا الله
			نجاح الأمريكيين في أفغانستان يعتمد على مدى تعاون مخابرات باكستان	هدى الحسيني
٤	٢٠٠١	٩-٢٢	التداعيات الاقتصادية للإرهاب	الشرق الأوسط
			الصف الأمريكي والاصطفاف العربي – الإسرائيلي والصفقة المفتوحة	كريم بقرادوني
			المطلوب عمله.. الآن	يفجيني بريماكوف
			فرصة أفغانستان لترتيب أوضاعها	عبد الرحمن الراشد
			من المستفيد: أمريكا أم الإسلام والمسلمون.. أم (...)؟!	زين العابدين الركابي
٥	٢٠٠١	٩-٢٤	الصاق التهم جزافا لا يساعد على مكافحة الإرهاب	زهير فهد الحارثي
			بين الحريات والأمن	الشرق الأوسط
			دور أوربا والعرب في الحرب على الإرهاب	باسم الجسر
			عينات إرهاب إسرائيلي من نوع جديد	بلال الحسن
			قوس عدم الاستقرار	جيم هوجلاند
			لقاء الإسلام والسياسة..ومعضلات السياسة الأمريكية	غراهام فولر
			موسم الجهاد المدني	خالد القشطيني

م	العام	تاريخ النشر	عنوان المقال	اسم الكاتب
٦	٢٠٠٢	٩-٥	١١ سبتمبر (١) قرن، لا عام	سمير عطا الله
			التبعية المدمرة للسياسة الأمريكية	عبد الجبار عدوان
٧	٢٠٠٢	٩-٦	١١ سبتمبر (٢)	سمير عطا الله
			الإمبراطورية الأمريكية ومصير العالم	هاشم صالح
٨	٢٠٠٢	٩-٧	١١ سبتمبر (٣) لا إقلاع ولا هبوط	سمير عطا الله
			(ألغاز) في السياسة الأمريكية	زين العابدين الركابي
			كوابيس ١١ سبتمبر	غسان الإمام
			الكراهية وتعريف التحدي	هنري كيسنجر
٩	٢٠٠٢	٩-٨	الأمم المتحدة والإرهاب	الشرق الأوسط
			أين الخطأ في تعاطي أحداث سبتمبر ؟	عبد الرحمن الراشد
			١١ سبتمبر (٤) الشاهد الحي كالشاهد الميت	سمير عطا الله
			عام على سبتمبر: أحرب بسوس جديدة؟	تركي الحمد
			المتغير والثابت.. بعد ١١ سبتمبر	وليد أبى مرشد
١٠	٢٠٠٢	٩-٩	أفغانستان بعد عام	الشرق الأوسط
			١١ سبتمبر: ما هي أخطاء أميركا؟	عبد الرّحمن الراشد
			١١ سبتمبر (٥) أم الأبراج	سمير عطا الله
			إنهم يريدون تطوير الحرب لتشمل أفكـــار الإسلام وأرصدة المسلمين	فهمي هويدي
			هل كان ١١ سبتمبر حدثاً فعلاً؟	السيد ولد أباه

١١	٢٠٠٢	٩-١٠	١١ سبتمبر: دخول الأمريكيين خط المعركة	عبد الرحمن الراشد
			١١ سبتمبر(٦) الجماعة، لا فرقة	سمير عطا الله
			تداعيات ١١ سبتمبر	أحمد حمروش
			العرب بعد ١١ سبتمبر: حوار مع الذات	غسان الإمام
			١١ سبتمبر: محتفلون.. ومنكرون!	بكر عويضة
			من يتحمل مسؤولية مأساة أحداث ١١ سبتمبر؟	كارتر، داشل، غينغريش
١٢	٢٠٠٢	٩-١١	عام على أحداث ١١ سبتمبر	الشرق الأوسط
			١١ سبتمبر: محاربة ثقافة "القاعدة"	عبد الرحمن الراشد
			في ذكرى ١١ سبتمبر	أحمد الربعي
			أحقاً أن الولايات المتحدة تنفرد بكراهية العالم لها؟	عبد الهادي بوطالب
			المنظور الإعلامي لتداعيات الحادي عشر من سبتمبر	خالد أحمد الطراح
			رغم توقع حدوثها.. أمور لم تحدث	أمير طاهري
			في الذكرى الأولى لـ ١١ أيلول	بسام أبو شريف
			أمريكا بعد العدوان	رضا محمد لاري
			تمنيات وتوقعات لمناسبة السنوية الأولى	فؤاد مطر
			العدوان على أمريكا.. والعدوان على الفلسطينيين	عثمان ميرغني

١٣	٢٠٠٢	٩-١٢	١١سبتمبر: أخطاء العسكرة والثقافة	عبد الرحمن الراشد
			كيف نؤمن إلى الأبد انتصار الحرية؟	جورج بوش
			ذكرى ١١ سبتمبر: وقفة لالتقاط الأنفاس	صالح القلاب
			النبي نوح وأحداث سبتمبر!	توماس فريدمان
			أميركا مطلقة الهيمنة مطلقة العزلة أيضاً	فرانسيس فوكوياما
			أحداث سبتمبر: سلعة تجارية	نديم نحاس
١٤	٢٠٠٢	٩-١٣	الولايات المتحدة هي التي تغيرت وليس العالم	باسم الجسر
			أميركا.. والعالم	الشرق الأوسط
			تحرير الولايات المتحدة من إسرائيل	بول فيندلي
			تداعيات سبتمبر	د.محي الدين عميمور
			مضاعفات الحادي عشر من سبتمبر	أحمد عباس صالح
			من اغتيال الملوك إلى الإرهاب الجماعي	يفجيني بريماكوف
١٥	٢٠٠٢	٩-١٤	من اغتيال الملوك إلى الإرهاب الجماعي (٢من٢)	يفجيني بريماكوف
			وجه في المرآة	غسان الإمام
			هل من مشترٍ؟!	زينب حفني
			أين موقع العراق في الحرب على الإرهاب ؟	مادلين أولبرايت
			هل تعيش الولايات المتحدة الأمريكية مكارثية جديدة؟	حسونة المصباحي
			فلسفة البيانات السياسية في المعسكرات المتقابلة	د. حمزة بن قبلان المزيني

م	العام	تاريخ النشر	عنوان المقال	اسم الكاتب
١٦	٢٠٠٢	١٥-٩	عام على سبتمبر	تركي الحمد
١٧	٢٠٠٢	١٦-٩	العرب وأمريكا ورؤيتان مختلفتان لتداعيات ١١ سبتمبر	عثمان الرواف
			الولايات المتحدة والعالم.. خيار الحسم	السيد ولد أباه
١٨	٢٠٠٢	١٧-٩	أم بسيف الإنكليز!	سمير عطا الله
			١١ سبتمبر.. لو لم يحدث !!	أحمد الربعي
			احتفالية الرعب	سوسن الأبطح
			مسؤولية "الشيخ" تجاه عائلات "الكوكبة"	بكر عويضة
١٩	٢٠٠٢	١٨-٩	لنحارب الإرهاب	الأمير تركي الفيصل
			طريق القضاء على الإرهاب لا تمر ببغداد ولا تتوقف عندها	باسم الجسر
٢٠	٢٠٠٣	٦-٩	القضاء على الإرهاب أو لا قبل الإعمار	عادل عوض
٢١	٢٠٠٣	٨-٩	عام آخر من الخوف وعدم التفاهم	جيمس زغبي
٢٢	٢٠٠٣	٩-٩	من بابل إلى منهاتن والبرج واحد	سوسن الأبطح
			التعقل في إجازة	بكر عويضة
٢٣	٢٠٠٣	١٠-٩	١١ سبتمبر.. والخسارة الكبرى	إمام محمد إمام

٢٤	٢٠٠٣	٩-١١	عالم ما بعد ١١ سبتمبر هل كنا أفضل بلا ٩/١١ بعد عامين فقط.. مراجعة لإستراتيجية القطبية الأمريكية الوحيدة سؤال لا يزال يبحث عن إجابة: لماذا جرى ما جرى؟! العالم لم يتغير.. لكنه ازداد توتراً	الشرق الأوسط عبد الرحمن الراشد السر سيد أحمد مشاري الذايدي باسم الجسر
٢٥	٢٠٠٣	٩-١٢	من المسؤول عن ١١ سبتمبر؟ ١١ سبتمبر: الدروس والعبر	أحمد عباس صالح هاشم صالح
٢٦	٢٠٠٣	٩-١٣	الحرب المستحيلة.. والفتنة الشاملة العالم بعد ١١ سبتمبر: تغير إلى الأسوأ	السيد ولد أباه زين العابدين الركابي
٢٧	٢٠٠٣	٩-١٤	بأي حال عدت يا ذكرى؟	وليد أبي مرشد
٢٨	٢٠٠٣	٩-١٥	الإرهابيون يخونون قيمنا هل استفدنا كثيراً من درس سبتمبر؟ خطاب ضد التطرف	الملك عبد الله الثاني تركي الحمد عثمان الرواف
٢٩	٢٠٠٣	٩-١٨	لا غزوتا واشنطن ونيويورك.. ولا غزوات بوش!	صالح القلاب

م	العام	تاريخ النشر	عنوان المقال	اسم الكاتب
٣٠	٢٠٠٤	٩-٦	قائمة طويلة لضحايا الحملة على الإرهاب تتصدرها الحقيقة	بثينة شعبان
			العمليات الانتحارية ترسخ صورتنا كإرهابيين	منى الغصين
٣١	٢٠٠٤	٩-٧	ذكرى ١١ سبتمبر الثالثة..وإذا الدنيا كما نعرفها!	مشاري الذايدي
			أنسنة الإرهاب	علي إبراهيم
٣٢	٢٠٠٤	٩-٨	المسلمون الأكثر مظلومية.. والأكثر وصما بالإرهاب.. فلماذا؟	فهمي هويدي
			شهادة على ما حدث بعد ثلاثة أعوام.. !	صالح القلاب
٣٣	٢٠٠٤	٩-٩	العالم يقف مع بوتين لاعتماد "مبدأ بوش"	هدى الحسيني
			واقعة ١١ سبتمبر..هل نستطيع خوض المعركة ؟	كمال عبد اللطيف
			١١ سبتمبر.. أكبر من مجرد حدث تاريخي!	السيد ولد أباه
٣٤	٢٠٠٤	٩-١٠	الهجوم على أمريكا: بسبب ما هي عليه.. أم بسبب ما تفعله؟!	أمير طاهري
			١١ سبتمبر وأميركا.. من يقود من؟	خالص جلبي
			هدايا ١١ سبتمبر لبوش وتحيزه ضد كيري	بول كروغمان
			خواطري الصريحة حول ١١ سبتمبر	أحمد ماهر
			معالم قاسية لمكارثية جديدة على الخريطة الدولية	ليلى خالد
			في المغرب العربي.. طوق النجاة تدلى من طائرات الموت	آمال موسى
			كيف أثر ١١ سبتمبر.. على مناخ العمل الإسلامي؟	محمد السيد نجيب
			وكيف تسبب بـ "تدويل" الحالة الإسلامية؟	عبد العزيز الخضر
			شيعة العراق: بين التنديد المعلن.. والترحيب المخفي بـ ١١ سبتمبر	رشيد الخيون

٣٥	٢٠٠٤	٩-١١	من أجل قراءة جديدة لـ (زلزال) ١١ سبتمبر.. وتوابعه	زين العابدين الركابي
			الحدث وسؤاله.. ما هو هدف الإرهاب الدولي المقبل؟	يفجيني بريماكوف
			من أجل عالم أكثر أمناً وعدلاً.. في الذكرى الثالثة لـ ١١ سبتمبر	جاك سترو
			تفجيرات سبتمبر.. من يقف وراء الحدث.. ومن هو المستفيد؟	محمد حسين فضل الله
			أخطاء كثيرة.. ولكن من يستوعب؟	عادل درويش
			صورة للعراق الجديد.. من خارج أو حال تفجيرات أمريكا	عدنان الباجه جى
			١١ سبتمبر.. لو لم يحدث!!	أحمد الربعي
			في ذكرى ١١ سبتمبر.. البنادق البيضاء	عبد اللطيف المناوي
			مسألة مصطلح	سمير عطا الله
٣٦	٢٠٠٤	٩-١٢	هل العالم أكثر أماناً؟.. ربما لا	إياد أبو شقرا
			بين نيويورك والقاهرة.. قراءة أخرى للحدث	منى الطحاوي
٣٧	٢٠٠٤	٩-١٣	أمريكا هي مرض العرب الأول.. ولا علاج له..!	مأمون فندي
			هذه هي المشكلة: إخفاق المهيمنين.. وانبعاث الثورة المضادة	فريد هاليداي
			أيهما أهم: سقوط الاتحاد السوفيتي.. أم سقوط البرجين..؟	هاشم صالح
			دروس سبتمبر المستعصية على الجنرالات والسياسيين..!	جيم هوغلاند

م	العام	تاريخ النشر	عنوان المقال	اسم الكاتب
٣٨	٢٠٠٤	١٤-٩	كيف ولماذا اختطفت أحداث سبتمبر الدين الإسلامي ثلاث سنوات	رضوان السيد حسين شبكشي
٣٩	٢٠٠٤	١٦-٩	هذا.. وإلا فإننا سندخل في الحرب الكونية الثالثة لا محالة!	على الطراح
			الولايات المتحدة.. توابع الزلزال ومستحقاته	حسين عبد الرازق
			اقرعوا هذه الأجراس لبوش وبوتين أولا.. ثم لـــ"بن لادن"!	مايكل باينيون
٤٠	٢٠٠٤	١٧-٩	هل خرج ١١ سبتمبر من "جراب الحاوي" الأميركي	عبد المنعم أبو الفتوح
م	**العام**	**تاريخ النشر**	**عنوان المقال**	**اسم الكاتب**
٤١	٢٠٠٥	٥-٩	ليس جلدا للذات.. لكنها الحقيقة المرة..!	ديفيد بروكس
٤٢	٢٠٠٥	١٠-٩	عشية ١١ سبتمبر: وقفة واجبة بين دعـــاة الإرهاب ودعاة التنوير	مجدي خليل
٤٣	٢٠٠٥	١١-٩	١١ سبتمبر: توالي الاستنساخ.. وأخطـــاء المنهج والتطبيق	حسن ساتي
			١١ سبتمبر.. لو لم يحدث..!	أحمد الربعي
			أحداث ١١ سبتمبر.. وبعض المساجد التي تركت وظيفتها..	جابر حبيب جابر

م	العام	تاريخ النشر	عنوان المقال	اسم الكاتب
٤٤	٢٠٠٥	١٣-٩	عالم سبتمبر: لا جديد.. إلا المزيد من التيه	مشاري الذيدي
٤٥	٢٠٠٥	١٥-٩	ذكرى وواقع	حسين شبكشي
٤٦	٢٠٠٥	١٨-٩	قراءة مبصرة للحادي عشر من أيلول.. ٢٠٠١-٢٠٠٥	الصادق المهدي
م	العام	تاريخ النشر	عنوان المقال	اسم الكاتب
٤٧	٢٠٠٦	٥-٩	وحان سبتمبر الخامس.. فمن يريد أن يرى؟	مشاري الذيدي
٤٨	٢٠٠٦	٨-٩	٥ سنوات على زلزال سبتمبر: أخطاء بدرجة الامتياز..!	أوليفييه روي
٤٩	٢٠٠٦	٩-٩	حول مكافحة الإرهاب.. رؤية من الميدان الأمريكي	جيمس وولز
٥٠	٢٠٠٦	١٠-٩	١١ سبتمبر: ماذا لو؟	عبد الرحمن الراشد
٥١	٢٠٠٦	١١-٩	١١ سبتمبر.. في منظور فلاسفة الغرب	هاشم صالح
			١١ سبتمبر: ماذا بعد؟	عبد الرحمن الراشد
			مكافحة الإرهاب: سؤال عن المهارة..!	جيم هوغلاند
			أحفاد سليمان وبلقيس.. وأحداث ١١ سبتمبر	ثريا الشهري
			الراديكالية الدينية.. في أصعب سنواتها وأزهاها	آمال موسى
			١١ سبتمبر.. المفصل الكارثي في تعايش الحضارات	إياد أبو شقرا
			١١ سبتمبر..	سمير عطا الله

٥٢	٢٠٠٦	٩-١٢	عشرة أسئلة حول ١١ سبتمبر ليست ذكرى فقط ١١ سبتمبر.. إحراق جدران الحماية	مجدي خليل حسين شبكشي سمير عطا الله
٥٣	٢٠٠٦	٩-١٣	١١ سبتمبر كاليفورنيا تهرب إلى العضل	سمير عطا الله
٥٤	٢٠٠٦	٩-١٤	عالم الإرهاب.. أيديولوجيا أم ثقافة؟ ١١ سبتمبر.. جدران الحرب الوقائية	زهير الحارثي سمير عطا الله
٥٥	٢٠٠٦	٩-١٥	هل نروض وحش الإرهاب.. أم نقلم أظافره..؟! ١١ سبتمبر.. حلها الوحيد	يوسف الديني سمير عطا الله
٥٦	٢٠٠٦	٩-١٦	١١ سبتمبر: شواهد حية تنبئ بدمار قادم..! سيتمبر: كشف حساب	برنارد هايكل وسعود سرحان سعد بن طفلة
٥٧	٢٠٠٦	٩-١٧	الدرس المستفاد من ١١ سبتمبر أين نجح بن لادن.. وأين أخفق بوش؟	الصادق المهدي جون تيرني

هذا الكم الكبير من المقالات المتنوعة التى رصدناها فى الجداول السابقة، لكتاب مختلفين من حيث التوجه الفكري والانتماء والجنس والمرحلة العمرية، يتسم بقدر كبير من التباين فيما يتعلق بالرؤية والمنهج، لكنه يتسم- في الوقت نفسه - بالكثير من التجانس تجاه القضية المحورية وهي رفض الإرهاب والحض على مقاومته. الاختلاف الإيجابي، وليد التعدد، يتمثل في الأطروحات المختلفة تجاه:

أ - جذور الإرهاب وأسبابه.

ب- كيفية مقاومته والحد من خطورته.

ج- مستقبل الظاهرة الإرهابية.

المزيد من الدقة في رصد وتحليل الرؤية التي تتبناها "الشرق الأوسط" ، يمكن أن تتحقق من خلال التوقف التفصيلي أمام الرأي المباشر للجريدة، الذي يتم التوقيع عليه باسمها، وكذلك أمام اثنين من الكتاب الدائمين في الجريدة، واللذان تعبر اجتهاداتهما عن السياسة العامة لها، فضلاً عن الحجم الكمي لإنتاجهما المنشور يتيح الفرصة للكشف عن إحاطتهما بالجوانب المختلفة لأحداث سبتمبر، وهذان الكاتبان هما: عبد الرحمن الراشد رئيس التحرير السابق للجريدة، وسمير عطا الله.

رؤية شاملة:

المفردات الأساسية التي تطالب بها "الشرق الأوسط" ، في المعالجات الموقعة باسمها، تدور حول عدد من المحاور التي تتعلق بمعالجة ردود الفعل المترتبة على أحداث الحادي عشر من سبتمبر:

- ضرورة إعمال العقل والابتعاد عن الانفعال.
- الوعي بالآثار الاقتصادية السلبية للحادث الإرهابي.
- المخاوف من التأثير السلبي للحادث على مناخ الحريات.

- موقف الأمم المتحدة.
- الدور الأمريكي في تشكيل عالم ما بعد ١١ سبتمبر.

بعد أسبوع من وقوع التفجيرات، تكتب "الشرق الأوسط" تحت عنوان "وفي التأني السلامة"[١] ، مطالبة بإعمال العقل في ردود الفعل المتوقعة، ومؤكدة على حقيقية أن:

"المهمة العسيرة التي يواجهها الرئيس الأمريكي جورج بوش وسط الأوضاع الصعبة الراهنة تتمثل في تجنب الاندفاع نحو عمل متسرع إرضاء للشارع الأمريكي الذي يشعر بغضب عارم حيال منفذي الهجمات الإجرامية على نيويورك وواشنطن. ومن المهم في ظل التطورات المتلاحقة حالياً الحصول على تأييد الشرعية الدولية لأي خطوة تتخذها الولايات المتحدة ضد الإرهابيين".

من حق الولايات المتحدة الأمريكية أن ترد على الاعتداء الإرهابي، وأن تدافع عن وجودها وكرامتها، لكن الضوابط المستهدفة تتمثل في ضرورة مراعاة عنصرين متداخلين متكاملين: العنصر الأول هو تجنب الاندفاع العاطفي المنفلت، والعنصر الثاني هو الحصول على تأييد الشرعية الدولية.

ولأن حكومة طالبان الأفغانية هي المرشحة للانتقام الأمريكي العنيف، فإن كلمة "الشرق الأوسط" تبدي اهتماماً كبيراً بالشعب الأفغاني واللاجئين الهاربين من أهوال الحرب والفوضى العارمة، من منطلق أن أغلبية هذا الشعب تعاني من تحكم طالبان، ولا ينبغي أن تدفع الثمن الفادح لأخطاء لم ترتكبها:

"باختصار، إن الرد على جريمة الاعتداءات التي حصلت في نيويورك وواشنطن يجب أن يأخذ في الاعتبار ضرورة الخروج بأقل الأضرار الممكنة على الشعب الأفغاني، فلا تتحول الحرب على الإرهاب إلى كارثة إنسانية رئيسية في هذا القرن".[٢]

موقف الجريدة من العملية الإرهابية بالغ الوضوح والدقة، فهي "جريمة"، بلغة الجريدة، لا يمكن الدفاع عنها أو تبريرها، لكن رد الفعل على الإرهاب لا ينبغي أن يكون عشوائياً، ولابد له من مراعاة الأغلبية من الشعب الأفغاني، تلك التي تكتوي بالإرهاب ولا تمارسه.

وفي هذا الإطار الموضوعي العقلاني، تعود "الشرق الأوسط" في اليوم التالي، تحت عنوان "خطورة الكلام في الأيام الحرجة"، لتأخذ على الرئيس الأمريكي جورج بوش استعماله لكلمة "كروسيد" Crusade، التي تحمل معنى "الحملة الصليبية". قد يكون صحيحاً أن الكلمة قد شاع استخدامها في اللغة الإنجليزية في سياقات مختلفة لا تحمل المعنى الشائع الموروث، وقد يكون صحيحاً أيضاً أن الرئيس بوش لا يقصد المعنى الذي تم تداوله وفهمه في إطار ديني يثيره اللفظ، لكن المناخ الملتهب لا يسمح بمثل هذه الأخطاء غير المقصودة:

"ذلك أن اعتماده هذه اللغة كفيل بنسف أسس التحالف الذي يسعى إلى نسجه مع أكبر عدد من الدول. ولا شك أن آخر ما يفيد الولايات المتحدة والعالم في هذه اللحظات الحرجة من تاريخها وتاريخ النظام العالمي صدور كلمات لها ترددات دينية تمييزية استدعائية من رأس هرم قيادتها". (٣)

تشيد الجريدة بالزيارة التي قام بها الرئيس بوش للمركز الإسلامي في واشنطون، حيث أكد هناك أن "وجه الإرهاب ليس من الجوهر الحقيقي للإسلام"، وتبدى دعمها وتأييدها لحرصه على إبداء مظاهر الاحترام والإجلال للشعائر والتقاليد الدينية الإسلامية، وتشيد بالدفاع عن العرب الأمريكيين في مواجهة ما قد يتعرضون له من تعديات وتهديدات:

"إن هذه الكلمات المطمئنة هي المطلوب الآن وسط تلاطم التفوّهات اللامسؤولة والمطلقة جزافاً سواء على ألسنة الساسة أو الإعلاميين وبأقلامهم. فالظرف حرج، بل حرج جداً، وخير الكلام هو الذي يطفئ النار ويلجم الغرائز ويفسح المجال أمام التفكير العاقل السوي". (٤)

"التفكير العاقل السوي" هو البؤرة المركزية التي تنطلق منها رؤية "الشرق الأوسط"، والرأي الذي تتبناه الجريدة لا يراود الدفاع عن أمريكا وبوش، بقدر حرصه على إيقاف التدهور والحيلولة دون المزيد من الصراع، فالحرب ضد الإرهاب ليست حرباً دينية، وليست حملة صليبية.

بعد ثلاثة أيام، تتوقف "الشرق الأوسط" أمام "التداعيات الاقتصادية للإرهاب" ، وهو محور وثيق الصلة بالمنهج القائم على "التفكير العاقل السوي"، حيث ترصد الجريدة ترنح صناعة السياحة، والخسائر الفادحة لشركات الطيران، والأزمات الطاحنة التي تعانيها شركات التأمين، والاضطراب الملموس في كافة الأسواق المالية، وأشباح البطالة التي تهدد آلاف الأسر التي تعتمد في حياتها على الأنشطة السابقة، وصولاً إلى رصد النتيجة النهائية بالغة الخطورة:

"غياب الوضوح في الصورة الاقتصادية والمالية والتخوف من المجهول أصبحا "الإرث" الدولي للهجمات الانتحارية على واشنطن ونيويورك. ومن الواضح أن ما حدث في الولايات المتحدة ينسحب تأثيره على العالم كله، دولاً ومؤسسات وأفراداً، في ظل الترابط المتنامي بين اقتصاديات الدول الأوروبية والولايات المتحدة في إطار حركة "العولمة التجارية". (٥)

الاقتصاد الأمريكي والغربي، على حد تعبير الجريدة، هو "قاطرة" الاقتصاد العالمي، وعلى الدول العربية أن تنتبه إلى هذا البعد الخطير، الذي يتم إهماله في العديد من المعالجات التي تتناول الأحداث والتداعيات السياسية بمعزل عن الجوانب الاقتصادية وتداعياتها الاجتماعية:

"وإذا كانت هذه المعطيات غير الواعدة تستوجب من الدول العربية اتخاذ إجراءات سريعة لتدارك الوقوع في حالة ركود شاملة، فإنها تستدعي أيضاً مساهمة مؤسسة النقد الدولية والبنك الدولي في توسيع نطاق دعمهما للدول النامية الأكثر تضرراً من التداعيات الاقتصادية لأحداث ١١ سبتمبر الحالي والتساهل في شروط الإقراض، على الأقل بالنسبة للدول التي تنفذ برامج إصلاح اقتصادي مجد". (٦)

سلسلة من الحلقات المتصلة المتشابكة، يستحيل الفصل بينها أو تناولها في إطار جزئي، فالاقتصاد لا ينفصل عن السياسة، والحادث الإرهابي المزلزل ذو جذور ونتائج تزج بين السياسي والاقتصادي، فضلاً عن تداعيات لا يمكن إنكارها تطول مناخ الحريات، داخل الولايات المتحدة وخارجها.

"بين الحريات والأمن"، عنوان الرأي الذي نشرته "الشرق الأوسط"، في عددها الصادر يوم ٢٤-٩-٢٠٠١، ويعلق على ما نشرته جريدة "نيويورك تايمز" في اليوم السابق، بصدد بعض الاقتراحات المتداولة في واشنطون لتحصين الوضع الأمني الداخلي في مواجهة الإرهاب. تقول الصحيفة الأمريكية في افتتاحيتها:

"هناك العديد من الإجراءات العملية التي يمكن للإدارة الفيدرالية أن تتخذها لتعزيز قدرتها على التعرف على الإرهابيين وملاحقتهم. ولكن، مع الأسف، من شأن العديد من الآراء التي تسوقها إدارة بوش أن تقلص الضمانات الدستورية (للأميركيين) من دون أية جدوى ظاهرة لأمننا القومي". (٧)

المخاوف التي تبديها الصحيفة الأمريكية، وتنشغل بها "الشرق الأوسط"، ليست شأناً أمريكياً داخلياً، فكل إجراء أمريكي يترك أثره بالضرورة على نطاق أكثر اتساعاً، ويتأثر به مهاجرون، أغلبهم من العرب والمسلمين، يدفعون فاتورة الفعل الإرهابي الذي لم يتورطوا فيه. المسألة ليست في التدابير الأمنية، لكنها في طبيعة وحدود هذه التدابير، وهو ما يتجلى في التعليق الأخير الذي تختتم به "الشرق الأوسط" تقييمها لما يتم الشروع في تنفيذه:

"لا جدال في حق الولايات المتحدة في اتخاذ الاحتياطات الضرورية للمحافظة على أمنها الداخلي وسلام مجتمعها، إلا أن تجربة عام ١٩٩٥ تبرر الدعوة إلى التروي في اتخاذ تدابير قد تعرض العديد من الأبرياء لاتهامات باطلة ينتج عنها ترحيل "مهاجرين" قد يكون معظمهم من لون أو تراث معين". (٨)

لقد ترك الحادث الإرهابي في الحادي عشر من سبتمبر آثاره على الصعيد الأمريكي الداخلي، وعلى الساحة الدولية، وتجاوز الرد الأمريكي حدود "الداخل" إلى "الخارج"، وفي هذا السياق يبدو مهما تناول الموقع الذي تحتله الأمم المتحدة في الصراع الدائر، بعد عام تقريباً من وقوع الحادث، تكتب "الشرق الأوسط" عن "الأمم المتحدة والإرهاب" ، ويأتي التعليق بمناسبة اجتماع الجمعية العامة لمناقشة موضوع رئيسي على جدول أعمالها، هو "مكافحة الإرهاب". ما الذي تعنيه الكلمة على وجه التحديد؟!. التعريف الأمريكي والأوربي للإرهاب قد لا يحظى بموافقة الدول العربية والإسلامية، وقد تدفع بعض هذه الدول ثمناً فادحاً لتعريف لم تشارك في صياغته. ترى الجريدة أن مساهمة أفريقيا، التي يجتمع وزراء خارجيتها في الجزائر، في تعريف الإرهاب مهمة وضرورية، لسببين اثنين على الأقل:

"السبب الأول، أن عدداً من الدول الأفريقية، بينها الجزائر، البلد المستضيف، كانت وما زالت من ضحايا أسوأ أشكال الإرهاب. والسبب الثاني، أن كثرة من الإرهابيين الحاليين والمستقبليين من أبناء أفريقيا، ولاسيما دول شمال أفريقيا. وفي الأسابيع القليلة الفائتة وحدها أوقف عدد من هؤلاء في أوربا وأميركا الشمالية" (٩)

العرب والمسلمون ضحايا للإرهاب، وهم أيضاً منتجون له. الملاحقات الأمنية تطولهم وتوجه أصابع الاتهام إليهم، والمسلمون عاجزون عن اتفاق واضح حول تعريف الإرهاب وسبل مقاومته. الكرة في ملعب الأمم المتحدة، ولا متسع من الوقت لممارسة ترف المراوغة، فالدول الإسلامية مطالبة بالعمل الجاد لمكافحة الإرهاب بكل مظاهره. مسئولية تاريخية تتحملها الأمم المتحدة، ومسئولية مماثلة تقع على عاتق المسلمين، والمستقبل يحمل الكثير من المخاطر إذا لم يتم الحسم:

"خلاصة الكلام، أنه ما لم تنجح الأمم المتحدة في بناء أرضية قانونية أو إطار قانوني لمكافحة الإرهاب، فسينزلق العالم نحو "شريعة الغاب" حيث يأكل القوي الضعيف، وتنعدم الحقوق والواجبات" (١٠)

يحتاج العالم إلى قانون لمكافحة الإرهاب، ويحتاج أيضاً إلى درجة عالية من الوعي الناضج بالأبعاد والتجليات المختلفة للظاهرة الإرهابية، على اعتبار أنها، في المحصلة النهائية، وحدة متماسكة متكاملة، وأن الأحداث الإرهابية، مهما تبدو منفصلة، هي سلسلة متصلة الحلقات.

قبل يومين من الذكرى الأولى لأحداث سبتمبر، تكتب "الشرق الأوسط" عن "أفغانستان بعد عام"، وتشير إلى الترابط، الذي يغيب عن الكثيرين، من خلال تسليط الضوء على حادث إرهابي سابق لتفجيرات نيويورك بيومين، وكان بمثابة التمهيد له، وتعني بذلك اغتيال الزعيم الأفغاني أحمد شاه مسعود. تذهب الجريدة إلى أن اغتياله كان جزءا من المؤامرة الأكبر، وأن إزاحته كانت ضرورية لتهيئة المسرح لعمل إرهابي منظم، يستطيع الإرهابيون من خلاله احتكار سلطة اتخاذ القرار في الحياة الأفغانية. الرؤية العميقة السابقة تتمثل في السطور التالية:

"الذين خططوا للهجمات ضد الولايات المتحدة افترضوا أنها ستنتقم بإطلاق بضعة صواريخ على الجبال الأفغانية، ثم تزود المعارضة الأفغانية بقيادة مسعود، بالمال والسلاح. ولم يتوقع هؤلاء أن تشن الولايات المتحدة حرباً ضروساً تؤدي إلى تغيير النظام في كابل. وكانوا يعتقدون أنهم إذا أزاحوا مسعود من مسرح الأحداث فإن الفصائل الأفغانية المتحاربة لن تجد في الساحة من يوحدها للعمل ضد طالبان". (١١)

للإرهابيين رؤيتهم الإستراتيجية إذن، وقد لا تخلو حساباتهم من خلل أو تقصير، وقد يعجزون عن التوقع الصحيح لردود الأفعال المترتبة على عملياتهم، لكن هذا لا ينفي أن التعامل معهم لابد أن يكون إستراتيجياً شاملاً، وليس جزئياً ارتجالياً عشوائياً.

عام على أحداث سبتمبر:

بعد يومين من الكلمة السابقة، تحل الذكرى الأولى لتفجيرات سبتمبر، ويحمل رأي "الشرق الأوسط" عنوان "عام على أحداث ١١ سبتمبر"، وفيه يتم التأكيد على أهمية الرؤية الشاملة لقضية الإرهاب، فالمسألة أخطر من أن تتم معالجتها بالأسلوب العاطفي، أو عبر إجراءات انفعالية جزئية أقرب إلى رد الفعل غير المحسوب. التضامن الاجتماعي الذي تظهره معظم دول العالم، مع الولايات المتحدة الأمريكية وضحايا الإرهاب، شيء محمود جدير بالثناء والتقدير، لكن التعاطف وحده لا يكفي لمواجهة الخطر الذي يجتاح العالم، ويحتاج إلى جهد جاد منظم لمقاومته. ومن المرتكزات المهمة للخطاب الذي تتبناه "الشرق الأوسط" أن حادث الحادي عشر من سبتمبر، على الرغم من وقوعه فوق الأراضي الأمريكية، فإنه كان موجها ضد الإنسانية كلها، وهو ما يتجلى في المقولة التالية:

"ويعكس هذه الحقيقة أن قتلى مبنى مركز التجارة العالمي بنيويورك، كانوا ينتمون إلى ٣٢ قومية مختلفة، وكان من بينهم ٧٠٠ من المسلمين. كما كانت تلك الهجمات ضربات مباشرة موجهة إلى كل القيم التي تشد عرى المجتمع الإنساني" (١٢)

الهدف الأسمى والأولى بالاهتمام، من منظور الجريدة، هو تكوين "جبهة موحدة" لمقاومة واستئصال الإرهاب، وتشكيل هذه الجبهة العالمية رهين بالإدراك الحقيقي والمعرفة الصحيحة للأطراف الفاعلة في صناعة ودعم الإرهاب:

"الواضح الآن أن الإرهاب لا يمكن أن ينشط دون دعم ضمني من أجهزة دولة ما. وقد استخدم الإرهابيون الذين نفذوا الهجمات على نيويورك وواشنطن، دولة أفغانستان تحت حكم طالبان، ملاذاً آمناً لهم. واكتفوا باستخدام النظام المصرفي لعدة دول خليجية وأوروبية. ونتيجة لإهمال غير مقصود تحملت دول عديدة بالاتحاد الأوروبي، وجود خلايا إرهابية على أراضيها لعدة سنوات متصلة في بعض الأحيان. كذلك سمحت بعض الدول الإسلامية باستغلال خدماتها العامة، من قبل أولئك الذين أرادوا إضفاء صبغة قانونية أو نضالية على الجرائم الإرهابية " (١٣)

القوى المؤيدة للإرهاب موضوعياً، دون نظر إلى النوايا والمواقف المعلنة، تتوزع بين الدول التي تحتضن الإرهابيين، والنظام المصرفي العالمي الذي يتيح قدراً كبيراً من السهولة في تمويل العمليات الإرهابية، والخلايا الإرهابية التي تعمل في أمان مستمد من مناخ الحريات في الدول الديمقراطية الغربية، فضلاً عن بعض الأنظمة الإسلامية التي لا تؤيد الإرهاب بشكل صريح، لكنها تتجاهل خطورة الأزمة وتسمح قوانينها وأعرافها، من خلال مؤسساتها وجمعياتها، بتقديم دعم حقيقي للإرهاب، تحت مظلة شعارات دينية وخيرية براقة.

أطراف متعددة يتم استغلالها لدعم الإرهاب، ولا أمل في تجفيف منابع الإرهاب بمعزل عن المواجهة الحاسمة لهذه المنابع المتنوعة: الأنظمة الداعمة بشكل مباشر، والإجراءات الميسرة للنظام المصرفي الذي تصعب السيطرة عليه، والأجواء الديمقراطية التي تسرف القوى الإرهابية في استغلالها، والتسامح الذي يقترب من السذاجة تحت راية حرية الرأي والتعبير، والإهمال الذي يرادف التواطؤ في بعض البلدان العربية والإسلامية.

بعد يومين آخرين، تكتب "الشرق الأوسط" رأيا بالغ الأهمية يحمل عنوان "أمريكا والعالم". قبل يوم واحد من نشره، ألقى الرئيس الأمريكي جورج بوش خطاباً أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، في سياق الحملة التي تقودها أمريكا ضد الإرهاب.

المستخلص الأكثر أهمية، في رؤية "الشرق الأوسط"، لطبيعة العلاقة التي ينبغي أن تكون بين الولايات المتحدة والعالم، يتمثل في السطور التالية:

"على صعيد آخر، ينبغي الاعتراف بأنه بقدر ما كان العالم بحاجة إلى أميركا فإن أميركا بحاجة إلى العالم. وحيثما وضعت أميركا إمكانياتها الجبارة في خدمة المجتمع الدولي والقانون الدولي والعدالة الدولية جاءت النتائج طيبة وخيرها عميما كما حصل في أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية وحصل أخيراً في أفغانستان. وبالعكس، حيثما سخرت هذه الإمكانيات الجبارة في اتجاه مناقض للعدالة والقانون الدولي حصدت أميركا والعالم بأسره الخسران والندم" (١٤)

الفكرة المحورية هي ضرورة الإقرار بقوة وأهمية وخطورة الدور الأمريكي، وهذا الإقرار ينطلق من التسليم بأنها ليست ملاكاً مثالياً لا يعرف الخطأ، وليست شيطاناً رجيماً يستحق اللعنات. الرؤية السطحية وحدها هي التي تميل إلى مثل هذا التبسيط غير العقلاني، أما الرؤية التي ترفع راية "التفكير العاقل السوي"، فهي تلك التي تعترف – لأسباب ومعطيات موضوعية لا يمكن إنكارها – بجدارة أمريكا وأهليتها للقيادة، ثم تطالب بتوجه سليم يقوم على مبادئ التعاون الإيجابي الذي يستهدف تحقيق المصالح المتبادلة للجميع. التطرف مرذول ومرفوض، مع أمريكا وضدها، والعالم وحدة إنسانية واحدة، يحتاج إلى تكاتف الجهود وتحقيق أكبر قدر ممكن من التعاون والتنسيق. لا غنى عن وجود فاعل للولايات المتحدة الأمريكية في المنظومة المنشودة:

"إن عالمنا اليوم يجد نفسه أمام تحديات خطرة، بعضها قاتل، تستحيل مواجهتها إلا بتفاهم عالمي ممكن، وتفاهم عريض على هذا النحو لابد أن تلعب فيه أميركا دوراً قيادياً. ولكن يتوجب على أميركا إذا كانت جاهزة للنهوض بمسؤوليات القيادة أن تصغي للآخرين وتناقش معهم سياساتهم وتصوراتهم ومخاوفهم بشعور قوي بالمسؤولية ".(١٥)

القيادة الأمريكية للعالم رهينة بقوتها وقدرتها على تحمل المسئولية، فالقيادة في جوهرها تحمل للعبء قبل أن تكون مصدراً للفخر. لا تخلو الإدارة الأمريكية من وجود عناصر ذات تأثير تجنح إلى التطرف، ولا يخلو المعارضون للولايات المتحدة من تطرف مضاد، واستمرار هذين النمطين من التطرف قد يقود العالم إلى الهاوية!.

عالم ما بعد سبتمبر:

في الذكرى الثانية لحادث سبتمبر، تكتب "الشرق الأوسط" موضوعاً يتوافق مع توجهها، ويحمل عنوان "عالم ما بعد سبتمبر". جوهر الخطاب المعبر عن رأي الجريدة يتمثل في الكلمات الأولى للموضوع:

"السؤال المطروح، بعد سنتين من الاعتداء الإرهابي المزدوج على نيويورك وواشنطن: هل أصبح العالم أكثر أماناً مما كان عليه قبل ١١ سبتمبر ٢٠٠١؟" (١٦)

عامان بعد الحادث الإرهابي فترة كافية، تبرر طرح السؤال العسير الإجابة. قد يكون صحيحاً أن نجاحات لا شك فيها قد تحققت لمواجهة الإرهاب وتحقيق قدر من الأمان، وفي المقابل، تكدست أعباء جديدة، وظهرت جبهات أخرى نشطت في ساحة الإرهاب العالمي. كان من المنطقي أن تعيد الجريدة طرح الفكرة التي طالبت بها من قبل، وهى أن يتم الاتفاق بشكل واضح حول معنى المصطلح الذي يردده الجميع، الإرهاب:

"سنتان فقط انقضتا على ١١ سبتمبر ٢٠٠١ كانتا كافيتين لإبراز الخلل المفهومي في سياسة محاربة الإرهاب الأميركية وحاجة واشنطن لعودة واقعية إلى ما سبق للعواصم العربية أن طرحته عقب ١١ سبتمبر مباشرة: الاتفاق على تحديد دولي واضح للإرهاب. بحيث لا تتحول محاربته إلى سيف مسلط على رقاب شعوب العالم المستعمرة أو الخاضعة لاحتلال عسكري أجنبي". (١٧)

العرب والمسلمون مطالبون بتقديم الإجابة التي تتوافق مع عقيدتهم وتخدم مصالحهم، ولقد قامت الجريدة بدورها مجتهدة في تقديم الإجابة عبر مقالات عديدة، نتوقف فيما يلي أمام اثنين من أبرز كتابها: عبد الرحمن الراشد، سمير عطا الله.

عبد الرحمن الراشد:

تنشغل كتابات عبد الرحمن الراشد، التي تدخل في نطاق العينة المبحوثة، بكثير من القضايا الجوهرية التي ترتبت على تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر، فهو لا يركز على المتابعة الخبرية واللهاث وراء التطور الشكلي في إيقاع الحادث وتداعياته، لكن اهتمامه ينصب على المحاور ذات الأثر والتأثير في حياة الشعوب والأنظمة العربية والإسلامية، فضلاً عن الاهتمام الطاغي بقضية الإرهاب نفسها.

ما انعكاس تفجيرات نيويورك وواشنطن على القضية الفلسطينية؟

ما تأثيرها على الشعب الأفغاني؟

كيف يمكن تقييم وتحليل الموقف الأمريكي وما طرأ عليه من تغيير؟

هل تكفي المواجهة العسكرية والأمنية للحد من خطورة الإرهاب، أم أن الحل الجذري يكمن في المعركة الثقافية لاستئصال الإرهاب فكراً وسلوكاً؟.

هذه هي الأسئلة المهمة التي تثيرها كتابات عبد الرحمن الراشد، وما أجدرها بالتحليل لاستنباط وتحديد مرتكزات خطابه في الحرب ضد الإرهاب.

"هل تولد ضربة مانهاتن مدريد أخرى؟"، عنوان المقال الذي كتبه الراشد بعد أسبوع واحد من حوادث سبتمبر، وبداية المقال تنبئ عن الهم الأساسي الذي يهتم به الكاتب، وهو التأثير المتوقع، سلبياً كان هذا التأثير أم إيجابياً، على مسار ومستقبل القضية الفلسطينية:

"هل يمكن أن تكسب القضية الفلسطينية من أزمة المواجهة مع بن لادن؟

نعم ولا. في نظري إنها قادرة على التكسب السياسي واستعادة شيء من حقوقها كما فعلت إبان أزمة تحرير الكويت التي قادت أخيراً إلى مدريد، ثم أوسلو، فعودة السلطة الفلسطينية لأول مرة في تاريخها إلى أرض فلسطين في غزة وأريحا.

ويمكن أن يحدث العكس تماماً، أي أن تخسر القضية الفلسطينية كل ما بنته من تأييد عالمي وتعود إلى نقطة الصفر تحارب من أجل إقناع الآخرين بحقوقها. وهذا التصور يرجع أمره إلى القيادة الفلسطينية". [١٨]

الحادث الإرهابي ليس ذا بعد واحد، ولا يمكن التنبؤ بنتائجه وتداعياته إلا على ضوء المواقف والممارسات التي تقوم بها الأطراف المختلفة على الساحة السياسية. وفي هذا الإطار، يقع على القيادة الفلسطينية عبء توجيه المسار والتحكم في اتجاهه، وهو ما لن يتحقق بمعزل عن اتخاذ مواقف "عملية" يقوم بها هؤلاء القادة، ويثبتون من خلالها أنهم قادرون على القراءة الصحيحة الواعية لما أصبح عليه العالم. كان الموقف خاطئاً وغير محسوب عند وقوع الغزو العراقي للكويت، وهو ما دفع الفلسطينيون ثمنه فادحاً. وكان ياسر عرفات حريصاً على تجنب الأخطاء القديمة عند وقوع التفجيرات التي شهدتها الأراضي الأمريكية، فقد بادر بشجب وإدانة الاحتفالات الصبيانية غير المسئولة التي قام بها بعض الفلسطينيين، ابتهاجا بالعملية الإرهابية ومن سقط فيها من ضحايا أبرياء، بل إنه سارع إلى التبرع بدمه تعبيراً عن التعاطف مع المصابين الأمريكيين. ينبه الراشد إلى أن الشارع الأمريكي يغلي غضبا، وهو على استعداد لإلغاء المسئولية على كل من يضع نفسه في موضع الشبهات، ولن يقبل الرأي العام الأمريكي موقفاً محايدا أو غير محدد في مواجهة الإرهاب والإرهابيين، فإما أن ترفضهم أو أن تكون واحداً منهم!.

نصيحة ثمينة غالية يختتم بها الراشد مقاله، وهي نصيحة تنم عن إدراكه العميق الصحيح الناضج لمجمل الأوضاع السياسية و"النفسية"، على الساحة الأمريكية بعد تفجيرات نيويورك وواشنطن:

"وإن كثف الفلسطينيون موقفهن الفاصل بين نقدهم للسياسة الأميركية في حق القضية الفلسطينية ورفضهم للعمليات العسكرية ضد الولايات المتحدة، فإنهم سيكسبون تفهما لهذا الموقف. وقد تترجم هذه الأزمة لصالح الفلسطينيين في فرصة تاريخية لم يسبق لها مثيل. فالأميركيون يعانون بأنفسهم ما عاناه العرب والمسلمون عموما من الإرهاب الذي يقوده أناس مستفيدون من أزمات العالم الإسلامي ويتبعهم المحبطون". (١٩)

جوهر النصيحة أن يتم الفصل بين عداء ونقد السياسة الأمريكية، وهو حق مشروع في ظل الإحساس بغياب العدالة والإنصاف، وبين التورط في التعاطف مع الإرهاب وتأييد الإرهابيين. مثل هذا الموقف العاقل المتزن، إذا تم اعتماده والعمل به، فقد ينعكس إيجابيا لخدمة القضية الفلسطينية، وأي وكل موقف آخر سيعود بالقضية إلى الوراء.

هل أخذ القادة الفلسطينيون، والعرب على وجه العموم، بالنصيحة التي يقدمها لهم الراشد؟. هل سعوا إلى التعامل مع الحادث من منطلق سياسي عقلي، أم أنهم قد تورطوا من جديد في التواصل العاطفي والإنشائي؟!.

بعد عام تقريباً، يكتب الراشد مقالاً يحمل عنوانه تساؤلاً مهما: "أين الخطأ في تعاطي أحداث سبتمبر؟"، ويقدم المقال إجابة موجعة مؤلمة، قدر ما هي صادقة دقيقة، عن الفشل الذريع الذي مني به العرب في التعامل مع الحادث، ذلك أنهم تشبثوا بموروثهم السياسي التقليدي العشوائي، الذي أثبت عجزه مراراً وتكرراً، وانطلقوا من فرضية وهمية خاطئة، قادتهم إلى المزيد والمزيد من الأخطاء والانتكاسات.

يقول الراشد في جانب من مقاله المهم:

"ما حدث أن الجانب العربي، بضعف مؤسساته وعجزها عن الفهم السريع وبطء قدرتها على الحركة لم تفعل إلا القليل عسكرياً ضمن محاربة ما سمي بالإرهاب، أما على المستوى السياسي فقد تركت الساحة خالية لأطراف أخرى، أولها الراغبة في الانتقام وهي الغالبة. الثانية يمين متطرف يرى العالم من منظار القوة والهيمنة وكانت حججه بالتسلح قد سقطت بعد سقوط الاتحاد السوفيتي. أما الثالثة فهي فئة الموالين لإسرائيل الذين كانوا يواجهون خسائر سياسية متزايدة من رئيس أميركي إلى آخر، حيث تطور الموقف الأميركي نسبياً لصالح الحقوق الفلسطينية. فالمتطرفون الإسرائيليون، مثل المتطرفين العرب، أقل استعدادا للمساومة والتعايش والسلام. لاشك أن الإسرائيليين تسللوا من فتحة العقل الأميركي التي أحدثتها فاجعة

١١ سبتمبر، ولأنهم فهموا طبيعة الأزمة وراء المحيط الأطلسي استطاعوا تقديم رؤيتهم للحل. أم الطرح العربي فقد ظهر في كتابات استنتجت بسذاجة أن الأمريكيين سيدركون الآن أن تأييدهم لإسرائيل وراء التطرف في المنطقة، والتطرف وراء الإرهاب، ولا سبيل لإلغاء الإرهاب إلا بإلغاء أسباب التطرف، ومؤجج التطرف هو احتلال إسرائيل وممارستها القمعية. الوصفة العربية لعلاج أحداث سبتمبر كانت تقول باختصار إن الوقت قد حان لإجبار إسرائيل على الانسحاب حتى يتوقف المتطرفون العرب عن معاداة أميركا. هذا التحليل البسيط في مفهومه والذي يقوم على التمنيات لا على حقائق الأرض ساد في الأشهر الأولى، ولعله يجوز لي أن أذكر بمقال تحديت فيه هذا الاستنتاج الشائع حينها بأن إسرائيل في ورطة بسبب أحداث سبتمبر؛ لأنه عاطفي ويتناسى تجاربنا الماضية مثل استخدام المقاطعة النفطية سلاحا، وتدمير الطائرات الأمريكية في عمان، واغتيال السادات، واحتجاز موظفي السفارة الأميركية في طهران، ومواجهة الأميركيين في لبنان، وعمليات الخطف المتعددة، واستضافة مطلوبين كبار مثل كارلوس وأبو نضال وبن لادن. كلها كانت تقول إن على أميركا أن تنهي الاحتلال الإسرائيلي حتى ترتاح من صداع الإرهاب وتخلص المنطقة من المتطرفين.

بالنسبة للأمريكيين بدت هذه لغة ابتزازية ولا تقابل إلا بالتحدي والقوة أيضاً" (٢٠)

تخاذل عسكري، وغياب سياسي يتيح الفرصة لأطراف ذات مصالح وأهداف مختلفة عما يريده العرب، وتتمثل هذه الأطراف في الغاضبين والمنتمين إلى اليمين المتطرف والموالين لإسرائيل. لقد نجح الإسرائيليون وأنصارهم في استثمار الحادث لخدمة مصلحهم، لأنهم أجادوا القراءة واستوعبوا طبيعة الأزمة التي يعانيها الأمريكيون من جراء العدوان الذي تعرضوا له. وفشل العرب في المقابل؛ لأنهم توهموا وتخيلوا، دون الاتكاء على أساس مقنع، أنهم يملكون الحق المطلق، وأن هذا

الحق من الوضوح والجلاء بحيث يتحتم أن يقتنع به الأمريكيون دون عناء، ومن ثم يعيدون رسم سياستهم الإستراتيجية من هذا المنطلق الذي لا يراه إلا العرب وحدهم. لابد أن يوصف مثل هذا التحليل بالسذاجة، فقوامه التمنيات والأحلام، ومرتكزة السياسي والفكري يتسم بقدر كبير من الإسراف العاطفي الذي لا تتسع له الساحة السياسية، فضلاً عن نسيان العرب، أو تناسيهم، لعديد من المعطيات التاريخية الثابتة، التي يستشهد كاتب المقال بالكثير منها، تبرهن على أن السلوك العربي والإسلامي لم يكن دائماً فوق مستوى الشبهات!. فكرة "الابتزاز" السياسي والعاطفي، ليست مقبولة عند الأمريكيين، بل إنها تدفعهم إلى العناد واللجوء إلى القوة، وبذلك تحقق عكس ما يريده مستخدموها.

إن الفشل العربي المتكرر مردود إلى حقيقة أن العرب ينظرون إلى أنفسهم، دون نظر إلى الآخرين، والمحصلة النهائية المنطقية لمثل هذه النظرة الأحادية المغلوطة، تتجسد في الفقرة الأخيرة من المقال:

"بالفعل أثبتت الأشهر اللاحقة خطأ هذا الطرح ونجح طرح الفئات الثلاث أي المواطنين الغاضبين الراغبين في الانتقام، واليمينية المتطرفة الداعية إلى هيبة القوة، والفئة الثالثة الموالية لإسرائيل التي صورت للأميركيين أن الإرهاب واحد ودواءه واحد بمحاربته ومحاربة مصادره. إن أحداً لم يتحدث هناك عن الأسباب كما رآها العرب، وبالتالي أخطأ العرب مرة أخرى في فهم العقلية الأمريكية وفاتت عليهم فرصة معالجة الأزمة بما يقضي على التطرف العربي الذي هو أم المشاكل في المنطقة". (٢١)

الموقف العربي، بكل ما فيه من أمراض العشوائية والعاطفية وغياب الحسابات الدقيقة المتزنة، هو المسئول الأول عن الانتصارات المدوية التي حققتها إسرائيل والقوى الموالية لها داخل الإدارة الأمريكية، وستتوالى الهزائم التي تطول القضية الفلسطينية، وغيرها من القضايا العربية والإسلامية، ما بقي التطرف الذي لا يجد

من يناهضه، وما بقى العجز عن استخلاص النتائج الوخيمة التي يفضى إليها هذا التطرف.

التجربة الأفغانية نموذج واضح لما يقود إليه التطرف من ناحية، وارتباك داخل السياسة العربية من ناحية أخرى.

فرصة أفغانستان:

عن معاناة الشعب الأفغاني، الذي يدفع الجانب الأكبر من فاتورة الخسائر، يكتب عبد الرحمن الراشد مقالاً عنوانه: "فرصة أفغانستان لترتيب أوضاعها"، ويبدأ على النحو التالي:

"مساكين هؤلاء الأفغان، فلا نعرف أمة ابتليت بما ابتلوا به، فقد احتلهم السوفييت وأسقطوا مؤسستهم السياسية فقضوا بذلك على أفغانستان الدولة، وأعقبهم المجاهدون الذين هدموا في لعبة الحرب بينهم كل ما وقف من عمران حتى أحالوه خرابا، وانتهت حرب المجاهدين باستيلاء طالبان على الحكم التي عطلت ما تبقى من أسباب الحياة، وضربهم الجفاف عامين فمات الكثير من السكان ونفقت مواشيهم، واستضافت كل من لجأ إليها من الأفغان العرب المنبوذين في بلادهم ليتسببوا في قطيعتهم مع العالم بأجمعه، وفجأة تصبح بلادهم محور العالم تحتل نشرات الأخبار. وها هي أكبر قوة في العالم تهدد بالقضاء على كل ما تبقى فيها". (٢٢)

حلقات متصلة، والمشترك الوحيد بين هذه الحلقات هو الخراب والدمار والمزيد من المعاناة للعاديين من أبناء الشعب الأفغاني، فهم الذين يتحملون وحدهم ما يترتب على الصراعات التي تدور فوق أراضيهم، وهى صراعات خاضعة لحسابات ومصالح بعيدة عنهم كل البعد. نهاية الاحتلال السوفيتي لم تكن بداية لمرحلة جديدة مستقرة مزدهرة، فقد كان واقع ما بعد الاحتلال أشد وطأة وأكثر اضطرابا: صراعات دموية

قاسية بين المجاهدين القدامى، استيلاء حركة طالبان على السلطة لتقدم نموذجا سلبيا عن الحكم الديني، استضافة للإرهابيين تقود إلى القطيعة مع العالم وتوتر العلاقــات، وصولاً إلى تفجيرات سبتمبر والتعرض للتهديد الأمريكي الذي يفضي بــدوره إلـــى المزيد من المعاناة. لم تكن تفجيرات نيويورك وواشنطن بعيدة عن أصابع من يعيشون فوق الأراضي الأفغانية ويحظون بحماية وتأييد طالبان، ولم يكن التهديد الذي ســببته الحالة الأفغانية إلا نتيجة منطقية متوقعة لجملة الأمــراض التـــي أصـــابت الــشعب الأفغاني، وجعلت من أرضه مرتعا للمتطرفين والإرهابيين. من هذا المنطلق، يمكــن النظر إلى التهديدات التي تواجهها أفغانستان، فالحرب الوشيكة ليست شــرا خالــصا؛ لأنها قد تحمل نهاية للمأساة التي طالت وأثمرت كثيراً من الكوارث:

"ولأن أفغانستان استعصت على كل دول المنطقة التي حاولــت إصــلاحها أو ردعها، فإن دول المنطقة، مهما قيل غير ذلك، تريد للحملة أن تنجح ولكابل العاصمة أن تنظف ولشجر الخشخاش أن يقطع. هذه المرة بسلاح هو سلاح غيرهم. وهو أمل الأفغان المهددين دوما بالجوع من الجفاف والموت بسبب الحروب الأهلية، فــي أن تبلغ المأساة نهايتها" . (٢٣)

دول المنطقة "تريد" ولا "تستطيع"، والأمر مختلف جذرياً عند الولايات المتحدة، فالإدارة عند الأمريكيين وثيقة الصلة بالاستطاعة، وهم قادرون على تحقيق ما يرون أنه يحقق مصالحهم. لن يتحقق الفهم الصحيح للمسارين الفلسطيني والأفغاني، وكــل مسار آخر يتعلق بالعرب والمسلمين، إلا على ضـــوء التحليــل الــصحيح للــسياسة الأمريكية، التي تصنع مواقفها، وهذا الفهم هو ما يقوم به الراشد في مقالين مهمــين، نشر الأول منهما قبل يومين من الذكرى الأولى لأحــداث ســبتمبر، وعنوانـــه: "١١ سبتمبر: ما هي أخطاء أمريكا؟"، ويبدأ بالتأكيد على أن أول وأفدح الأخطاء الأمريكية هو التأخر في الحركة الإيجابية لمقاومة الإرهاب:

"ليس خطأ أن الولايات المتحد تشن هجوما على القاعدة والتنظيمات المعادية لها اليوم، بل الخطأ الفادح أنها لم تشن مثل هذه الحرب مبكرا، منذ أول هجوم أصابها، وبالتالي نمت مشاريع الهجوم ضدها وسددت ضدها الضربات واحدة تلو الأخرى وهي تكتفي بتقفي الأثر والبحث عمن يقوم بمحاربة مهاجميها نيابة عنها" (٢٤)

ما أصاب نيويورك وواشنطن، في سبتمبر ٢٠٠١، بمثابة النتيجة المنطقية المتوقعة بفعل تراكم الأخطاء والتقاعس في مواجهتها، فقد تعرضت الولايات المتحدة لعمليات كثيرة سابقة، متفاوتة القوة والنتائج، في عدن وكينيا وتنزانيا والمملكة العربية السعودية. إلى هذه العمليات يشير كاتب المقال، قبل أن يعود ليؤكد على فكرة الخطأ الأمريكي في تأجيل المواجهة، وهو موقف نابع من الاستهانة بحجم هذه العمليات وما تحمله من دلالات:

"إن هذا الكم الكبير من النشاط العسكري، ما نجح منه وما فشل، ضد الولايات المتحدة على مدى ست سنوات لم تأخذه الحكومة الأميركية بجدية حقيقية إلا في وقت متأخر جداً، وكان ردها العسكري الوحيد محدوداً جداً اختصر في عمليتين عسكريتين صغيرتين الأولى أصابت فيها موقعاً قديما لابن لادن في السودان صار مستشفى، والثانية بضعة صواريخ أطلقتها على موقع للتدريب، ثبت لاحقاً أنها عملية محدودة. ست سنوات من المواجهة الخطيرة لم تؤخذ بجدية من قبل السلطات الأميركية؛ لأن أجهزتها الاستخباراتية والعسكرية أخفقت في فهم طبيعة التهديدات والعمليات التي أصابتها" . (٢٥)

الولايات المتحدة مسئولة عما أصابها، ومقصرة في التفاعل الإيجابي الصحيح مع كثير من العمليات والتهديدات الخطيرة، التي تم التعامل معها باستهانة واستخفاف، وفي إطار رؤية جزئية عاجزة عن الربط بين المعطيات المختلفة المتكاملة المتداخلة المتشابكة، ويصل الكاتب إلى القول في نهاية مقاله:

"إن عدم الرد الجاد من الجانب الأميركي بعد حادثة الرياض وعدن ثم نيروبي ودار السلام ومحاولات باريس والألفية وغيرها أعطى انطباعاً خاطئاً عند الجميع أن الصراع محدود. لهذا يبدو مثيرا للاستغراب أن يقوم ذوو الضحايا برفع دعاوى ضد آخرين هم في حقيقة الأمر ضحايا للإرهاب في حين غضوا النظر عن الطرف المسؤول عن هذا الإهمال، أي الجهات الرسمية المعنية بضبط الأمن" (٢٦)

ما حدث في ١١ سبتمبر هو البداية لتغيير المسار، وللتعامل مع المخاطر الإرهابية بما تستحقه من جدية واهتمام. لم يكن إهمال الإرهاب والاستهانة بالعمليات خارج الأراضي الأمريكية هو الخطأ الوحيد الذي وقعت فيه السياسة الأمريكية، فثمة خطأ آخر يرصده المقال الثاني للراشد، وعنوانه: "١١ سبتمبر: دخول الأمريكيين خط المعركة". يتمثل الخطأ الفادح، كما يرى الكاتب، في جهل الأمريكيين بثقافة الإسلام السياسي، الذي اشتد ساعده بعد ثورة الخوميني في إيران، وهو الجهل الذي قادهم – بلغة الراشد نفسه – إلى "تخبط مستمر وسياسات متناقضة". كانت السياسة الأمريكية، قبل سبتمبر، على استعداد تام للتعاون والتنسيق مع بعض التيارات الإسلامية، كما أن هذه السياسة نفسها لم تكن حاسمة في دعم بعض الحكومات والأنظمة العربية وهي تخوض معاركها ضد ما تتعرض له من إرهاب أفرزه التطرف. كان لابد أن يختلف الموقف تماماً بعد اعتداءات سبتمبر، ذلك:

"أنها شكلت انقلاباً في السياسة الدولية حيال الحركات الأصولية وجاءت نجدة حاسمة لصالح الأنظمة في صراعها ضد الدينيين فتحولت الحكومة الأميركية من دولة ناقدة ومحايدة إلى دولة مقاتلة. إن القاعدة بتطرفها وجهت أكبر لطمة للحركات الإسلامية المعتدلة التي تتجنب أسلوب العنف وتنشد التغيير السياسي. فقد أصبحت عرضة للملاحقة والتضييق، وخسرت كل ما بنته بصبر وطول سنين من علاقات خارجية وما كسبته في حملات علاقات عامة لإقناع الغرب بتأييد حقها في العمل السياسي وإقناعه بأن الإسلاميين قادرون على التعامل مع العالم الصناعي بمسؤولية

وواقعية وعلى أرضية مشتركة عمادها ديمقراطية، مثل تنظيمات الإخوان في مصر والأردن. تبخرت تلك الآمال بعد ١١ سبتمبر ولم يعد الغرب يتردد في رفضه التعامل مع الأصوليين الإسلاميين، بل أعلن طلاقه من تلك الحركات. ولا ننسى أنه كان من صلب الدبلوماسية الأميركية مد صلات مع الحركات الإسلامية داخل الدول العربية ضاربة بعرض الحائط احتجاجات وغضب الحكومات الإقليمية. أما اليوم فإنه في أدنى ارتباطاتها. هذا بالإضافة إلى انقلاب الإعلام الغربي المستقل ضد الحركات الإسلامية المعارضة التي كان يرى فيها لغة احتجاجية صائبة ضد الأوضاع السيئة في الدول العربية ". (٢٧)

انتقلت أمريكا من الحياد إلى القتال، وغاب عن مدارك منفذي العملية أنهم قد يحققون انتصاراً جزئيا، يتمثل في تدمير بعض المنشآت وقتل آلاف من الضحايا المدنيين، لكنهم – في المحصلة النهائية – قد نالوا هزيمة مؤلمة، تمتد آثارها إلى المعتدلين الذين يعلنون مخاصمتهم للعنف. الخسارة الفادحة تطول مجمل الحركة الإسلامية، فقد انهدم كل ما بنته وسعت إلى تكريسه عبر سنوات من الدعاية الإعلامية والفكرية، ولم تعد الأحضان الأمريكية مفتوحة لاستقبالهم والاستماع إلى أطروحاتهم والتعاطف مع احتجاجاتهم على الحكومات الإقليمية التي "تضطهدهم" وتنكل بهم!. التغيير نفسه يصل إلى الإعلام الأمريكي والغربي، فقد تبخر تأييده القديم للحركات الإسلامية المعارضة، ولم يعد مقنعاً ما يرددونه عن الأوضاع السيئة في بلدانهم، تمثل هذا المنطق لا يبدو قادراً على الإقناع وجذب الأنصار.

هل انتصرت "القاعدة" إذن أم تعرضت لهزيمة ساحقة؟!. الانقلاب الأمريكي بعد معاناة سبتمبر إيجابي، مع الاعتراف بأنه نتيجة مترتبة على عمل إرهابي دموي جدير بالاستنكار، فقد أصيبت منابع التطرف والإرهاب بضربة موجعة.

"ومن نتائج هجمات سبتمبر أنه أصبح الجانبان الرسميان اليوم في خندق واحد ولا أدري كيف سيمكن لهذه الحركات أن تنجح مستقبلاً في ظل وجود حرب معلنة ضدها على كل المستويات؟ " (٢٨)

في اليوم التالي، يكتب الراشد مقالاً مهما عنوانه "١١ سبتمبر: محاربة ثقافة القاعدة"، وأهم ما في المقال هو إشارة الكاتب إلى أن ضخامة خسائر التفجيرات، بالمنظور الأمريكي، لا تنفي حقيقة أن شعوب المنطقة العربية، في مصر والجزائر والسودان وتونس والمملكة العربية السعودية واليمن، سبق أن تعرضت لخسائر لا تقل فداحة وضخامة. ولهذا التاريخ الدامي علاقة بغياب عنصر المفاجأة الصاعقة في المنطقة العربية. رد الفعل الأمريكي على الضربة التي طالتها لا يختلف موضوعياً عن ردود الفعل العربية في مواجهة الأحداث المشابهة، والخطأ المشترك يكمن في طغيان التركيز على الجانب العسكري والأمني. التجربة المصرية خير دليل على أن المعالجة الأمنية وحدها لا تكفي:

"يمكن لنا أن نقرأ التجربة المصرية المختلفة عن التجربة الجزائرية في نجاحها. فقد دارت حرب كبيرة عسكرية كسبها النظام، وخسرتها الحركات الأصولية المسلحة، كما خسرت أيضاً قلب وعقل الشارع المصري الذي صدمته صور الدماء والتفجيرات في العاصمة القاهرة والصعيد. استأصل المصريون العنف العسكري الأصولي، لا ثقافته تماما، وتجاوزوا محنته، لكن معركة الثقافة مسألة طويلة حيث شرعت مصر في إعادة ترتيب الدور الثقافية والدينية وربما تنجح مستقبلاً في استئصال فكر التدين المسلح" (٢٩)

مع من يقف قلب وعقل الشارع المصري، على اعتبار أنه نموذج متكرر في عديد من الدول الأخرى، تجاه الصراع الدائر بين النظام والأصوليين؟!. الانتصار الأمني وحده لن ينجح في اقتلاع جذور التطرف الفكري، الذي يدفع إلى الساحة الإرهابية بالمزيد من العناصر كل يوم، والمواجهة الحاسمة لابد أن تتجه إلى المنابع: الثقافة والمفاهيم الدينية المغلوطة، فمن خلال هذا التوجه وحده تستقيم الأمور، ويمكن أن يتحقق النصر الحاسم الكامل.

على الولايات المتحدة أن تبدى مزيدا من الاهتمام بالعالم الإسلامي، وأن تعمل بجد في إطار الهم المشترك الذي يتمثل في الإرهاب وممارساته. للشارعين العربي

والإسلامي ملاحظات كثيرة حول السياسة الأمريكية، لكن تغيير النظرة الشائعة لن يتم إلا عبر معركة ثقافية، ومن خلال الابتعاد عن الإجراءات المتفنتة التي تتطرف فترى أن كل مسلم مرشح للعمل الإرهابي، وأن المسلمين بشكل عام جديرون بمعاملة مختلفة استثنائية:

"ولن يكسب الأمريكيون، بدورهم، الحرب في مواجهة "القاعدة"، ومثيلاتها من التنظيمات العديدة الأخرى إلا من خلال كسب المواجهة ثقافياً. ولن تكسبها الولايات المتحدة دون استمالة العالم الإسلامي إلى صفها. صحيح أنه عالم معزول، ربما لا يبالي كثيراً بالمشكلة الأميركية اليوم، لكنه قد يفعل إذا فهمه الأميركيون وفهموا أن مشكلتهم وهذه الدول مشتركة، مواجهة الفكر الداعي للعنف، فالضحية يمكن أن يكون في القاهرة أو إسطنبول أو كوالالمبور أو نيويورك أو باريس. وهنا يتعين على الأمريكيين أن يفرقوا بين مشاعر بريئة لشارع غاضب وبين نشاط التنظيمات المتطرفة، جميعهم ضد الولايات المتحدة لكن فريقاً واحداً هو الخطر ذلك المسلح أو الداعي للتسلح. كسب كل الحرب، لا معركة واحدة، لن يتأتى بدون كسب عاطفة العالم الإسلامي وتأييده. والولايات المتحدة تخسر الآن كثيراً بتصرفاتها الأمنية المبالغ فيها التي شاعت أخبارها ضد مراكز وأفراد وفرض قيود على المسلمين واستثنائهم بقوانين مثل البصمة دون غيرهم من أمم العالم والسماح لأجهزة الأمن للملاحقة بلا تثقيف حول من يلاحقون" (٣٠)

السؤال المحوري الجدير بالاهتمام: كيف تكون المواجهة الحاسمة مع الإرهاب؟! بالإجراءات الأمنية المتشددة، أم بالحرب الفكرية ضد المنابع التي تغذي الإرهابيين وتزيد من أعداء المناصرين والمنخرطين في صفوفهم؟! إهمال الجانب الأمني ليس وارداً، فهو ضرورة لا غنى عنها، لكن الاهتمام بالجانب الثقافي في المعركة لا يقل أهمية، وبدونه لن يحقق الأمن انتصاراً نهائياً حاسماً.

في اليوم التالي، يواصل الراشد تركيزه على أسلوب المواجهة والموقع الذي تحتله المعركة الفكرية والثقافية في الصراع ضد الإرهاب. يحمل المقال عنوان:

"١١سبتمبر: أخطاء العسكرة والثقافة"، ويتوقف عند حجم المشاركة السعودية ودورها في عملية الحادي عشر من سبتمبر، وهو أمر وثيق الصلة بالداخل السعودي وتفاعلاته.

الأغلبية العظمى من المشاركين في هجمات سبتمبر سعوديون، ١٥ سعودياً من بين ١٩، وفي معتقل غوانتنامو كثير من السعوديين، وكثير من الأفغان العرب يحملون الجنسية السعودية!.

الحقائق السابقة لا تحتمل الشك بل تستدعى الجدال، وكأنما يدرك الراشد أن ما يقوله قد يصدم الكثيرين من قرائه، فيضيف:

"هذه بداية لا ترضي البعض لكن مواجهة الحقيقة خير من التمسك بذرائع واهية بعد ١١ سبتمبر أصبح السعودي مثل العراقي والفلسطيني والإيراني والليبي، لا يمنح تأشيرة لبلدان العالم بسهولة، ولا تسلم تحركاته من المتابعة، ولا تؤمن تعاملاته المالية. باختصار بعد أن كان السعوديون أكثر الشعوب العربية تدليلاً صاروا أكثرها ملاحقة ". (٣١)

المسألة ليست في الانتقال من "التدليل" إلى "الملاحقة"، لكنها في الأسباب الموضوعية التي قادت إلى المعاملة الجديدة، وفي ضرورة التوقف الجاد أمام قضية شائكة حساسة، لا مهرب من طرحها للبحث والمناقشة. الأوضاع الاقتصادية ليست مسئولة، فكثير من السعوديين المنتمين إلى "القاعدة" من أبناء أسر ثرية أو ميسورة الحال. إن نقطة الانطلاق الحقيقية تكمن في ثقافة العنف:

"ثقافة العنف التي تسربت إلى الطرح الديني فخرجت على تقاليد مجتمع محافظ مسالم كالمجتمع السعودي. سُيست الدعوة الدينية، وبعد تسييسها جرت عسكرتها، خلافا لما عرفته المملكة طوال سبعين عاماً". (٣٢)

"تسييس" الدين يقود إلى "عسكرته"، والبدايات الأولى لهذا التحول الخطير تبدأ مع الحرب الأفغانية، فهي أول حرب سعودية منذ قيام الدولة، وبفضل هذه الحرب

انتشرت ثقافة العنف، وظهرت مؤسسات الجهاد، وسُيس المجتمع، في جوامعه وجامعاته. يضع عبد الرحمن الراشد يده على قضية بالغة الخطورة: "إن نزع روح القتال أصعب من نزع السلاح".

كيف يمكن نزع هذه الروح القتالية؟!. وكيف يمكن ترويض آلاف من الشباب السعودي الذي تمت تعبئته باسم الجهاد؟!.

"انتهت منذ ذلك الحين تلك البراءة والمسالمة الاجتماعية بعد أن صار التسلح عملاً احترافيا، واستمر الشباب في أفغانستان بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وصاروا يجندون المزيد من الشباب، رغم أن الحكومة حاولت تعطيلهم إلا أنهم تعلموا أن يصبحوا مستقلين.

ولا أعتقد أن التفاصيل بعد ذلك مهمة، فلو لم يكن هناك بن لادن لكان هناك غيره بوجود شباب عسكر محترف مؤدلج في الخارج باسم الجهاد في الشيشان وكشمير وغيرهما. وفي المهاجر البعيدة اكتشف الشباب الجدد خلايا سياسية لها طروحات جغرافية أبعد من غروزني تدعو للتكفير والتغيير والمواجهة العالمية. أتصور أن هذين السببين، التثقيف المسيس والعسكرة الشبابية، وراء المفاجأة الكبرى في أحداث القاعدة.

وقد يكون لزاما أن نسأل ما العمل بعد وقوع الضرر؟ إنه ليس سهلا إعادة البراءة لمجتمع أصابته أضرار ثقافية بعد أن كان أكثر المجتمعات العربية حصانة. العلاج في نفس العلة. ثقافي فقط" (٣٣)

العلاج في نفس العلة: ثقافي فقط، وسقوط الشباب في براثن التطرف والإرهاب لن يتوقف، بقيت "القاعدة الثقافية" التي تغذي "القاعدة العسكرية". العلاج المطروح ليس سهلا، لكنه البديل الوحيد لإيقاف التدهور. وليس أولى على قناعة الكاتب بفكرته عن الحرب الفكرية، من عودته بعد عام كامل ليؤكد عليها في مقال جديد، يحمل عنوان "هل كنا أفضل بلا ١١-٩" في الذكرى الثانية لتفجيرات نيويورك وواشنطن، يستخلص

الراشد ما يرى أنه الدرس الأكثر أهمية، ويتعلق الدرس بضرورة التصدي الحاسم للجناحين العسكري والفكري في تنظيم "القاعدة"، الذي يقود العمليات الإرهابية في العالم. لا جدوى من المواجهة العسكرية وحدها، فالذين يسقطون من القاعدة يتم تعويضهم من خلال عمليات التجنيد الواسعة، وهذا التجنيد محصلة منطقية للثقافة السائدة التي تزرع أفكار التطرف والعنف في كثير من البلدان الإسلامية، ولا تجد من يقاومها.

يقول الراشد في فقرة من مقاله:

"في نظري أن الجناح العسكري لـ "القاعدة" ليس الأكثر خطراً مع أنه هو الذي يحظى بالمتابعة والاهتمام. الأخطر مشروعها الكبير، زراعتها ثقافة العنف والكراهية، وقدرتها على تخريب هياكل المجتمعات الإسلامية من مؤسسات خيرية وتعليمية وإعلامية. ١١ سبتمبر هي التي دفعت الحكومات الإسلامية في ماليزيا وإندونيسيا وباكستان وبنغلاديش والسعودية واليمن وغيرها، إلى الانتباه وإنقاذ مسلميها من الخطر المقبل.

أحداث صباح الحادي عشر أوقفت مشروعاً أكثر خطورة على المسلمين، مشروع تحويل المسلمين إلى طوابير عسكرية تؤمن بمحاربة العالم، وهن التفكير العقيم الذي ينظر إلى عجز المسلمين فلا يرى حلا له إلا بهدم الدول الأخرى. إن مشروع تطوير المجتمع الإسلامي ثقافياً ومؤسساتياً ودفعه نحو الخلاص من الفقر والتخلف والحروب المستمرة لا يحتاج إلى بنادق وانتحاريين، فما أكثر البنادق وما أرخص الانتحاريين في عالمنا، بل يحتاج إلى تطوير المجتمع مدنياً وسلمياً، ومحاربة مظاهر التخلف" (٣٤)

لابد من توجيه الحرب إلى ثقافة "القاعدة"، وليس إلى عناصرها العسكرية المقاتلة فحسب، ولابد من فضح وتعرية المشروع الذي تقدمه، والكشف عن تهافته. التخلف هو المرض العضال في الواقع العربي، وهو الذي يفرز مظاهر التطرف وحركات الإرهاب، وقد جاءت أحداث سبتمبر لتقدم إثباتاً عملياً عن ضرورة وحتمية التطوير الاجتماعي الذي لم يعد يحتمل التأجيل.

على نحو ما، كانت العملية الإرهابية ذات جوانب إيجابية، فقد أنقذت الدول العربية من أن تتحمل وحدها عبء العمليات التي تشنها "القاعدة"، وجرت الولايات المتحدة إلى معركة كانت ترفض المشاركة فيها، من منطلق أنها في مأمن من آثار الإرهاب.

١١ سبتمبر ماذا.. لو؟

قبل يوم واحد من الذكرى الخامسة لهجمات سبتمبر، يكتب الراشد: "١١ سبتمبر: ماذا لو؟"، وفيه رؤية شاملة للآثار العديدة المتشابكة التي ترتبت على الحادث:

"ما زلت أجزم أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر في الواقع أنقذت دول المنطقة من أن تستفرد بها "القاعدة". السبب أن هجمات تنظيم القاعدة على نيويورك وواشنطن جرت الأمريكيين إلى حرب لم تخطط لها فأعفت ما لا يقل عن خمس دول عربية من المواجهة المنفردة. الهجوم على شرق الولايات المتحدة كان هدفه دولاً عربية لا واشنطن بذاتها.

مصر والسعودية والمغرب والأردن واليمن جميعها كانت في مرمى بندقية القاعدة والهدف النهائي لها. ولكم أن تتصوروا أن هجمات الحادي من عشر لم تحدث. تصوروا القاعدة بمعسكراتها، وجيش من المقاتلين لا يقل عن خمسة آلاف، مدربين على أعلى مستويات القتال بهدف الموت لا الانتصار، واستهدفوا كل دولة عربية من المتوقع أن يقدروا على تخريب أي جهة يستهدفونها. معظم هؤلاء دفنوا أو شردوا أو اعتقلوا بسبب الحادي عشر من سبتمبر في حرب أفغانستان وما تلاها من ملاحقات مستمرة. ومع هذا فالقاعدة بقيت قادرة على التخطيط والرد وإدماء الأمريكيين في أماكن كثيرة في العالم.

ما كان بمقدرة الحكومات العربية فعل ما ألحقته الأجهزة الأمريكية بالقاعـدة وهو أكبر مما أن نتصوره، بدءاً من الحرب على طالبان وانتهاء بتجنيد دول العـالم للركض وراء التنظيم الدولي. وبحكم سلطة الأميركيين على النظام المصرفي العالمي جردت القاعدة من التمويل عبر مراقبة وترصد الحركة المالية الدولية. وبحكم نفوذ واشنطن على العلاقات الدولية جعلت أي دولة تتساهل مع القاعدة هدفاً للملاحقـة، مما ضيق الخناق على التنظيم وحصره في جبال المناطق الحدودية بـين باكـستان وأفغانستان ومطارداً في غيرها. وهناك الحـرب الجاسوسـية المـستمرة، برصـد المكالمات، وجمع المعلومات، ومراقبة الطيران، مما أدى إلى القبض علـى خلايـا للقاعدة أو تحديد حركتها. وبدون أدنى شك لولا أن الهجمة العـسكرية التـي تلـت هجمات سبتمبر لكانت القاعدة عمليا تملك أجهزتها وجيشها وتستفيد من تناقـضات العلاقات الإقليمية بين الدول كما فعلت مبكرا مع السودان ثم أفغانستان.

وهذا لا يعني أن القاعدة قضي عليها، كونها تنظيمياً سريا وعقائديا، لكن من المؤكد أنها خسرت أكثر قدراتها وأرضها ونظامها، نظام طالبان" (٣٥)

الدول العربية مجتمعة لا تملك جزءاً يسيرا من القوة الأمريكية؛ ولـذلك يمثـل انضمام الولايات المتحدة الأمريكية إلى الحرب ضد الإرهاب تحولاً نوعيا إيجابياً، فقد فقدت "القاعدة" كثيراً من كوادرها وقادتها جراء الحرب الشرسة التي شنتها أمريكـا، وهو ما لم يكن بمقدور الأنظمة العربية أن تقلعه. للنفوذ الأمريكي تأثيره الملمـوس، وثمة نجاحات حقيقيةً لا يمكن إهمالها، لكن الصحيح أيضاً أن القاعدة لم تنته، تنظيما أو فكرة، وقدرتها على الصمود قائمة، مع الأخذ في الاعتبار أنه صمود لا يبدو أنـه سيدوم طويلاً.

الخطأ الإستراتيجي للقاعدة، وزعيمها أسامة بن لادن، يتمثل في غياب الإدراك لقواعد اللعبة السياسية، فقد تورطوا بحساباتهم القاصرة في مواجهـة صـعبة تفـوق قدراتهم، وألحقوا بالأصولية الإسلامية، في تجلياتها المختلفة، خسائر فادحة عبر عديد

من المستويات. لو أنهم قنعوا بالمواجهات المحدودة مع الأنظمة العربية الأقل قـوة، لحققوا نجحاً أكثر دون صدام مع أمريكا وحلفائها الغربيين، لكن المشكلة أنهم توهموا في أنفسهم قوة تفوق المتاح:

"هجمات سبتمبر فضحت جهل بن لادن باللعبة السياسية الدوليـة، حيـث إن الغرب كان مستعدا إلى حد ما للتأقلم مع الحركات المتطرفة إن أظهرت نجاحا علـى الأرض وتجنبت المواجهة معه. وكانت دلائل تلـك الواقعيـة الـسياسية ظـاهرة باستضافة القوى الأصولية المنبوذة في بلدانها من مـصر والـسعودية والجزائـر والأردن وسورية، فوفد إلى الولايات المتحدة، بتأشيرة الحكومة، الشيخ عمر عبـد الرحمن، واستقبل بترحاب في أمريكا وكندا الدكتور حسن الترابي، واستضيف فـي واشنطن عدد من رموز الحركة الجزائرية المتطرفـة، بالإضـافة إلـى عـدد مـن الأصوليين السعوديين والتوانسة والسوريين الذين رحبت بهم كـل مـن بريطانيـا وألمانيا.

في تصوري أن ما كشف عنه التنظيم من عدد وتجهيز وتدريب وكفاءة، أثبت كيف كان خطرا، وربما قادرا على تغيير خارطة المنطقة، أو تخريبها بشكل مخيف، لولا أن أربع طائرات اختار خاطفوها وجهتهم نحو أخطر القوى على الأرض فغيروا التاريخ أو لنقل حالوا دون تغييره".(٣٦)

١١ سبتمبر ماذا بعد؟

ويبقي مقال أخير للراشد، في إطار العينة موضوع البحث، نـشره فـي اليـوم التالي، ويحمل عنوانا مشابها للمقال السابق، مع الاتجـاه للقـراءة المـستقبلية: "١١ سبتمبر: ماذا بعد؟".

يتطرق الراشد في مقاله إلي الرؤى المختلفة لتفسير أسـباب ظهـور وتطـور الظاهرة الإرهابية، وهي اجتهادات تدور حول محورين أساسيين: دوافع إقليمية ترتبط

بظروف محلية داخلية، مثل غياب الديمقراطية وحرية التعبير، ودوافع دولية تقترن بالفشل في العلاج الحاسم لبعض المشكلات المزمنة، مثل القضية الفلسطينية.

الرأي الثالث، الذي يميل إليه الراشد ويتبناه، أن الظاهرة الإرهابية ذات خصوصية ومنحي مستقل عن الأسباب التقليدية التي يتم طرحها، فالإرهاب وليد جملة من التفاعلات المعقدة:

"ومع تقديري لوجهات نظر الذين يختصرون الأزمة بربطها بما يحدث إقليميا، فإنهم ينسون أصل المشكلة في كونها دعوة تدميرية ستجد من المبررات الكثير. الغربيون يرون أنها مشكلة مرتبطة بفقدان وسائل التعبير والرفض السلمي المدني، أي المنهج الديمقراطي. وحكومات المنطقة تقول إنها بنت العدالة المفقودة في المنطقة، كقضية فلسطين. الحقيقة أنهم جميعا يهربون من مسؤولياتهم المباشرة بلوم المناخ السياسي الذي هو صحيح في مجمله لكنه ليس لب الأزمة. ففي المنطقة مرض معد وخطير اسمه التطرف، ولا يمكن رده لنقص الديمقراطية ولا اختصاره في قضية فلسطين. فابن لادن، رأس الحركة المتطرفة، يعتبر الانتخاب كفرا، كما أنه لم يضمن قضية فلسطين في أدبياته إلا في سنوات متأخرة، والتاريخ يشهد أنه لم يجهز معركة واحدة ضد هدف إسرائيلي على مدى عشر سنوات.

أعود للتأكيد على أن القاعدة فكرا أكثر قوة اليوم عما كانت عليه في الماضي والسبب أنه في الوقت الذي طاردت فيه أجهزة الأمن خلاياها ودمرت الكثير منها، تمّ فعل القليل من أجل محاصرة فكرها ومؤسساتها المدنية التي تعمل في وضح النهار. السبب أن هناك فريقين يقبلان بهذا الوضع الخطير، واحد يعتقد أنها فورة زمنية وستخبو مع الوقت وبالتالي تجنب المواجهة أفضل الحلول. والفريق الثاني يظن أن مؤسسات الدعم الفكرية والمالية المكشوفة لا علاقة لها بالتطرف الخطر. وفي الحالتين أجزم أن النتيجة ستكون واحدة، عودة العنف بشكل أكبر ومعه عودة الدول الكبرى والتدخل في تفاصيل شؤوننا، تصر بالقوة على إصلاح المناهج، وإغلاق دور رعاية التطرف، وسد باب الإرهاب". (٣٧)

الإرهابيون قادرون دائما على البحث عن ذرائع ومبررات لتنفيذ أعمالهم الإرهابية، والتوجه نحو الشكل الديمقراطي في العالم العربي لن يحل مشكلة الإرهاب، وكذلك الأمر بالنسبة للقضية الفلسطينية. سيجد الإرهابيون مبررات أخرى تتجاوز الديمقراطية التي يرفضونها، والقضية الفلسطينية التي لم ينشغلوا بها جديا. المسألة تكمن في تشبعهم بالفكر التدميري، يتخلق دائما دون اهتمام بتبرير مقنع أو بحث عن أهداف، ذلك أن الهدف الوحيد هو استمرار التخريب والتدمير!

سمير عطا الله وقراءة في الركام:

"قراءة في الركام: من كابل إلى نيويورك"، عنوان المقال الأول الذي كتبه سمير عطا الله، بعد تسعة أيام من تفجيرات نيويورك وواشنطن، ولا تخفي نبرة الإدانة الحاسمة للحادث والتعاطف مع الضحايا. المنظور الحاكم هو أن الحادث ليس شأنا أمريكيا خالصا؛ لأن آثاره تطول العالم كله، كما أن الفعل الإرهابي لا يقبل التفسير أو التبرير:

"إذا كان قتل فرد واحد، فرد أعزل واحد، جريمة يعاقب عليها بالموت، يمكن لنا أن نتصور عقاب جريمة تحمل كل هذه البرودة من الدماء، وكل هذه الجثث من الأطفال والنساء والرجال العزل، وهناك نوع من الجرائم يجد له القانون أسبابا تخفيفية، مثل جريمة الدفاع عن النفس، لكن جرائم العمد والقصد لا تحمل أي تخفيف ولا تدخل في الأعمال التي يلحقها العفو، وفي محرقة نيويورك، وخطف الطائرات الأربع، وإلحاق كل هذا التدمير الحربي بتجمع مدني، لا تبرير ولا تخفيف ولا ظروف تخفيفية". (٣٨)

جريمة متكاملة الأركان، وكافة الأسباب التي يمكن أن يطرحها الإرهابيون لا قدرة فيها على الإقناع. أي مبرر لقتل الأطفال والنساء والرجال العزل، وكلهم من المدنيين؟ أي ظروف مخففة في جريمة تخلو من الدوافع المنطقية، وتتسم بقدر كبير من العمد والقصد؟. فكرة العفو ليست واردة، والتسامح مفردة لا تليق بحجم الكارثة التي لحقت بالعالم كله:

"كل التذمر أو الحقد أو النقد الذي يكنه بعض العالم لكل أميركا، لا يبرر خطف طائرة مدنية واحدة، ولا سقوط طابق واحد من البرج التجاري، ومع ذلك، ففي ساعة الحزن هذه، على أميركا أن تطرح على نفسها أسئلة الخطأ والصواب وليس فقط تساؤلات الثواب والعقاب على الآخرين". (٣٩)

الإطار الإنساني الذاتي، وبخاصة قبل أن يستقر العمل الإرهابي في الأذهان، لا ينفي ضرورة التأمل الموضوعي للبحث عن ثنائية "الخطأ والصواب"، قبل طرح تساؤلات أخرى عن ثنائية "الثواب والعقاب".

لماذا حدث ما حدث؟!. الأمر يحتاج إلي تأمل يزيح العواطف جانباً، ذلك أن رفض الإرهاب والتنديد به لا يعني نهايته، كما أن تهافت الأسباب والمبررات التي يطرحها الإرهابيون، لا تعني أن المشهد يخلو من الخلل والارتباك والقصور.

قبل أسبوع واحد من حلول الذكرى الأولي لهجمات سبتمبر، يكتب سمير عطا الله سلسلة متصلة من المقالات المهمة عن الحادث الإرهابي وتداعياته. بدأ نشر المقالات في ٥-٩-٢٠٠٢، وانتهي نشرها في ١٠-٩-٢٠٠٢.

يقول عطا الله في مطلع مقاله الأول:

"أهم ما حدث في العام الممتد من ١١ سبتمبر ٢٠٠١ إلى ١١ سبتمبر ٢٠٠٢، أن الهوة بين صاحب الهجوم وصاحب الهدف، قد اتسعت مساحة قرن لا عام. فأسامة بن لادن لا يزال بالنسبة إلى أميركا «الإرهابي الأول في العالم» وأول رجل يطلب «حيا أو ميتا» في بلاغ رسمي صادر عن رئيس دولة ديمقراطية يحكمها الدستور. أما بالنسبة إلى مؤيديه فهو لا يزال «الشيخ العالم العامل المجاهد، فاروق العصر البطل أي عبد الله أسامة بن محمد بن عوض بن لادن» وأما ما حدث في نيويورك وواشنطن قبل عام ليس سوى «غزوتين مباركتين» ضد ما يسميه «الشيخ العالم المجاهد الفاروق» «هبل العصر». (٤٠)

طرفا الصراع متباعدان، والهوة بينهما تزداد اتساعا. كلاهما يرى في نفسه الخير المطلق، ويرى الآخر شرا خالصا. ولقد بالغ أنصار بن لادن ومؤيدوه في إسباغ الصفات الجليلة عليه، وجعلوا منه رمزا دينيا وقائدا إسلاميا، لكن السؤال الذي يبدو منطقيا ولا يتعرضون له: ماذا أفاد العرب والمسلمون من العملية التي قام بها تنظيم القاعدة؟!:

"لم يفد ذلك فلسطين ولا أفاد العراق. ولا أفاد العرب. ولا أفاد المسلمين. فقد تحول كل مهاجر إلى مشبوه حتى لو ثبت العكس. وغيَّرت الولايات المتحدة قوانينها فيما عدلت أوروبا قوانين الهجرة، بعدما تبين أن الذين قاموا «بالغزوتين المباركتين» كانوا رجالا هادئين يعيشون في مدن بعيدة لا يعرف بها أحد، من هامبورغ التي لا يزورها غريب إلا الريح والموج، إلى ميلانو التي تصنع أناقة الإيطاليين وزبائنهم حول العالم، إلى الأرياف الأميركية حيث تقوم مدارس الطيران في الحقول الفسيحة البعيدة عن المعمور". (٤١)

توالت الخسائر وتراكمت، ودفع العرب والمسلمون ثمنا فادحا للغزوة التي قادها أسامة ضد الأراضي الأمريكية. كل مهاجر مشبوه، وكل مواطن مسالم عرضة للمطاردة، وقوانين التسامح تتراجع. وفي مقابل ذلك كله، لم يحصد العرب والمسلمون فائدة واحدة، وقضاياهم المعلقة تزداد تعقيدا.

لابد من الإقرار بأن الإرهاب الذي تمارسه "القاعدة" مختلف عن الأنماط الشائعة للإرهاب، فالتنظيم يمثل نقلة نوعية. تتجاوز ما فعلته منظمة "الألوية الحمراء" في إيطاليا، و"حركة ٢٤ نوفمبر" في اليونان. وأسامة بن لادن يتجاوز بدوره الأسماء التقليدية التي تقترن بالإرهاب في الغرب والولايات المتحدة الأمريكية، مثل كارلوس وعبد الله أوجلان!.

لا بديل عن القراءة المتأنية الهادئة، العاقلة غير المتشنجة، لمجمل ما حدث، ولعل المقال الثاني يطرح مدخلا مهما لهذه القراءة المطلوبة. لقد لعبت الثورة الإيرانية

بزعامة آية الله الخوميني دورا كبيرا في تقوية اتجاه الإسلام السياسي، وظهرت مفاهيم جديدة، سرعان ما انتشرت وسادت، عن طبيعة العدو الذي يواجهه المسلمون:

"يومها بدأ الإسلام السياسي، في بعض تشكيلاته، يكشف عن هوية العدو الآخر. إنه ليس فقط الاتحاد السوفيتي الملحد الذي يفرض على ملايين المسلمين في آسيا نصوص لينين وتفاسير سوسلوف، بل هو أيضا الولايات المتحدة التي تدعم إسرائيل وتقف في العالم إلى جانب القضايا المتجاهلة لحقوق الشعوب. وما أن انهار السوفيات وقضي الأمر، حتى قام من يسمي العدو الجديد بالاسم: أميركا! إنها ليست فقط عدواً سياسياً بل هي دولة «الاقتصاد العالمي الربوي الممحوق الذي تستخدمه مع قوتها العسكرية لفرض الكفر والإذلال على الشعوب المستضعفة»". (٤٢)

أمريكا هي العدو الجديد للعرب والمسلمين، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، فهل يمثل العرب والمسلمون بدورهم عدوا جديدا للغرب والولايات المتحدة، بعد سقوط عدوهم القديم؟!. لقد تم استبدال عدو بعدو، لكن المتغير الرئيسي هو اختلاف الأيدولوجيا، وهو اختلاف أثر على طبيعة الإرهاب ونوعية عملياته:

"لكن الخصم الأيديولوجي الذي تواجهه الولايات المتحدة الآن، ليس من النوع العابر الذي ظهر في القرن الماضي، فدعواه وقضاياه لا تنمو فقط في الفقر والقهر، مثل أميركا اللاتينية. ولا تنمو في ظروف ومناخ ونشأة الحرب كما حدث في فرنسا. و«الإرهاب» الجديد لم يكتف بقتل رئيس سابق للوزراء كما فعلت الألوية الحمراء بألدو مورو. أو بقتل الملحق العسكري البريطاني والملحق العسكري الأميركي في أثينا. ولا هو تنظيم يرعب باريس ويفرش عددا من الجثث في شارع «رين» كما فعلت مجموعة تونسية في الثمانينيات.

إنه مؤسسة تذهب إلى نسف برج التجارة العالمي من المرآب في المرة الأولى. وعندما تخفق في ذلك وتضبط السيارة المستأجرة بخمسين دولاراً لا أكثر، تقوم بمحاولة أخرى. هذه المرة بالطائرات المدنية. أمام النظارة والمشاهدين. وتترك

للركاب والمسافرات ممن يحملون هواتف خلوية أن يحدثوا أهلهم لكي يصفوا لهم ماذا يحدث تلك اللحظة. فلن يبقى مخبر في أي حال. ولا يشهد شاهد سوى أسامة بن لادن الذي يحيي «أولئك العمالقة العظام» شعرا: يا طالما خاضوا الصعاب وطالما صالوا وشدوا! إنها لغة مختلفة تماماً عن تلك البلاغات التي كان يتركها المفجرون في الماضي: لا فدية تمول أعمال التنظيم، كما كان يطلب وديع حداد. ولا «كارلوس» يردي الشرطة الفرنسية إذا اكتشف أمره، أو يفاوض على ثمن أرواح وزراء الأوبك. ولا حتى عبد الله أوجالان، يكشف مواقع الدفاع والهجوم. وهنا عدو لا يشبه سوى تركيبة الملفوفة: خلف كل ورقة ورقة أخرى. ولا تدري واحدة بأختها. فقط الجذع يدري بالجميع. إلى اللقاء". (٤٣)

تحول الإرهاب الجديد إلي مؤسسة ذات آليات مختلفة، وهي مؤسسة لا تعرف اليأس، ولا تبحث عن هدف محدد، وتجد متعة في القتال الذي يتوافق مع عقيدتهم، دون نظر إلي ما كان يبحث عنه الإرهابيون القدامى. الأمر إذن يحتاج إلي إستراتيجية جديدة في المواجهة، والخصوم الجدد لن يسهل إخضاعهم للقواعد والأعراف التي كان يتم التعامل بها من قبل.

يتوقف المقال الثالث أمام الخريطة الجديدة، التي اتسعت عما كان، وأمام السرية التي تحير المتابعين لحركة الإرهاب، والأهم من ذلك كله هو اختلاف الدوافع وأماكن الانطلاق:

"أفاقت أميركا في ١٢ سبتمبر ٢٠٠١ تبحث عن الذين ألحقوا بها أكبر هزيمة إعلامية وسياسية خارج الحروب، فوجدت أن أصابعها تلامس أشباحا في كل مكان من الأرض. وإذ صوبت مدافعها نحو أفغانستان، على أنها المقر الأساسي للذين أعلنوا عليها الحرب، أخذت تكتشف يوماً بعد آخر، أن «الجيوش» الحقيقية ليست في قندهار بل في أوروبا. وهي مقسمة إلى وحدات صغيرة، لا تعرف إحداها بالأخرى. ويروي النقيب زهير عسيران في مذكراته الشيقة أنه عندما انضم إلى حركة «القوميين العرب» في شبابه لم يكن يعرف أن أقرب أصدقائه، الراحل على

بزي، كان عضوا في الحركة. فقد كانت السرية هي الشرط الأول. لكن عندما بدأت أجهزة المخابرات الغربية تعيد فتح كل الملفات التي لديها في أعقاب ١١ سبتمبر، أذهلها أمران: الأول أن المهاجمين في معظمهم من عائلات ميسورة ودول صديقة، والثاني أنهم خرجوا جميعاً من أوروبا. وفي أوروبا نفسها انضموا إلى الحركات المتشددة وليس في بلدانهم الأصلية. وبسبب خلاف فرنسا مع بريطانيا حول استضافة المتشددين، أصبحت صحف فرنسا تسمي لندن «لندستان»". (٤٤)

الفقراء ليسوا وقود الحركات الإرهابية الجديدة، وبلدانهم ليست محطة الانطلاق. أبناء العائلات الثرية والميسورة يتمردون على مجمل الأوضاع، وتجنيدهم يتم داخل أوربا نفسها، حيث تحونت بعض عواصم القارة إلي ملاذ آمن يتيح حرية واسعة في الدعاية والتجنيد والتدريب على الإرهاب!.

يبدأ المقال الرابع بالتأكيد على حقيقتين:

"ثمة أمران لا يحتاجان إلى تأكيد: الأول، أن العالم لا يمكن أن يتفق على تعريف محدد أو حتى مطاط «للإرهاب». والثاني أن «الإرهاب» سوف يلازم الدنيا كما لازمها منذ أن قاد سبارتاكوس ثورة العبيد على روما القديمة؛ لذلك تقول ستيلا ريمنغتون رئيسة «ام آي فايف» السابقة في سيرتها الذاتية عن ثلاثين عاما في مكافحة الإرهاب، تقول بكل بساطة:" (٤٥)

الاتفاق على تعريف الإرهاب يبدو أقرب إلي المستحيل، والتخلص الكامل من العمليات الإرهابية لا يقل استحالة. من منطلق هاتين الحقيقتين، يمكن التواصل مع مقولة ستيلا: إن الإرهاب سابق للتفجيرات التي شهدتها أمريكا. الإقرار بهذه المقولة لا يعني الاستسلام لما يشهده العالم من نمو للحركات الإرهابية:

"تقول المسز ريمنغتون إن الطريقة الوحيدة لمواجهة الإرهاب، هي إلغاء أسبابه، وليس في ذلك جديد، إنما الجديد هو أن القائل سيدة أمضت نصف عمرها في الظل، تقرأ على ضوء خافت بعيدا عن العيون، الملفات المخفية والمرعبة. وتصغي، في صوت منخفض، إلى محادثات وأحاديث المرعبين والمخيفين. لقد كان

وراء كل إرهاب قضية. ليس طبعا إرهاب «الألوية الحمراء» أو «١٧ نوفمبر» اليونانية حيث تم القتل للقتل مثل أي جريمة عادية. ولكن هل يكفي «تفهم» الإرهاب من أجل وقفه؟ " (٤٦).

كيف يمكن القضاء على الإرهاب؟!. الإجابة: بالقضاء على أسبابه، وهي إجابة تبدو مراوغة مرهقة، تقود إلي أسئلة أخرى: هل يسهل القضاء على هذه الأسباب؟ كيف يمكن تفهم الأسباب؟ هل يكفي "الفهم" للمواجهة الحاسمة؟!.

في المقال الخامس، ينبه سمير عطا الله إلي قضية مهمة تتعلق بالمغزى الرمزي للأماكن التي يستهدفها الإرهابيون، والوعي بهذا المغزى يتطلب إدراكا للدور الثقافي والنفسي الذي تلعبه هذه الأماكن في حياة الشعوب والأمم:

"حاول الدوتشي موسوليني أن يضيف إلى كل آثار روما القديمة مباني هائلة جديدة. فالعواصم السياسية رموز تاريخية. والمباني التي بنيت في باريس قبل ٢٠٠ عام لا تزال هي دور الحكم. وكذلك في لندن. ذلك هو رمز الاستمرارية التاريخية ومجد المدن. كل شيء في برلين يذكر بأمجاد برلين الأمس. ليس فقط قصور الحكم بل الفنادق والطرقات وبلاط الأرصفة ومحطات القطار. تلك هي العواصم السياسية.

لكن هناك عواصم تجارية رموزها الأبراج والمباني الشاهقة الارتفاع. فالعاصمة السياسية الكندية، أوتاوا، أشبه ببلدة صغيرة تميزها قباب البرلمان الفستقية اللون وأزهار التوليب في شهر مايو. أما العاصمة الاقتصادية تورنتو فيميزها برج التلفزيون الأعلى في العالم، والناطحات الزرقاء، ومبنى البورصة ودور الصحف الكبرى. وكذلك ساو بالو. وأهم هذه العواصم هي نيويورك ليس في ناطحاتها بل لأنها أكبر مدينة تجارية في الكون عبر التاريخ. وعندما تقرر بناء مبنى البرج التجاري العالمي تقرر أن يكون أيضا أعلى ناطحات نيويورك، وأن ينسي الناس ارتفاع «الامباير ستايت» التي غالبا ما ترى دورها الأخيرة سابحة في الغيوم في أي يوم خريفي". (٤٧)

المكان رمز للاستمرارية التاريخية ومجد المدن، والعواصم التجارية تصنع رموزها بعيدا عن التاريخ الموروث، فما تفخر به هو الأبراج والمباني الشاهقة. استهداف الرمز لم يكن غائبا بطبيعة الحال عن أسامة بن لادن وتنظيمه، فهو يعي أن تدمير عدة مبانٍ لا يعني انتصارا على قوى الشر، وأن الغاية الحقيقية هي الإذلال وإلحاق الإهانة. ضربة انتقالية معنوية، تطول رمزاً لا يغيب مغزاه. المزيد من الصدام هو الغاية، والهدف الكامن هو تعميق هوة الخلاف. تخلصوا من الصورة النمطية السائدة للإرهاب، وصنعوا نموذجهم الخاص. ومثل هذا التحول يتناسب مع تغير الأسباب والدوافع:

"وقد قال كوفي عنان، دعونا لا نظلم فقراء العالم الثالث بأن ننظر إليهم جميعا كارهين؛ فهناك ٥٠ دولة تحت حزام الفقر على الأقل، لا تشهد أي منها أعمالا عنيفة أو إرهابية. لقد أعيد النظر في كل شيء غداة انهيار برجي التجارة العالمي، وأخذ كل فريق يتلمس نفسه من جديد. ولكن هل فعلوا ذلك من أجل المزيد من التصادم أو من أجل التلاقي؟" (٤٨)

الفقر لم يعد مرادفا للإرهاب ودافعاً وحيداً له، والانهيار الذي يشهده العالم يجمع بين المادي والمعنوي، ويطول ما كان مستقراً من الأفكار.

التتويج النهائي لرؤية سمير عطا الله، يمكن التماسه في الفقرة الطويلة الواردة في مقاله السادس، وفيها يضع يده على الملامح العامة والنهائية للمشهد:

" ١١ سبتمبر، على فظاعته وخلوه من أي شعور بالرحمة والقيم البشرية، وعلى كونه جريمة قتل جماعي أعمى لمجموعة كبرى من المدنيين، لم يكن بداية شيء ولا نهاية شيء. لقد كان جزءا من صراع اختطفه المتطرفون وأدخلوا عليه نظرتهم إلى الحياة والموت. وبسبب البرج التجاري بدا وكأن العمل من أجل حل سوي وعادل في فلسطين هو فقط مطلب أهل العنف ودعاة الدمار. وهذا هو الاستنتاج الذي تفضي إليه «الحرية المعلوماتية» في أميركا. لكن الحقيقة أن

المطالب التي عُبّر عنها بالقتل الجماعي، هي مطالب ومبتغى بسطاء العرب وأكثرهم هدوءا وسلاما. والعنف القائم اليوم، بكل أشكاله، ظاهرة لم تولد في كتابات أيمن الظواهري، بل ولدت في أعقاب البنادق الإسرائيلية. وبعضها الآخر ولد وترعرع على أعقاب البنادق العربية. ويقول المفكر الباكستاني طارق علي في «لندن ريفيو اوف بوكس» إنه عندما أغلق العرب المقاهي وندوات الحوار وفرضوا عليها قانون الصمت، احتمى الشبان بالمساجد. إن العنف لم يولد من علاقات مثالية بين أميركا والعرب، ولا من علاقات مثالية بين العرب والأنظمة، ولا من علاقات مثالية بين الاحتلال الإسرائيلي وقافلة الدماء والموت والهجرة والتشرد المنطلقة أبدا من فلسطين. لا شيء يبرر العنف الفردي أو المنظم. لا شيء يبرر العنف حتى في الكلام. وصحف الغرب تشن حملة سنوية على السعودية؛ لأنها تنفذ الإعدام في القتلة. لكن هذه الصحف، في معظمها، لم تستخدم كلمة العنف عندما يتعلق الأمر بإسرائيل. حتى جثث الأطفال المبعثرة برصاص الخطأ و«النار الصديقة» لا تحرك كلمة «العنف» في القاموس الصحافي. والمشكلة في الأمر أن «القاعدة» اختطت لنفسها وبأسلوبها، المواجهة في هذا الصراع الكبير المرير، بين شعب عربي لم يكد يتنفس بزوال الاستعمار حتى رأى نفسه يخوض حرب الوجود. وأسوأ ما في ١١ سبتمبر أنه نزع عن هذا الصراع صورته الحقيقية وبعده الأول: البعد الجماعي العربي". (٤٩)

أهم المرتكزات التي يمكن استخلاصها ومقالات سمير عطا الله، التي تتم بلورتها في المقتبس السابق، تتمثل في:

- حادث سبتمبر، مع فظاعته وعبثيته، ليس بداية أو نهاية، فهو حلقة من سلسلة طويلة ممتدة.
- القضية الفلسطينية، ومجمل القضايا العربية والإسلامية، أضيرت من الحادث، وأي ضرر يفوق أن يكون المدافعون عنها هم القتلة والإرهابيين؟

- التطرف الفكري المتشدد، وأسبابه المحلية المعروفة، هو المغذي الأكبر لحركات الإرهاب المتنامية، والازدواجية الغربية، التي تختل فيها المقاييس وتضيع العدالة، هي المصدر الثاني الذي لا يقل خطورة.

١١ سبتمبر.. حلها الوحيد:

المقالات الست السابقة، تمثل في مجموعها رؤية بالغة الأهمية عن طبيعة المرتكزات المقدمة ضد الإرهاب، وفي المقالات الأخرى استمرار في النهج نفسه، وبخاصة أن الكاتب يضع يده على قضايا ساخنة، ويقدم معالجة مختلفة، وفي هذا الإطار نتوقف أمام مقالين له: الأول منشور في ١٧-٩-٢٠٠٢، وعنوانه "أم بسيف الإنكليز"، والثاني نشر في ١٥-٩-٢٠٠٦، وعنوانه "١١ سبتمبر.. حلها الوحيد". المقال الأول عن نظرية المؤامرة، والثاني عن أفاق ومستقبل الصراع.

لن نعرف دلالة عنوان "أم بسيف الإنكليز!"، إلا مع نهاية المقال، أما البداية فاقتحام مباشر للفكرة القائلة بأن تفجيرات سبتمبر ليست مسئولية العرب والمسلمين، وأنها جزء من مؤامرة مدبرة ضدهم:

"استند جميع القائلين بأن ١١سبتمبر مؤامرة أميركية إسرائيلية اشترك فيها الجيش الأميركي وجنرالاته المتقاعدون، إلى قناعة عامة قاطعة، وهي أن العرب لا يستطيعون تدبير عمل يتطلب مثل هذه الحنكة والمعرفة والمعلومات. وهذا طبعا أسوأ نوع من أنواع التبرئة وإبعاد الشبهات! ولم تنفع حتى الآن كل بيانات «القاعدة» ومتحدثيها وأشرطتها في إقناع هذه الفئة من المشككين بأن التوقيع على ١١ سبتمبر عربي، وأنه يرجى في هذا الباب قراءة القصائد التي نظمها «الفاروق الشيخ المجتهد أبو عبد الله أسامة بن لادن» في مدح رواد الأجواء النيويوركية فردا فردا. والذين يشككون في أن الطاقات العربية قادرة على مثل هذا الامتياز، يشملون صفا من العارفين في مسائل الدنيا وحقائق الأرض وبينهم الأستاذ محمد حسنين هيكل الذي لا يزال مقتنعا على ما يبدو، بأن الفاعلين هم الصرب، الذين لهم علاقة بالتقنيات والعلوم ونظرية النسبية، أفضل من علاقة العرب.

ولن يفيدنا أن نعطي العالم أحمد زويل كمثال معاكس، لسبب بسيط، وهو أن أحمد زويل لن يقبل بإسقاط أربع طائرات وبرجين، من أجل أن يثبت أن العقل العربي لا تنقصه القدرة على التنظيم". (٥٠)

الطريف أن الساعين إلى تبرئة العرب من الجريمة، يقدمون في مستنداتهم إدانة أخرى، قوامها هو عجز العقلية العربية، وكأنه مما يسعد العرب والمسلمين أن يقال عنهما إنهم أغبياء ولا يصلحون للإرهاب!. محمد حسنين هيكل من أهم الداعين إلى تبني فكرة البراءة العربية، ولا يتأثر يقينه بالاعتراف المباشر لزعيم القاعدة، ولا تهتم حيثياته بأن مقولة عجز العقلية العربية ليس صحيحاً ولا يمكن أن يكون مطلقا!:

"مضحكون الذين يقولون إن العرب ليسوا قادرين على عمل تنظيمي من هذا النوع. فقد تبين لهم أن بن الشيبة كان في كراتشي تحت أعين كل المراقبين (كما كان في هامبورغ من قبل) فيما كانت كل قذائف أميركا تمشط تورا بورا وقندهار. وفي عدد «النيويوركر» هذا الأسبوع تحقيق مثير عن حياة الدكتور أيمن الظواهري الذي سال كالزئبق من بين أصابع جميع مخابرات العالم، وعاش حياته مثل الشبح «كاسبر» يخاطب الناس من كل مكان فتسمعه ولا تراه". (٥١)

شواهد كثيرة تقود إلى إدانة العرب ليست اتهاما يفتقر الدليل، وإنما حقيقية لا تقبل الجدال، ولكن المؤمنين بنظرية المؤامرة يجدون فيها حلاً سحرياً بلا أعباء، ولا يتورع بعضهم عن خوض مناقشة عقيمة، يعرضها سمير عطا الله بأسلوبه الساخر قائلاً:

"ومن أجل أن يثبت أحدهم نظريته طرح عليَّ السؤال: إن لم تكن القصة كلها مختلفة، أين هو حطام الطائرة التي قيل إنها ضربت البنتاغون؟. وظل يشدد على السؤال حتى خيل إليَّ أنني أخفي الحطام في جيوبي".

ألا يدرك من يتبنون نظرية المؤامرة أنهم يسيئون إلى العرب أكثر مما يدافعون، فضلاً عن أن دفاعهم هذا بلا ثمار؟!.

وفي نهاية المقال، يفسر عنوانه:

"لا بد دائما من «مساعد» أجنبي خلف كل عربي. في السياسة أو في الأبراج.
وما أشهر ذلك البيت القائل: بسيفك أم بسيف الإنكليز
دخلت بلاد الشام إيزي ثم إيزي!" (٥٢)

السخرية واجبة ولا بديل لها، عندما يتعلق الأمر بمروجي نظرية المؤامرة، ويقترب الأمر في دائرة الحلم عند التطلع إلى آفاق المستقبل في المقال الثاني:

"كنت أتمنى أن تكون ١١ سبتمبر فرصة للمصالحة بين الغرب والآخرين. أن تجلس أميركا أمام نفسها وتعرض سياسات قرن مضى حول العالم. وفي الأسابيع الماضية قرأت لثلاثة من كبار اليهود الفرنسيين (جاك اتالي، برنار كوشنير، جان دانيال) يدعون إسرائيل إلى إعادة النظر في نفسها وفي مصيرها، وأن تعرف أن لا حياة لها كدولة عسكرية لا خيار لها سوى القوة. إنهم يريدون لها البقاء. ويعرفون أن سلوكها ضد استمراريتها. أو كما قال السيد محمد خاتمي في أميركا: إسرائيل أكبر داعم لأعدائها". (٥٣)

هل يمكن أن تتحقق المصالحة التي طال انتظارها؟

هل يمكن أن تراجع الولايات المتحدة سياستها خلال قرن كامل؟

هل يمكن لإسرائيل أن تعيد النظر في مصيرها فتتخلى عن غطرسة القوة؟

الإجابة الإيجابية الصحيحة عن الأسئلة السابقة قد تقود العالم إلى السلام والصفاء، لكن مادة الحلم لا تجسد كوابيس الواقع!.

تفجيرات لندن:

خلال الأسبوع التالي لتفجيرات لندن، وخلال الفترة بين يومي ٧/١٣ و ٢٠٠٥/٧/١٨، نشرت جريدة "الشرق الأوسط" أحد عشر مقالاً لمتابعة الحدث، وهذه المقالات بترتيب نشرها هي:

م	تاريخ النشر	عنوان المقال	كاتب المقال
١	١٣-٧	الإرهاب: ماذا سنفعل معه؟	عبد المنعم سعيد
٢	١٤-٧	الإرهاب صناعة ثقافية لندن: يوم غابت الجنة وأطل الجحيم	السيد ولد أباه هدى الحسيني
٣	١٥-٧	جريمة لندن.. قياسات فاسدة ومنزوعة الدسم..! ولكن إرهاب لندن يتكرر يوميا في العالم الإسلامي امتحان مهني	أمير طاهري سالم لوني المراقب الصحفي
٤	١٦-٧	الشكر الجم لـ"بلير" وقومه.. وهذه أسباب نادى ببحثها	زين العابدين الركابي
٥	١٨-٧	(ابن لكن) المعترف به في بريطانيا..! حيث لا يكفي الشعور الطيب دعوا بوش وشأنه.. وتفكروا في أصول المشكلة..! كيف نكسر هذه الدائرة المغلقة..؟ هل ستدخل أوروبا الحرب على الإرهاب؟	مد الماجد أياد أبو شقرا منى الطحاوي بثينة شعبان مجدي خليل

مقال الدكتور عبد المنعم سعيد: "الإرهاب: ماذا سنفعل معه؟"، المنشور يوم ١٣-٧-٢٠٠٥، يتوقف منذ بدايته أمام عودة أجواء سبتمبر ٢٠٠١، وتكريس الفكرة القائلة بأن العنوان الأكثر شيوعاً للإرهاب هو العالمان العربي والإسلامي:

"وعندما اجتمع مجلس الأمن لكي يدين ما جرى في العاصمة البريطانية، ويعلن حملة عالمية ضد الإرهاب، فإن رسالة المجلس لم تكن موجهة إلى عنوان آخر غير العنوان العربي والإسلامي، حتى ولو لم تذكر كلمة واحدة عن أي منهما. وببساطة فإن أجواء الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ قد عادت كلها مرة أخرى". (٥٤)

مثل هذا التوجه ليس مؤامرة مصنوعة، يدبرها أعداء العرب والمسلمين، ذلك أن الأحداث والحوادث الإرهابية تهيئ المناخ لمثل هذا التحليل، والعرب والمسلمون هم من يدفعون الثمن دائماً، في بلادهم على المستويين السياسي والاقتصادي، وخارج أوطانهم عبر حملات المطاردة الأمنية والاشتباه والتوقيف والتعنت غير المسبوق في المعاملة:

"مثل هذه الحالة، كما كان الأمر في الحالات السابقة، سوف تدفع ثمنها الدول العربية والإسلامية أثمانا فادحة، على المستويات الاقتصادية والسياسية، وسوف تضاف طعنات إضافية لأفكار العروبة والإسلام، أما العرب والمسلمون في الدول الغربية والشرقية ومطارات العالم ونقاط الاتصال فيه، فسوف يلقون عنتا إضافيا". (٥٥)

ظاهرة شيوع الاتهام للعرب والمسلمين جديرة بالتحليل والاهتمام، أمام التجاهل الذي يجنح إلى اللامبالاة، أو يميل إلى تبني التفسيرات التآمرية والتبريرية، فإنه يزيد من استفحال المشكلة، ويصنع مزيداً من التعقيد الذي قد يصل إلى درجة يستحيل فيها العلاج. ويدلل الدكتور عبد المنعم على خطورة المعالجات غير المسئولة بقوله:

"انظر على سبيل المثال المعالجة المصرية والعربية لعملية خطف وإعدام السفير إيهاب الشريف رئيس بعثة المصالح المصرية في بغداد، فمنذ حادث الاختطاف الأليم، تم إلقاء المسؤولية فورا على الدولة المصرية؛ لأنها اتخذت قرارا برفع العلاقات الدبلوماسية إلى مستوى السفارة. وبعد أن تمت إدانة مصر بخطف رئيس مكتب رعاية مصالحها في العراق!، انتقل جمع عربي آخر إلى إدانة الولايات المتحدة والسلطات العراقية بالقيام بنفس العمل؛ لأنهما خلقا حالة من الفوضى وانعدام الشرعية جعلت ظهور «المقاومة» منطقيا. ولكن لأن الوضع لا يتحمل إدانة دول وحكومات فقط، فقد ذهبت جماعة أخرى إلى إدانة السفير شخصيا بتهمة اختطاف نفسه وقتلها؛ لأنه أهمل في الاحتياطيات الأمنية!.

وهكذا، جرى إدانة أطراف عدة إلا الجاني الحقيقي الذي اعترف بالخطف والقتل، وتم دفعه إلى مؤخرة الصورة، باعتباره نوعا من التفاصيل الفرعية وليس الحقائق الأصيلة. وعندما يقرأ الغربيون ذلك فإنهم لا يتوقفون فقط عند العجب!". (٥٦)

نموذج اختطاف السفير المصري إيهاب الشريف بالغ الدلالة في الكشف عن الاختلاط والارتباك الذي قادت إليه المعالجات القاصرة، فقد تناثرت الاتهامات لتطول الحكومة المصرية والإدارة الأمريكية والسلطة العراقية، وصولاً إلى شخص السفير نفسه!. الإرهابيون أنفسهم، وهم القائمون بالفعل، بعيدون عن دائرة المناقشة والحوار والاتهام، فكأنه أمر واقع راسخ لا يستحق المناقشة، أو كأن الحقيقية الإرهابية هي الأصل، وردود الفعل حولها محكومة بما يفرضه الإرهاب.

أي منطق هذا؟ وكيف نطالب الآخرين بتفهم موقفنا، وليس لنا موقف!

على الرغم من اللغة الأكاديمية الجافة التي يتسم بها مقال "الإرهاب صناعة ثقافية"، للسيد ولد أباه، المنشور في ٢٠٠٥/٧/١٤، فإنه يمثل امتداداً مهماً لمعالجة قضايا وهموم تتكامل مع الطرح الذي يقدمه الدكتور عبد المنعم سعيد. من الأفكار المهمة الإلحاح على إعادة النظر في الرؤية التقليدية الشائعة حول وجود علاقة وثيقة بين الإرهاب والفقر، فالإرهاب المعاصر يقدم نموذجاً عملياً مضاداً:

"فلا أحد بإمكانه أن ينكر أن الفقر والتهميش والاستبداد والغبن عوامل تساهم في تفريخ التطرف والإرهاب، إلا أن المعاينة الدقيقة لخلفيات ومسارات الإرهـابيين الجدد من أفراد تنظيم «القاعدة» والمجموعات القريبة منها، تبين أن الأمر يتعلق هنا بنموذج جديد لا يمكن استكناهه بالمعايير المذكورة آنفا.

فالانتحاريون الذين فجروا أبراج نيويورك، كما لاحظ الجميع، هم مـن أبنـاء الطبقات الميسورة، وأغلبهم تعلم في الغرب وتخصص في أحدث العلوم والتقنيـات، وقد وظفوا اندماجهم في نظام العولمة القائم على التقنيات الاتصالية من أجل إبـلاغ رسالتهم عن طريق العنف الراديكالي الأقصى". (٥٧)

النموذج الجديد يتصدره الانتحاريون الأثرياء من أبنـاء الطبقـات الميـسورة، وكثير منهم متخصصون في علوم تلقوها في الغرب، وهو ما يوحي بالتهيؤ لاندماجهم في الثقافة الغربية ومنظومة العولمة. الفقر ليس مسئولاً عن تطرفهم الفكري وسلوكهم الإرهابي، ولابد أن متغيرات جذرية قد تركت وسادت ودفعت أسباباً غير اقتـصادية لإفراز المنخرطين الجدد في صفوف الإرهابيين. الرؤية التي يقدمها ولد أباه تعلي من شأن العامل الثقافي، وتحمل المثقفين مسئولية تغذية نـوازع التعـصب والتطـرف، وبصياغة الكاتب نفسه:

"إن للمثقف عادة دورين متمايزين هما: الوظيفة النقدية، والوظيفة التأسيسية البنائية، وبقدر ما يكون دوره ضروريا ومهما في سلاحه النقـدي الـذي يقـوض المسلمات الهشة ويحارب الجمود والوثوقية والتعصب، يكون خطيرا ومـدمرا فـي تأليفاته النسقية وصياغاته التأسيسية، التي تتخذ في الغالب شكل أيديولوجيات مغلقة وطوبائيات حالمة تفضي ضرورة للتعصب والإقصاء والقمع". (٥٨)

ربما يكون المأخذ الوحيد على المقال أن اللغة المستخدمة فيه قد يعـز فهمهـا ويصعب إدراك مراميها بالنسبة للعاديين من الناس، فهي تزخر بالمصطلحات التي لا تخلو من صعوبة، وتميل إلى التركيبات اللغوية المعقدة التي لا تخلو من الغموض.

وتختلف المعالجة تماماً في مقال منشور في العدد نفسه، للكاتبة هدى الحسيني، وعنوانه "لندن: يوم غابت الجنة وأطل الجحيم".

الفقرة الأولى المطولة في المقال ذات طابع شخصي شجني، واللغة أدبية، قبل الوصول إلى جوهر المعالجة، حيث ترصد هدى تعاقب الممارسات المتكاملة الدالة على طبيعة الأزمة:

"في وسط هذا الغضب الذي انتابنا، نحن الذين منحتنا لندن ما منحته لأبنائها وربما أكثر، تقذفنا منظمة القاعدة «الأوروبية»، وموقع السيد أبو حفص، ببيانات عن «غزوة لندن»، وتحكي البيانات كلمات هلوسة ما بعدها هلوسة عن تنفيذ «مشيئة الله». وفي يوم واحد، هو يوم الإثنين الماضي، ولأن شر البلية ما يضحك، تبدأ محاكمة المغربي محمد بويري قاتل المخرج الهولندي ثيو فان غوغ، الذي حاول الهرب بعد عملية القتل مطلقاً النار على الشرطة التي نجحت في اعتقاله. بويري دخل قاعة المحكمة حاملاً كتاب القرآن الكريم، وتمتم بكلمات غير مفهومة ثم أبلغ القاضي، أنه أي بويري، «أداة لله»!!!" (٥٩)

هل صحيح أن الإرهاب هو الوسيلة لإنصاف العرب والمسلمين؟، وأن الإرهابيين هم "أداة الله"؟!. ومن الذي أعطاهم الحق في مثل هذا الاعتقاد النظري، الذي يمهد بتحويل الفكرة إلى سلوك إرهابي دموي؟!. الإرهاب الجماعي الذي يمارسه تنظيم القاعدة، وعمليات القتل الفردي التي تتمثل في واقعة المغربي محمد بويري، وجهان لعملة واحدة: شيوع التطرف الذي لا ينفصل عن الفعل الإرهابي العنيف.

ومن ناحية أخرى، فإن حادث لندن، على وجه التحديد، يعبر عن جهل القائمين به، وغياب الإدراك الصحيح بما يحدث على الساحة السياسية، فهم يتوجهون بإرهابهم إلى "شعب" يتعاطف مع القضايا العربية والإسلامية، ولا يتوانى في المعارضة الديمقراطية المنظمة لما تقوم به "الحكومة"، فهي التي تتخذ السياسات التي لا تروق للإرهابيين وللشعب الإنجليزي نفسه على حد سواء:

"كان الشعب البريطاني من أشد المعارضين للحرب على العراق، وتسمح الحضارة التي يتمتع بها سياسيوه أن يناقشوا أين أخطئوا وأين أصابوا، هذا الشعب نفسه هو الذي أعاد انتخاب توني بلير للمرة الثالثة، وبلير نفسه لم يقصّر في محاولات إيجاد حل للقضية الفلسطينية، وعندما تخوفت حتى الدول العربية من «شبهة» أنها على اتصال مع حركة حماس، كان مبعوثه أليستر كروك يتفاوض معها. والتهديد القاعدي لبريطانيا جاء منذ عمليات ١١ سبتمبر، وقال لي مرة سياسي باكستاني إنه لولا العرب وأسامة بن لادن ما كان حل في أفغانستان ما حل، وأن أكبر خطأ ارتكبه الطالبان أنهم وثقوا بالعرب، فهم قبل ذلك كانوا بدءوا مفاوضات مع الخارجية الأميركية حول أنابيب نفط وغاز تعبر من بلادهم. منذ عام ٢٠٠١ والأجهزة الأمنية البريطانية تعمل كما قال أحدهم «كحارس مرمى، ونجحت في صد كل الضربات، لكن نجحت اليوم ضربة واحدة في اختراقنا، وهذه كافية»!، بمعنى احتمال أن تليها عمليات إرهابية أخرى؛ لأن الفاعلين اكتشفوا أن كل تهديدات زعيمهم للندن، خصوصاً بعد عرضه «الهدنة» عليها، لم تنفع فحافظت على مجتمعها الليبرالي، وحماية تنوع الثقافات فيها، فظنوا أن في استطاعتهم تحويلها بالفعل إلى «لندنستان»، غير عابئين بالجالية المسلمة التي تعيش في بريطانيا، ولثقتهم أن البريطانيين يعتبرون هذه الجالية بالفعل جزءا من الفسيفساء العالمية التي ما من مدينة في العالم قادرة على احتضانها مثل لندن والبريطانيين". (٦٠)

المواقف التي ترصدها الكاتبة دليل على أن الحادث الإرهابي الذي شاهدته لندن موجه إلى المكان الخطأ، وأن الفعل الإرهابي كفيل بإحداث تغيير سلبي في مجموعة الثوابت التي تتمسك بها الثقافة الإنجليزية، وهي ثقافة تتيح أن تتحول عاصمتهم التاريخية لندن إلى اسم جديد شائع: "لندنستان".

ومرة أخرى، لم يدفع الثمن إلا العاديون من الناس، أبناء الجاليات العربية والإسلامية، حيث توشك الجنة أن تغيب ليطل الجحيم!.

في ٧/١٥، يكتب أمين طاهري: "جريمة لندن: قياسات فاسدة ومنزوعة الدسم!"، وفي العنوان ما ينم عن الموقف: "جريمة"، ويشير إلى المنهج المضاد المرفوض: "قياسات فاسدة"

الأجواء المخيمة تقود إلى استدعاء ذكريات تاريخية عن صمود قديم في مواجهة القصف النازي خلال الحرب العالمية الثانية، والعدو المعاصر ليس أقل خطراً، بل إنه أكثر قدرة على المراوغة وإلحاق الأذى، ذلك أنه مجهول يصعب تحديده، أو التنبؤ بمسار عدوانيته. كانت بريطانيا القديمة مهيأة للحرب قبل إعلانها، أما الحرب الجديدة فلم يكن الاستعداد لها مطروحاً، على المستويين الأخلاقي والفكري.

يتوقف طاهري في مقاله أمام بعض ردود الأفعال التي ترتبت على الحادث، ويتوقف تحديداً عند:

"رد فعل أشخاص يعتقدون في مفهوم الإثم الأصلي، على الرغم من نزعتهم الإلحادية. فكلما هوجمت بريطانيا أو أي ديمقراطية غربية يتذكر هؤلاء كل الأخطاء الحقيقية والمتخيلة التي ارتكبها الغرب ضد الآخرين، وذلك في سياق التبرير لأي أخطاء يرتكبها آخرون ردا على ذلك. هؤلاء هم نفس من يسارعون إلى تبرير جريمة السطو على مصرف وقتل موظفيه بأن اللص القاتل عاش طفولة اتسمت بالبؤس والفقر.

فلدى هؤلاء، يعتبر ادعاء بعض المظالم، والظهور بمظهر الضحية للحصول على رخصة، لفرض أسوأ أنواع الاستبداد على الآخرين، أي استبداد المظلوم". (٦١)

رد الفعل الذي يشير إليه مخاصم للعقل والمنطق، فضلاً عن مجافاته للمشاعر الإنسانية. وهو الوقت المناسب لتذكر الأخطاء وتصفية الحسابات والوقوف على عتبات التشفي؟ مبرره السرقات التقليدية هم وحدهم القادرون على تبرير تفجيرات لندن والسعي إلى تجميلها، وهم يمارسون، من حيث يكون أو لا يكون، أسوأ أنواع الاستبداد: استبداد المظلوم!.

هؤلاء القتلة ليسوا جديرين بالإعجاب والإشادة، والأكثر غرابة هو ما يتوقف أمامه الكاتب في نهاية مقاله:

"أما المقارنة مع الجيش الجمهوري الأيرلندي فهي سخيفة وخطرة. فالجيش الجمهوري الأيرلندي يشبه رجلا يأتي إلى الحي الذي تعيش فيه بين حين وآخر ليحطم بعض نوافذك، وينشر الرعب ثم يقيم اتصالات مطالبا بتنازلات. وإلى ذلك وفي وقت مناسب، بات الجيش الجمهوري الأيرلندي مقتنعا بوظائف لزعمائه السياسيين المعروفين، والتحرر من رقابة الشرطة البريطانية على خلاياه السرية، لمواصلة النشاطات غير المشروعة التي يمارسونها. والشاهد أن كل تلك مقارنات خاطئة كليا". (٦٢)

من التشفي وشهوة الانتقام، إلى عقد مقارنات لا منطق لها ولا وجاهة فيها، تسقط التحليلات في الهاوية التي يشير إليها العنوان: قياسات فاسدة منزوعة الدسم! في مقال سالم لوني، المنشور في اليوم نفسه، "ولكن إرهاب لندن يتكرر يومياً في العالم الإسلامي"، ينطلق الكاتب من ضرورة الوعي والتسليم بالتراجع النسبي بوعي المواطن الأوربي والأمريكي للأحداث المؤثرة في العالم الذي يحيط به، وهو نقص لم ينجح تزايد الاهتمام الإعلامي في معالجته والالتقاء به:

"نحن نعيش في عصر ديمقراطيات غربية ناقصة، حيث المواطنون لديهم معرفة محدودة بما تفعله حكوماتهم. والقوى الغربية الكبرى عاجزة عن ممارسة ضغط حقيقي على القوة الأميركية، حتى عندما تؤدي إلى عدم الاستقرار في عالمها. ولكن لو كان بلير حذر بوش سرا من أن لندن لا تستطيع دعم احتلال العراق، فإن ذلك سيكون ضربة كبيرة وسيرغم واشنطن على إعادة النظر في سياساتها.

فهل يحتمل أن يمارس الرأي العام والمشرعون البريطانيون ضغطا على بلير للابتعاد عن بوش فيما يتعلق بالعراق نتيجة للمذبحة الحالية (كما فعل الأسبان)؟ أم أنهم سيلتفون حول بلير؟ الإعلام البريطاني سيساعد على تحديد الجواب". (٦٣)

المنحى الجديد هنا هو التركيز على الدور الذي ينبغي على الإعلام أن يقوم به لتوعية المواطن الغربي، صانع الحكومات والقادر على إسقاطها. الرؤية عند هذا المواطن ليست كاملة، وتتسم بالكثير من الخلل والاضطراب. ليست المسألة في حرية المواطنين أن يمارسوا الضغط على حكوماتهم، لكن المشكلة الجوهرية تتمحور حول كيفية الممارسة وفي أي اتجاه ينبغي أن تتم.

الشكر الجم لبلير!:

مقال زين العابدين الركابي: "الشكر الجم لبلير وقومه: وهذه أسباب نادى ببحثها"، المنشور في ٢٠٠٥/٧/١٦، لا يقدم شكراً تقليدياً عابراً، على سبيل أداء الواجب، لكن الكاتب يكشف في ثنايا الشكر عن الأسباب والدوافع الموضوعية التي تتجاوز الأشخاص والأفراد، فهو يعلق على تصريحات رئيس الوزراء البريطاني بقوله:

"استمعنا إلى رئيس الوزراء البريطاني: توني بلير وهو يقول: «إننا سنبذل كل ما نستطيع لضمان سلامة المسلمين البريطانيين. ولقد صدرت أوامر جديدة إلى الشرطة تقضي بحماية المسلمين من أي اعتداءات قد تسعى إليها جهات عنصرية متطرفة، مستغلة الأحداث المحزنة، وهو سعي (يثير القرف).. وينبغي تفعيل الصوت الإسلامي الحقيقي والمعتدل، على مستوى محلي وعالمي، وذلك من أجل التصدي للأقلية التي تسعى إلى تشويه الدين الإسلامي واستغلاله لمآرب سياسية.. إن مشكلة التطرف هي (مشكلة عالمية) ولا يمكن معالجة هذه المشكلة من قبل هذه البلاد وحدها فقط.. إن الحكومة البريطانية ستباشر دون إبطاء: إجراء حوار مع القادة المسلمين حول كيفية مكافحة هذه الإساءة العوجاء المسمومة لفهم الإسلام.. وإنه من الأهمية بمكان البحث عن الأسباب التي تؤدي إلى وجود التشدد والعنف في بريطانيا وغيرها». هذا موقف (يجدد الثقة بالإنسان)".[٦٤]

المسألة عند الكاتب هي المرتكزات التي ينهض عليها تصريح بلير، الداعي إلى استمرار الحوار، وعدم البطش بالأقلية، والحرص على تجنب الإساءة إلى الإسلام؛ لأن القلة التي أساءت إليه لا تمثل الكتلة العريضة من المسلمين.

ويصف الكاتب في شكره مقولة لافتة للاهتمام، حيث يرى أن ما فعله بلير أقرب إلى جوهر التعاليم الإسلامية، التي تتجسد في آيات صريحة من القرآن الكريم:

"نشكر توني بلير على عنايته الفائقة الناجزة بحماية المسلمين في بلاده من كل عدوان وأذى، ولاسيما في هذا المناخ المسموم المحموم الذي أنجبه العنف الدامي النحس النكد في صبيحة اليوم السابع من هذا الشهر.. فهذه الحماية قمة في المسؤولية والعدل والتمييز. فإذا كان أهل العنف والإجرام قد نكسوا مفهوم الآية القرآنية: «ولا تزر وازرة وزر أخرى»، فقتلوا وجرحوا وشوهوا أبرياء، فإن عشاق العدالة ينبغي أن يتميزوا عنهم، وأن يستنقذوا هذه القاعدة العدلية العظمى من أيدي الغلاة المفسدين. وإنما يكون استنقاذها بتطبيق قاعدة (البراءة الأصلية) عن الغالبية الإسلامية الكبرى المسالمة.. وهذا ما وعد به توني بلير". (٦٥)

لقد استطاع بلير أن يفصل ببراعة سياسية، وليدة ثقافة ديمقراطية، بين الذاتي والموضوعي، ولم يقده الانفعال إلى إصدار أحكام مطلقة لا أساس لها. لقد وعد بلير بالعدالة، وهذه العدالة مفهوم إسلامي أصيل تنكر له الإرهابيون. والدليل على أن ما قام به رئيس الوزراء ليس فعلاً استثنائياً يعبر عن قناعة شخصية، بل هو انعكاس لطبيعة الثقافة السائدة أن زعماء المعارضة لم يختلفوا عنه في اتخاذ الموقف نفسه، ولم يسع أحدهم إلى استثمار الحادث لتحقيق أهداف وانتصارات سياسية قصيرة النظر:

"لقد استمعنا إلى زعيم المعارضة ــ زعيم حزب المحافظين ــ: مايكل هاوارد وهو يقول ــ في مجلس العموم ــ: «إن الذين يحاولون قذف المساجد بالحجارة هم أعداء البريطانيين جميعا من حيث إنهم يتصرفون بالطريقة ذاتها التي يدفعنا الإرهابيون إلى التصرف بها. ومن ثم فإن الذين يعتدون على المساجد سيساعدون الإرهابيين على تحقيق مآربهم في ضرب أمننا، وشق صفوفنا».

وانضم زعيم حزب الديمقراطيين الأحرار: تشارلز كينيدي إلى بلير وهاوراد حيث تعاهدوا على أن «يقفوا وقفة رجل واحد إلى جانب الجالية المسلمة».. فالشكر مبذول لهؤلاء جميعا". (٦٦)

الشكر يمثل المحور الأول في مقال الركابي، أما المحور الثاني فيتمثل في بحثه عن الأسباب التي تصنع الظاهرة، ومثل هذا البحث يتوافق مع دعوة بلير التي يستحق بسببها الشكر والثناء. وينطلق البحث من حقيقتين متكاملتين: الإطار المرضي للإرهاب، والرفض الحاسم لتبريره أو تسويغه:

"ونوجه السياق إلى المحور الآخر وهو: البحث عن الأسباب التي تؤدي إلى التطرف والإرهاب، وهو بحث دعا إليه توني بلير بوضوح وحرص.. ونحن نوافقه على ما ذهب إليه: من الناحية العقلية والموضوعية والمنهجية: موافقة متلازمة مع مفهومين نحسبهما ضروريين:

١ ـ مفهوم: أن الإرهاب (حالة مَرَضِيّة) يمكن أن توجد في بيئة صالحة عادلة مفعمة بالتدين الحق المتوهج بالأخلاق الرفيعة. فقد نبتت نابتة (الغلو) في العهد النبوي. ثم استغلظت ومارست العنف في عهد الخلافة الراشدة (عهد علي بن أبي طالب بخاصة)، وهذه الظاهرة تعرف في تاريخ المسلمين بـ (الخوارج).

ومن المستيقن عند المؤرخين المسلمين وعند المؤرخين العدول من غير المسلمين أن عهود النبوة والخلافة الراشدة كانت عهود عدل اقتصادي واجتماعي، وعهود منهج تفكير سديد في دين ودنيا. ومع ذلك ظهر التطرف والعنف.. فالعنف من ثم مرض يصيب ذوي الاستعداد له في كل بيئة وعصر.

٢ ـ المفهوم الثاني: أن استقصاء أسباب ظاهرة العنف والإفساد ليس تسويغا لأفعال الإرهابيين: أولا: أن الإرهاب لا يمكن أن يكون حلا صحيحا لأي مشكلة من أي نوع، لسبب جديد وهو: أن الإرهاب ذاته مشكلة كبرى. وما كان مشكلة في ذاته يستحيل أن يكون حلا لمشكلات أخرى.. ثانيا: من حيث العقل والمنهج، لا يمكن أن

يكون استقصاء أسباب التخلف والمرض وتلوث البيئة والعنف العائلي تسويغا لذلك كله، وإلا وجب منع الأطباء وخبراء التنمية والبيئة وعلماء النفس والاجتماع من البحث عن أسباب التخلف والمرض والتلوث الخ.. وهذا ما لا يقول به عاقل من بني آدم؛ لأنه قول مثيل لمقولة: إن البحث عن أسباب الجريمة يتضمن تقنينا لوجودها، وتشجيعا لانتشارها، وكفًا تاما عن تعقبها ومطاردتها". (٦٧)

الفقرة السابقة تصلح مدخلاً مناسباً لدراسة الإرهاب، والبحث عن أسبابه، والعمل على تجنب المزيد من عملياته. ومن المنطقي أن لا يتسع مقال واحد لاستيعاب مثل هذا الطموح، ولذلك يركز الكاتب على الإشارة إلى مجموعة من العناوين العريضة، التي يستحق كل منها دراسة تفصيلية مسهبة. ولعل أهم هذه العناوين يتمثل في:

١. التأويل الفاسد للدين، ولاسيما نصوص الجهاد.
٢. الاستغلال السياسي للدين.
٣. تفخيخ مكافحة الإرهاب بأجندات أخرى مريبة.
٤. ميوعة مفهوم الإرهاب واضطرابه.
٥. وجود مناخ دولي مريض، أو على الأقل غير صحي، وهو ما يتمثل في: الهجوم الاستفزازي على الإسلام، التفرد الأمريكي والغربي بإدارة الحرب ضد الإرهاب، ظهور أشباح الحرب الدينية بين المسلمين والمسيحيين، التسامح المنافق مع المظالم الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني، الحرب على العراق، تكبير حجم الإرهابيين بتوسيع الاتهام ليشمل كافة المسلمين.

الأسباب السابقة تتعلق بالمسلمين وغيرهم، وهو ما يقود إلى حقيقة مفادها أن الحرب ضد الإرهاب تحتاج إلى تعاون دولي يشارك فيه الجميع.

رؤية مقاربة يقدمها حمد الماجد في مقاله "ابن لكن المعترف به في بريطانيا"، المنشور في ٢٠٠٥/٧/١٨، فهو يبدأ بالتعليق على تصريحات رئيس الوزراء توني بلير، موضوع المقال السابق للركابي:

"(توني بلير ليس شخصا مفضلا عندي، ولكني أعترف بأني شعرت بالفخر وأنا أستمع إلى تعليقاته العاقلة ودفاعه عن الجالية الإسلامية في بريطانيا بعد التفجيرات الإرهابية في لندن مؤخرا)، هذا ما ذكره لي بروفيسور بريطاني كنت وإياه نتجاذب أطراف الحديث حول هجمات لندن الأخيرة، ونحن في طريقنا لمهرجان (الأيام السعودية) الذي اختتم أمس الأحد في مدينة مانشستر البريطانية، بل إن هذا البروفيسور هو الآخر يمثل المدرسة البريطانية الذكية، التي وإن ارتكبت خطأ قاتلا في دعم الاحتلال الأمريكي للعراق، لكنها أحسنت قراءة الأحداث التفجيرية اللندنية تماما، كما فعل هذا البروفيسور البريطاني حين سألته إن كان يتوقع أن تكون القاعدة خلف هذه التفجيرات الدموية، التفت إلي وقال: هل تقصد القاعدة التنظيم؟ أم القاعدة الفكر والأيدولوجيا؟ وهذا في تصوري مربط الفرس في إدراك مصادر التطرف، إذ إن الفكر القاعدي صار له انتشار واسع، وأصبح متاحا للنشء وباللغات الحية عبر وسائل التقنية الحديثة خاصة الإنترنت، الذي سوق «القاعديون» عبره لبضاعتهم مستغلين الأوضاع المتردية لعدد من الدول الإسلامية – كالعراق وأفغانستان – والاحتلال الأجنبي لها، ليجد الفكر القاعدي في النشء الجديد قلبا خاليا فتمكن". (٦٨)

مديح بلير منسوب إلى أحد معارضيه، والمعارض الذكي يؤمن أن المسألة قد تجاوزت تنظيم القاعدة إلى الفكر والأيديولوجية التي لا ترتبط بأسامة بن لادن وتابعيه المباشرين.

فالمستنتج المهم الذي يتوصل إليه حمد الماجد هو وجود فارق بين المعالجة البريطانية، والغربية بشكل عام لما يتعرضون له من إرهاب، وبين المعالجات العربية والإسلامية للظاهرة نفسها، فالسائد في بريطانيا هو الاعتدال والتقييم الموضوعي البعيد عن الانفعال والتشنج، أما المهيمن في المنطقة العربية فهو تطرف في محاربة التطرف، والتشدد في معالجة التشدد!.

المعالجة العقلانية المعتدلة قد تقوم إلى المقاومة الإيجابية، أما المعالجة الانفعالية فتؤدي إلى خدمة رؤى الإرهاب، وتسهم في زيادة العنف.

من المسئول؟

إلى المنحى العقلاني الذي يرفض الإسراف العاطفي، ينتمي مقال إياد أبو شقرا: "حيث لا يكفي الشعور الطيب"، فهو يطالب الأطراف جميعاً بتحمل المسئولية، والانتقال من مرحلة الإدانة والشك وتسجيل المواقف إلى مرحلة المواجهة العملية المحسوبة، وفق خطوات مدروسة تضع ملامح المشهد كلها في الاعتبار.

"*مَن المسؤول؟*

باعتقادي أن هناك مسؤوليات على طرفي الجدل الكبير الذي فاقمته هذه التفجيرات الإجرامية، ومن الواجب على الجميع.. أولاً التخلي عن المكابرة، وثانياً التحلي بالموضوعية والإنصاف في مقاربة هذه الظاهرة الخطيرة، وبكل صراحة أنا لست متفائلاً بتحقيق نجاح قريب على هذين الصعيدين. إن قراءة التاريخ بصورة صحيحة ومنفتحة تشير إلى «دورات» صدام وحصار حضاريين تتكرر عبر العصور، وتشهد مداً وجزراً ليس على صعيد «الغزوات» والتوسع فحسب، بل أيضاً على صعيد نمط التفكير والنظرة إلى العدو، وتحديد المسلّمات والمحظورات التي تشملها منظومات القيم المتبدلة دائماً بالتوازي مع اختلال موازين القوى، وعنف المواجهة وحدودها وأسلحتها.

ولا شك، أن علينا تجاوز مرحلة الإدانة كمجرد «مهرب» مناسب من ورطة، أو حاجة إلى «تسجيل موقف» مفيد ضد غريم محلي، وهذا بغض النظر عن منظورنا الأخلاقي لما نشهده من حولنا، من العراق إلى فلسطين، ومن لبنان إلى لندن، عبر نيويورك ومدريد وجزيرة بالي وجبال أفغانستان ووديان الشيشان... وغيرها من «ميادين» العنف الأعمى ضد المدنيين.

أنا لا أسعى هنا إلى التبرير.. أبداً، لكنني أعتبر أن الإدانة اللفظيـة أو الإجـراءات التجميلية والتخفيفية ما عادت تكفي، بل يجب على كل أهل الـرأي والـسلطة فـي المجتمعات الإسلامية وخارجها التنادي لبحث العلاقة الإشكالية بين قطاع محـبط أو مضلّل (بفتح اللام) داخل هذه المجتمعات قرر تفجير العالم من حوله، وبـين نخبـة عالمية مصرة على أنها تحتكر الفضيلة والحق، وفي ظل هـذا الاحتكـار تواصـل «غزوها» الثقافي والمادي والمفهومي لكل شعوب الأرض.

صحيح ليست هناك قوة في العالم تستطيع منع شخص أو فئة من ارتكاب جريمة ضد بريء.. لكن من الممكن حتماً إيجاد حالة ما تتناقص فيها فرص نمو مفاهيم إقصائية أو استئصاليه تستحلّ دماء الآخرين". (٦٩)

ثمة مبالغات غير منطقية في تحميل المسئولية "كاملة" لمن تتعـرض بلـدانهم للعمليات الإرهابية، كما هو الحال بالنسبة للولايات المتحدة وأسبانيا وبريطانيا، وقـد يكون صحيحاً أن المواقف السياسية لبوش وبلير ليست عادلة مـن منظـور عربـي إسلامي، وقد تكون –أيضاً– مسئولة عن جانب من الدوافع العلانيـة التـي يـسوقها الإرهابيون، لكن الظاهرة أعمق وأخطر من إلقاء مسئولياتها على طرف واحد، تمهيداً لإغلاق الملف وانتظار الحلول القدرية. من هذه الزاوية تكتب منى الطحاوي في مقالها "دعوا بوش وشأنه.. وتفكروا في أصول المشكلة"، المنشور في ٢٠٠٥/٧/١٨، حيـث تقول في إحدى عبارات المقال:

"لقد كتب وقيل الكثير عن الجماعات المتطرفة والمتطرفين، الذين وجدوا ملاذا في لندن. ولكن لم يقل ما يكفي عن الذين يسمون بالمثقفين، وهم ليسوا أكثـر مـن مبررين للإرهاب، الذي لا يقتل فقط الأبرياء بالعشرات فقط، ولكن يدمر حياة ملايين المسلمين الذين يعيشون في الغرب. فالاستماع إلى مقابلاتهم في شبكات التلفزيـون العربية بعد انفجارات لندن، يجعلك تعتقد أن جورج بوش وتوني بلير ذهبا بأنفسهما إلى مدينة ليدز، وقادا تلك المجموعة من الشباب إلى لندن، وضـغطا علـى مفتـاح

التفجير. لقد كان الذين يسمون بالمثقفين يشعرون، عمليا، بفرحة بأن جورج بوش وتوني بلير تعلما درسا لن ينسوه في ٧ يوليو. وقيل كل ذلك بالعربية طبعا. وكان الذين يسمون بالمثقفين يعتقدون أن هذا ما يريد العالم العربي الاستماع إليه.

ولكن قراءة تعليقات نفس هؤلاء الذين يسمون بالمثقفين في الصحف الأميركية، يمكن أن تجعلك تعتقد أنهم أصيبوا بفقدان الذاكرة، ونسوا كل ما قالوه قبل أيام في شبكات التلفزيون العربية. ففجأة أصبح الذين يسمون بالمثقفين، الذين لم ينطقوا، في التلفزيونات العربية، عبارة بدون ذكر جورج بوش وتوني بلير، متحفظين وحزانى. وبدلا من لوم جورج بوش عن كل شيء، ذكروا لصحيفة «واشنطن بوست» أو «نيويورك تايمز» أنهم صدموا ويشعرون بالروع، ولا يمكنهم فهم لماذا يفجر شباب مسلم أنفسهم في وسائل نقل عامة في لندن". (٧٠)

إنها ازدواجية المثقفين العرب، أو قطاع لا يستهان به منهم، التي تتمثل في الخطاب المتبدل وفقاً لتغير الحال، فهم يقولون "هنا" ما يناقضونه "هناك"!

لقد طال العنف الدموي بلداناً عربية وإسلامية، فهل تقع مسئولية الأحداث الإرهابية التي شهدتها مصر والجزائر والسعودية والمغرب على كاهل بوش؟!.

وفي ٧/١٨، تكتب بثينة شعبان: "كيف نكسر هذه الدائرة المغلقة؟"، وأهم ما في مقالها هو الفقرة الأخيرة التي تقول فيها، تجسيداً لغموض رؤيتها:

"ومع الإدانة المطلقة والكاملة لقتل أية نفس بشرية بريئة ولكل عمل إرهابي كائن من يكون مرتكبه، فمن الواجب علينا جميعاً أن نتجرأ ونضع إستراتيجية حقيقية لمكافحة الإرهاب، بعيدة عن الموقف العنصري المسبق، وعن الاعتبارات السياسية الضيّقة وعن المعالجات الأمنية التي تستهدف إعطاء الانطباع بالحزم والشدّة، ولكنها تدور في حلقة مفرغة، وفي كل الأحوال فإنها تعالج النتائج وليس الأسباب، أما المطلوب فهي إستراتيجية قائمة على التعاون الدولي ومبدأ العدالة في العلاقات الدولية. ولا بدّ لفعل هذه من كسر الدائرة المغلقة بالكفّ أولاً عن سياسة تحويل

الحرب على الإرهاب إلى الحرب على الإسلام ومعالجة القضايا الحقيقية التي تهمّ الشعوب والتي يشكّل الاحتلال الأجنبي والظلم الدولي المتواصل منذ عقود ربّما الأرضية الخصبة للأفكار والممارسات المتطرّفة التي تستغل الإحباط واليأس المتراكم في بعض النفوس الشابّة لترتكب الأعمال الشنيعة بكلّ المعايير. إن جرائم مثل مجازر دير ياسين، وقبية، وصبرا وشاتيلا، وسبرانيتشا، ومشاهد الاغتيالات والتدمير والقتل للأطفال في مدن فلسطين، وقصف بغداد طوال سنين وغيرها تترك في نفوس المسلمين نفس الأثر الفاجع الذي تتركه مشاهد الإرهاب المُدانة في شوارع المدن الغربية في نفوس الغربيين. والواجب الإنساني يتطلب من السياسيين في الغرب أن يبادروا إلى إزالة العنف والإهانة والإذلال من حياة مئات الملايين من البشر الذين يعانون الاحتلال والظلم أو يراقبون أمثالهم يعانون منه. والمطلوب دوماً إدانة الإرهاب في أي مكان بالعمل الحقيقي وليس بالتصريحات الأحادية أو المعالجات الأمنية فقط والتي في معظم الأحيان تعالج النتائج وليس الأسباب، بينما تستمر نار العنصرية والتفرقة وانعدام العدالة بين البشر.

إنّ إعادة الاعتبار إلى مبدأ العدالة والشرعية الدولية والكرامة الإنسانية المتساوية، بالإضافة إلى الإجراءات الأخرى، تشكّل من دون شكّ أقصر الطرق لمكافحة الإرهاب واجتثاث أسبابه". (٧١)

تنبع الأهمية التي نعنيها من تبني الكاتبة لضرورة وضع إستراتيجية متكاملة تتجاوز العابر والجزئي والسياسي المؤقت. قوام هذه الإستراتيجية يتمثل في مرتكزين:

أ – الفصل بين الإرهاب والإسلام.

ب– الاعتماد على التعاون الدولي لإرساء مبادئ العدالة.

إعادة النظر ضرورية، ذلك أن استمرار الأسباب يؤدي بالضرورة إلى تكرار النتائج واستفحالها، واستئصال الإرهاب لن يكون عملاً أمنياً، بل إن العلاج الحقيقي الناجع يبدأ برد الاعتبار إلى المبادئ المجملة المشكلة للشرعية الدولية.

هل ستدخل أوروبا الحرب على الإرهاب؟

ونتوقف أخيراً أمام مقال مجدي خليل: "هل ستدخل أوربا الحرب على الإرهاب؟"، حيث ينبه إلى أن أوربا، إلى ما قبل تفجيرات لندن، لم تكن قد دخلت الحرب الحقيقية ضد الإرهاب بكل ما تمتلكه من إمكانات، واقتصر تعاونها مع الولايات المتحدة الأمريكية على شراكة محدودة:

"أوروبا حتى أحداث لندن لم تعلن ولم تثبت بشكل رسمي واضح، أنها شريك كامل مع الولايات المتحدة في الحرب على الإرهاب، وما تقدمه للولايات المتحدة من تنسيق وتعاون لوجيستي ومخابراتي وبعض المساعدات الأخرى، لا يشكل شراكة حقيقية، كما حدث في الحربين العالميتين الأولى والثانية والحرب الباردة. وأوروبا تزعم أنها عالجت أحداث مدريد بشكل حضاري أكثر من معالجة أمريكا لأحداث ١١ سبتمبر، ولكن أحداث لندن أثبتت أن المعالجة الأوروبية لخطر الإرهاب فشلت، فهل ستغير سياساتها وتدخل الحرب أم ستستمر في حذرها وخوفها من مواجهة واسعة تذكرها بماضي الحروب القريب والمرير". (٧٢)

وبعد أن يقدم الكاتب عدداً من الملاحظات حول طبيعة الإرهاب وخطورته، ومفهومه ومنهج التعامل معه، يصل في نهاية المقال إلى إعادة طرح التساؤل من منظور مختلف:

"فهل ستتغير أوروبا كما تغيرت أمريكا وتدخل طرفا رئيسيا في الحرب على الإرهاب الدولي؟ أم أن الأمر يتطلب سلسلة عمليات إرهابية أخرى في المدن الأوروبية قبل أن تتجاسر وتدخل بثقلها في هذه الحرب؟ أم أنها ستكرر معالجات مدريد؟ أم أنها ما زالت مقتنعة بأنها الأعقل والأكثر نضجا في مقابل التهور الأمريكي؟ أم ماذا؟ هذا ما ستجيب عنه الأيام". (٧٣)

أوروبا مطالبة بالتدخل، والمزيد من العمليات الإرهابية سوف تشهده عواصمها، وهي ليست أعقل وأنضج مقارنة بالتهور الأمريكي.

هذا ما تجيب عنه الأيام!

الهوامـــــش

(١) ١٨-٩-٢٠٠١

(٢) نفسه

(٣) ٢٠٠١/٩/١٩

(٤) نفسه

(٥) ٢٠٠١/٩/٢٢

(٦) نفسه

(٧) ٢٠٠١/٩/٢٤

(٨) نفسه

(٩) ٢٠٠٢/٩/٨

(١٠) نفسه

(١١) ٢٠٠٢/٩/٩

(١٢) ٢٠٠٢/٩/١١

(١٣) نفسه

(١٤) ٢٠٠٢/٩/١٣

(١٥) نفسه

(١٦) ٢٠٠٣/٩/١١

(١٧) نفسه

(١٨) ٢٠٠١/٩/١٨

(١٩) نفسه

(٢٠) ٢٠٠٢/٩/٨

(٢١) نفسه

(٢٢) ٢٠٠١/٩/٢٢

(٢٣) نفسه

(٢٤) ٢٠٠٢/٩/٩

(٢٥) نفسه

(٢٦) نفسه

(٢٧) ٢٠٠٢/٩/١٠

(٢٨) نفسه

(٢٩) ٢٠٠٢/٩/١١

(٣٠) نفسه

(٣١) ٢٠٠٢/٩/١٢

(٣٢) نفسه

(٣٣) نفسه

(٣٤) ٢٠٠٣/٩/١١

(٣٥) ٢٠٠٦/٩/١٠

(٣٦) نفسه

(٣٧) ٢٠٠٦/٩/١١

(٣٨) ٢٠٠١/٩/٢٠

(٣٩) نفسه

(٤٠) ٢٠٠٢/٩/٥

(٤١) نفسه

(٤٢) ٢٠٠٢/٩/٦

(٤٣) نفسه

(٤٤) ٢٠٠٢/٩/٧

(٤٥) ٢٠٠٢/٩/٨

(٤٦) نفسه

(٤٧) ٢٠٠٢/٩/٩

(٤٨) نفسه

(٤٩) ٢٠٠٢/٩/١٠

(٥٠) ٢٠٠٢/٩/١٧

(٥١) نفسه

(٥٢) نفسه

(٥٣) ٢٠٠٦/٩/١٥

(٥٤) ٢٠٠٥/٧/١٣

(٥٥) نفسه

(٥٦) نفسه

(٥٧) ٢٠٠٥/٧/١٤

(٥٨) نفسه

(٥٩) نفسه

(٦٠) نفسه

(٦١) ٢٠٠٥/٧/١٥

(٦٢) نفسه

(٦٣) نفسه

(٦٤) ٢٠٠٥/٧/١٦

(٦٥) نفسه

(٦٦) نفسه

(٦٧) نفسه

(٦٨) ٢٠٠٥/٧/١٨

(٦٩) نفسه

(٧٠) ٢٠٠٥/٧/١٨

(٧١) نفسه

(٧٢) نفسه

(٧٣) نفسه

القـــــــدس العربـــــــي

الفصل الثاني

تقديمـــــــــه

بالمنهج نفسه، الذي تناولنا به معالجة "الشرق الأوسط" لقضايا الإرهــاب، مــن خلال تفجيرات ١١ سبتمبر في الولايات المتحدة الأمريكية، والتفجيرات التي شــهدتها لندن بعد أعوام، نتوقف أمام معالجات صحيفة "القدس العربي"، ونــستعرض أسـلوب تناولها للحادثتين موضوع الدراسة.

تفجيرات ١١ سبتمبر:

يمكن حصر المتابعة الكمية لما نشرته الجريدة، في إطار السياق الزمني المحــدد للعينة، على النحو التالي:

م	العام	تاريخ النشر	عنـــــوان المقـــــال	اسم الكاتب
١	٢٠٠١	١٨-٩	الهوية الأمريكية والغزو الحضاري بعد أحداث أيلول الأمريكي الأسود الإرهاب يفرخ إرهاباً أضخم	د. عبد الوهاب الأفندي د.محمد صالح المسفر
٢	٢٠٠١	١٩-٩	الإسلام لا يدعم قتل الأبرياء والإرهاب ينتهي بإزالة أسبابه أمريكا تقرع طبول الحرب والعــالم يتــزاحم لتقديم فروض الطاعة!	د. سعيد الشهابي سعاد بلقاسمي
٣	٢٠٠١	٢٠-٩	العرب وأمريكا وطبول الحرب الأولى بالقرن الجديد عنف عدمي أهوج يطال مستقبل الإسلام والأمـــة الإسلامية حرب ذات الأبراج: الولايات المتحدة تجيش العالم لحرب الأشباح	حسن بيومي د.بشير موسى نافع د.يوسف نور عوض

م	العام	تاريخ النشر	عنوان المقال	اسم الكاتب
٤	٢٠٠١	٢١-٩	احتمالات تسليم أسامة بن لادن الأبعاد الثقافية والسياسية اللازمة لوقف "الإرهاب" النزعة العسكرية تسعى إلى الانتقام والحكمة تدعو إلى التعقل	رأى القدس عبد العزيز محمد الخاطر عبد الصمد بن شريف
٥	٢٠٠١	٢٢-٩	قوة عظمى جديدة اسمها بالأمريكاني أسامة بن لادن!!	محمد عبد الحكم دياب
٦	٢٠٠١	٢٤-٩	الأمريكيون والرد والأسوأ	عدلي صادق
م	العام	تاريخ النشر	عنوان المقال	اسم الكاتب
٧	٢٠٠٢	١٠-٩	عبثية المسار المتطرف من أبو نضال إلى بن لادن	د. عبد الوهاب الأفندي
٨	٢٠٠٢	١١-٩	كيف تغيرت أمريكا خلال عام بعد ١١ سبتمبر	د. سعيد الشهابي
٩	٢٠٠٢	١٢-٩	نحن والعالم أمام أمريكا هواجس الحادي عشر من أيلول	د.على محمد فخرو د.بشير موسى نافع
١٠	٢٠٠٢	١٣-٩	قبل أن يبرهن على أنه لم يتعلم أى درس من ٩/١١	صبحي حديدي
م	العام	تاريخ النشر	عنوان المقال	اسم الكاتب
١١	٢٠٠٣	١٥-٩	عندما يستيقظ العالم من كابوس الإرهاب وتجارته الدموية	مطاع صفدي
١٢	٢٠٠٣	١٧-٩	لماذا يكره العالم أمريكا؟	د. سعيد الشهابي

م	العام	تاريخ النشر	عنوان المقال	اسم الكاتب
١٣	٢٠٠٤	٨-٩	الإرهاب "بشقيه القاعدي والأمريكي" يحكم منذ ١١ سبتمبر	د. سعيد الشهابي
١٤	٢٠٠٤	١٣-٩	بعد ثلاث سنوات من تمارين الإرهاب البوشي	مطاع صفدي
١٥	٢٠٠٤	١٥-٩	محاولة لفهم الحرب العالمية الرابعة هذا ما صنعه الإرهاب فماذا حققت الحرب ضده؟	د. عصام نعمان د. سعيد الشهابي
م	العام	تاريخ النشر	عنوان المقال	اسم الكاتب
١٦	٢٠٠٥	٩-٩	فوكوياما عشية ٩/١١: ثمة ما يدعو للندم في كل شيء!	صبحي حديدي
١٧	٢٠٠٥	١٢-٩	حول نهاية لعصر الطغيان وتوأمة الإرهاب	مطاع صفدي
١٨	٢٠٠٥	١٣-٩	ذكرى أيلول وألغاز مطاردة بن لادن	د.عبد الوهاب الأفندي
١٩	٢٠٠٥	١٤-٩	١١ أيلول: مقاومة الإرهاب الأعمى بالتدمير الشامل	د. سعيد الشهابي
٢٠	٢٠٠٥	١٦-٩	أمريكا في القمم الكونية: تصنيع المزيد من الإرهاب في السفوح	صبحي حديدي
٢١	٢٠٠٥	١٧-٩	محاربة الإرهاب في نيويورك.. وغزة	عبد الوهاب الأفندي

م	العام	تاريخ النشر	عنوان المقال	اسم الكاتب
٢٢	٢٠٠٦	٧-٩	مواجهة البكائية الأمريكية	د. على محمد فخرو
٢٣	٢٠٠٦	٨-٩	في الذكرى الخامسة لــ١١/٩: ما الذي تغير حقــا في واشنطن؟ قاموس الحرب الأمريكي: من الإرهاب الكوني إلى الفاشية الإسلامية	صبحي حديدي د. نهى خلف
٢٤	٢٠٠٦	١١-٩	ما بعد عصر الأمركة المتوحشة!	مطاع صفدي
٢٥	٢٠٠٦	١٣-٩	الرابحون والخاسرون في ١١ أيلول	د. سعيد الشهابي
٢٦	٢٠٠٦	١٤-٩	أخطاء الولايات المتحدة بعد هجمات أيلول	د. يوسف نور عوض

تفجيرات لندن:

م	العام	تاريخ النشر	عنوان المقال	اسم الكاتب
١	٢٠٠٥	١٣-٧	إجراءات الأمن البريطانية فــشلت.. ولم ينجح الإرهابيون	د. سعيد الشهابي
٢	٢٠٠٥	١٤-٧	شارون واستغلال تفجيرات لندن الغضب والثأر وعنف لندن من إرهاب إلى إرهاب: دعاة القطيعة يحرزون نصرا جديدا	رأي القدس د.علي محمد فخرو د.بشير موسى نافع

م	العام	تاريخ النشر	عنوان المقال	إسم الكاتب
٣	٢٠٠٥	١٥-٧	تفجيرات لندن: يد الإرهاب عمياء ولكنها ليست خارج التاريخ	صبحي حديدي
			موقف المهاجرين من أحداث لندن	د.يوسف نور عوض
٤	٢٠٠٥	١٦-٧	نيويورك .. مدريد .. لندن .. سيربيرنيتسا	د.عبد الوهاب الأفندي
٥	٢٠٠٥	١٩-٧	بعد انفجارات لندن: ضرورة الحذر من "البارانويا" ومن تكرار أخطاء توني بلير	د.عبد الوهاب الأفندي
٦	٢٠٠٥	٢٠-٧	تنامي الإرهاب مرتبط بالحرب الأنكلو – أمريكية	د. سعيد الشهابي

أحداث طابا :

م	العام	تاريخ النشر	عنوان المقال	إسم الكاتب
١	٢٠٠٤	٢٣-١٠	طابا: كابوس وحلم يقظة وسحابة تسعى للانقشاع	محمد عبد الحكم دياب

وبالنظر إلى وفرة المعالجات التي تقدمها الجريدة، فإننا نلتزم بما تم اتباعه عند دراسة "الشرق الأوسط" ونتوقف أمام:

- رأى القدس.
- مقالات د. عبد الوهاب الأفندي، وهو كاتب وباحث سوداني مقيم في لندن.
- د. سعيد الشهابي، الكاتب والصحفي البحريني المقيم في لندن.

رأي القدس:

لاستنباط الموقف الذي تتخذه جريدة "القدس العربي" من حادث ١١ سبتمبر وتداعياته ومختلف أطرافه، يمكننا أن نتوقف أمام الرأي المنشور في ٢٠٠١/٩/٢١، بعد عشرة أيام من وقوع التفجيرات التي هزت نيويورك وواشنطن، ويحمل عنوان: "احتمالات تسليم أسامة بن لادن".

تقول الجريدة، في مطلع الرأي المعبر عن سياساتها:

"كان وزير الخارجية الباكستاني عبد الستار قاسم شجاعا وصريحا في الوقت نفسه، عندما أكد أن قرار العلماء الأفغان الطلب إلى أسامة بن لادن مغادرة البلاد طوعا "ليس كافيا؛ لأن قائمة الطلبات الأمريكية تتجاوز حتى تسليم المعارض السعودي نفسه، صريحا لأنه جاء في أقواله منسجما مع قرار رئيسه الجنرال مشرف الذي قرر فتح البلاد وأجوائها أمام القوات الأمريكية، وشجاعاً لأنه يدرك أن قرار الحرب قد اتخذ، وأن الوقت بات متأخرا لتأجيله أو إلغائه". (١)

لا يخلو وصف الجريدة للوزير الباكستاني بالشجاعة والصراحة من وجود معنى مزدوج، يحتمل التأويل الإيجابي والسلبي على حد سواء. وفضلاً عن ذلك، فإن الجريدة لا تكشف عن موقفها من التوجه الباكستاني وقرار الرئيس مشرف، حيث تنتقل سريعاً إلى طرف آخر في المعادلة وهو حكومة طالبان:

"ولابد أن حركة طالبان تدرك جيداً ملامح ما يجري طبخه لهـا مـن خطـط عسكرية من قبل حلفائها السابقين، باكستان والولايات المتحدة. فعندما جمع المـلا محمد عمر زعيمها العلماء من مختلف أنحاء باكستان لم يكن هدفه من هذا الاجتماع الحصول على فتوى تسليم بن لادن، وإنما توفير الغطاء الشرعي الإسلامي لقـراره بالتمسك به، وحمايته كضيف لبلاده، وإعلان الجهاد في مواجهة أى هجوم أمريكـي متوقع. فإذا كانت الولايات المتحدة بدأت تهيئ شعبها لحرب طويلة، وخسائر أكبـر، فإن من المنطقي أن نتوقع أن تكون حركة طالبان تفكر بالشيء نفسه أيـضا، رغـم فارق التسليح والإمكانيات". (٢)

لابد من التوقف أمام تعبير "ما يجري طبخه لها"، فهو تعبير ينم عن التعـاطف والتقارب، وبخاصة أن سعي الحركة إلى "توفير الغطاء الشرعي الإسلامي" لا يحظى بتعليق من الجريدة، وهو ما يوحي ضمناً بالموافقة على هذه الخطوة الشرعية، التـي تمثل الخطوة الأولى في الاستعداد للحرب غير المتكافئة، وهـي حـرب "مطبوخـة" مفروضة على الحكومة الطالبانية، التي تحمي أسامة بن لادن مـن منظـور دينـي شرعي.

يتجلى التعاطف بوضوح أكثر عندما تقارن الجريدة بين الجنـود الأمـريكيين ونظرائهم من الطلبان:

"الفرق الوحيد بين الجنود الأمريكيين الذين سيتدفقون على أفغانستان لاقتلاع بن لادن وقطع دابر حركة طالبان، ونظرائهم الأفغان، أن الطرف الأول يتطلـع إلـى الحياة الدنيا، أما الثاني فيتطلع إلى الحياة الأخرى. الجندي الأمريكي سيحاول جاهدا الحفاظ على حياته الرغدة المريحة، بينما سيستعجل نظيره الأفغـاني الانتقـال إلـى الجنة، حيث انهار اللبن والعسل والطيبات الأخرى". (٣)

المسألة هنا تبدو وكأنها معركة دينية يخوضها المؤمنون الزاهدون فـي الـدنيا المتطلعون إلى الآخرة، ضد الكافرين الذين يتمسكون بحياتهم الرغيدة!

وبعد أن تستعرض الجريدة التجارب التاريخية الأفغانية، البعيدة والقريبة، ضد الاحتلالين البريطاني والسوفيتي، تصل إلى التجربة الجديدة المنتظرة، وتتنبأ بهزيمة تطول أمريكا وتؤثر على مكانتها القيادية في العالم:

"أمريكا تملك الكثير الذي يمكن أن تخسره، ومثلما كانت حرب أفغانستان بداية انهيار الإمبراطورية السوفييتية، فربما تكون حرب بوش الجديدة هى بداية انكماش، ولا نقول انهيار أمريكا وعولمتها، والله أعلم". (٤)

الأمر هنا لا يتعلق بما أسفرت عنه الحرب، التي وقعت بالفعل وأدت إلى سقوط حكومة طالبان، لكن السؤال الجوهري هو عن غياب الموقف الواضح مما حدث: التفجيرات في الأراضي الأمريكية، ومما يحدث: المطالبة بتسليم أسامة بن لادن، ومما سوف يحدث: وهي الآثار الوخيمة المترتبة على الحرب.

وفضلاً عن ذلك كله، فإن "القدس العربي" تتحدث في موضوعية محايدة باردة عن الحادث الإرهابي وتداعياته، فهي ليست معه أو ضده!

وإذا كانت الافتتاحية السابقة تعبر عن السياسة العامة للجريدة، فإن الموقف يزداد وضوحاً عند استعراض ما كتبه اثنان من أبرز كتابها الدائمين: الدكتور عبد الوهاب الأفندي، والدكتور سعيد الشهابي.

د. عبد الوهاب الأفندي:

"الهوية الأمريكية والغزو الحضاري بعد أحداث أيلول الأمريكي الأسود"، هو المقال الأول الذي نشره الدكتور عبد الوهاب الأفندي، في ٢٠٠١/٩/١٨، وبداية المقال "سينمائية" تنطلق من استعراض بعض أحداث الفيلم الأمريكي الساخن Bananas، للمخرج الكبير وودي آلان، حيث يتعرض المواطن الأمريكي لإهانات متتالية في أحد بلدان أمريكا اللاتينية، وهي إهانات صادرة من طرفي الحرب الأهلية، السلطة والمعارضة على حد سواء:

"وفي كل مرة يتلقى ما يكفي من الصفع على قفاه لتذكيره بأنهم لا يفعلون ذلك إلا لأنه كان مواطناً أمريكيا". (٥)

يذهب الكاتب إلى أن الاعتزاز بالهوية الأمريكية لم يعد مصدراً للسخرية، بعد تفجيرات ١١ سبتمبر، وهو يتوصل إلى هذا التحول قبل مرور أسبوع واحد. تحولت هذه الهوية إلى مصدر للفقر والاعتزاز، أو إلى مثار للرعب والذعر. يقول الدكتور عبد الوهاب:

" هناك حمى من الوطنية والشعور القومي تجتاح أمريكا من أقصاها إلى أقصاها، الهجوم غير المتوقع على قلب الدولة الأمريكية ورموز قوتها أصاب الأمة الأمريكية في الصميم، ووحد الشعور العام حول الوعي بخطر لم يكن متصوراً في السابق. هذه أول مرة منذ بيرل هاربور عام ١٩٤١ تتعرض أمريكا لهجوم بهذا الحجم. ولكن بيرل هاربور كانت في هاواي، في المحيط الهادي بعيداً، وكانت الأهداف هناك عسكرية بحتة. هذه المرة، الهجوم في عقر الدار، والمستهدفون أناس عاديون: سكرتيرات، رجال أعمال، موظفون في شركات الاستثمار، فجأة شعر كل أمريكي أنه مستهدف، أمريكا نفسها، وهيبتها ومكانتها كدولة عظمى أصيبت كذلك في مقتل. هناك إحساس بأن القوة العظمى في العالم قد أهينت وغزيت في عقر دارها، مقرون بتصميم على محو هذه الإهانة وإعادة هيبة الأمة والدولة. (٦)

الحادث الإرهابي إذن أحدث تغييراً جذرياً جوهرياً ملموساً في الشخصية الأمريكية واهتماماتها، ذلك أن الشعور بالخطر يسيطر على الجميع، ويدفعهم إلى اختيار أحد بديلين مختلفين متكاملين: الفقر والاعتزاز من ناحية، والذعر من ناحية أخرى.

ويأبى الدكتور الأفندي إلا أن يقدم المعادلة الجديدة السائدة من منظور أقرب إلى الصراع الديني والتناحر الحاضر، والمشكلة أنه يصل إلى تلك النتيجة دون تأسيس مقنع أو مقدمات راسخة:

"هنا الغرب، الحرية، الحضارة، التقدم، الخير. أما هناك فالبربرية، القهر، التخلف، العنف، الآخر، الشر، الإسلام". (٧)

الثنائيات السابقة لا تقدم اجتهاد الكاتب، لكنها تطرح تصوره لما يفكر فيه الأمريكيون. وقد لا تنجو بعض الدوائر المتطرفة والمتعصبة من مثل هذا اليقين القاطع بالقطيعة الكاملة مع العرب والمسلمين، من منطلق أنهم إرهابيون، لكن المغامرة غير المحسومة هي في تحويل الأمر إلى قانون عام يحكم الجميع، ويوجه السياسة، ويشكل الثقافة.

يتبنى الأفندي مفهوم اشتعال الحرب الصليبية الجديدة، وهو لا يفعل ذلك مؤيداً أو رافضاً، بل على أساس أنها معطى حقيقي لا خلاف عليه أو حوله.

اللافت للنظر أن الأفندي لا ينكر أن:

"هنالك أصوات رسمية وغير رسمية تعالت في الغرب بهدف كبح جماح هذه الغلواء، ودعت الجماهير إلى ألا تركب موجة الكراهية للإسلام والمسلمين، ونبهت هذه الأصوات إلى أن العرب والمسلمين أصبحوا جزءاً من المجتمعات الغربية، وأن الهوية الجديدة للمجتمعات الحديثة تقوم على التعددية، هناك أيضاً أصوات خافتة بدأت تنبه إلى مخاطر الشوفينية الأمريكية المتصاعدة ومخاطر التعصب، ولكن هذه الأصوات تغرق الآن وسط صليل السيوف وقرع طبول الحرب". (٨)

في المقتبس السابق ما ينم عن وجود قدر كبير من الاختلاف، وهو ما ينفي أن المجتمع الأمريكي كله منساق إلى الشوفينية والتعصب، ورد الفعل العاطفي لا يمكن أن يكون معياراً وحيداً للحكم.

ويولي الكاتب اهتماماً بالدور الذي قامت به وسائل الإعلام، التليفزيون على وجه التحديد، في صناعة المناخ الجديد الذي يتجاوز الرأي العام الأمريكي إلى العالم كله:

"العالم كله دعي كذلك ليكون شاهداً على هذه اللحظات الحميمة، وضيفاً على "العائلة" إن صح التعبير، نحن جميعاً مدعوون للمشاركة في الصدمة، والحزن، والألم والغضب. هذا التركيز على مأساة الضحايا ومحنة الجميع فيهم، وبهذه الصورة غير المسبوقة، يضمن بلا شك تعاطفاً دولياً كاسحاً، ولكن كثيرين أيضاً أصيبوا بالذعر وهم يشاهدون تصاعد الشوفينية والاستغراق في الذات من قبل أمة مدججة بالأسلحة الفتاكة حتى أسنانها، العلم الأمريكي يرتفع عالياً حتى داخل الكنائس ودور العبادة، ويزداد حجمه كل يوم، وتتدثر به المباني الشاهقة، وحتى القمصان، هذه أمة تبحث عن عدو، وتريد إثبات نفسها بالعنف وإراقة الدماء. الإجماع الأمريكي يتأكد حول اعتماد القوة والعنف لعلاج كبرياء أمريكا الجريح. قرع طبول الحرب يرفع شعبية الزعماء إلى عنان السماء، وبوش الابن يكتشف اليوم ما اكتشفه، بالأمس، الأب: امتشق الحسام قتل المرام!". (٩)

من الجدير بالاهتمام التوقف عند مقولة: "هذه أمة تبحث عن عدو، وتريد إثبات نفسها بالعنف وإراقة الدماء"، ذلك أن مثل هذا الاختيار يمتد إلى أسباب تتعلق بالحادث الذي أثر على النفسية الأمريكية، وليس منطقياً أن يكون البحث عن عدو هدفاً في ذاته أو أن تكون إراقة الدماء مطلباً شعبياً.

وفي سياق المفارقات والتناقضات التي يمتلئ بها المقال، يقول الدكتور عبد الوهاب:

"هنالك مبررات بالطبع لهذه الحالة، فمرتكبو العمل الإرهابي الذي نفذ في الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) لم يضربوا فقط رموز القوة العسكرية والمالية لأمريكا، بل وجهوا حربهم للشعب الأمريكي مباشرة، وحرب من هذا النوع لا تقبل بأنصاف الحلول، فنتيجتها إما تركيع أمريكا وتدميرها، أو هزيمة الخصم. هنالك فرق كبير بين أن تهاجم مقر القوات الأمريكية في الخبر، أو الجنود الإسرائيليين في جنوب لبنان، أو الثكنات الأمريكية في بيروت، أو حتى بيرل هاربور، وبين أن تشن

الحرب على المدنيين في قلب نيويورك، ففي الحالة الأولى هناك ربط بين الفعل والشروط المفترضة للتخلي عنه. العمل الإرهابي في تلك الحالة هو وسيلة ضغط عبر وخز القوى الكبرى في أطرافها، وعبر رفع كلفة سياسية خارجية معينة، أما الضرب في الصميم فهو شيء آخر، الذي يستطيع أن يضرب في القلب يمكنه أن يفرض ما يشاء من شروط .. ولهذا السبب فإن أمريكا تظل قوة عظمى؛ لأنها تستطيع أن تضرب من تشاء في القلب وهي بمأمن من ردة فعل مماثلة". (١٠)

الدكتور هنا لا ينتبه إلى أن الموقف الذي يتخذه الشعب الأمريكي، وليس النظام وحده، له ما يبرره، ذلك أن الكبرياء قد ضربت في الصميم وتحولت القضية من مخاوف بعيدة عابرة إلى تهديد مباشر للوجود والاستمرار. للحادثة الإرهابية خطورتها وخصوصياتها، لكن المقال يخلو من موقف صريح تجاه الإرهاب، مؤيداً كان أم معارضاً، ومثل هذا النهج في التناول ينم عن أحد أمرين: الاستهانة بما حدث، أو الترحيب الذي لم يعلن عن نفسه بعد.

في الذكرى الأولى لأحداث سبتمبر، يكتب الدكتور عبد الوهاب، في ٢٠٠٢/٩/١٠، مقالاً مهماً عنوانه: "عبثية المسار المتطرف من أبو نضال إلى بن لادن" ومثلما يبدأ المقال السابق بالإشارة إلى فيلم "موز"، فإن المقال الجديد يبدأ باستعراض مطول عن أحد المسلسلات الأمريكية، بهدف الوصول إلى فكرة محورية صحيحة وهي أن التمييز ضروري وواجب بين المقاومة والإرهاب، كما أن التداخل بينهما وارد وليس مستبعداً:

"كما أن كل الحروب ليست إجراما ابتداء، فإن كل مقاومة ليست إرهابا ابتداء. ولعله من الصحيح أن يقال إنه في كل حرب تقع جرائم وبالمثل ففي كل حرب تحرير يقع اللجوء للإرهاب ومن الممكن أن يقال أيضاً إن كل الدول وكل حركات التحرير تلجأ للإرهاب من وقت لآخر، ولكن من النادر أن تكون هناك دولة تلتزم الإجرام في كل شيء، أو حركة سياسية إرهابية صرفة". (١١)

ربما تكون منظمة "أبو نضال" هى الاستثناء غير المسبوق وغير الملحوق، فهي منظمة إرهابية خالصة، وعلى حد تعبير الكاتب:

"لم يعرف عنها أي نشاط بمعزل عن أو خارج نشاطها الإرهابي، المنظمة ليست لها جناح سياسي، ولم تشكل حزباً، ولم تصدر صحيفة، ولم تنازل العدو الصهيوني في أي ساحة، ورغم أن هناك خلافات عميقة حول مصطلح الإرهاب وملاءمته لوصف هذا العمل أو ذاك، فإنه لا يكاد يوجد خلاف يذكر حول وصم منظمة أبو نضال وأعمالها بالإرهاب، وبالتالي فإن سيرة هذه المنظمة يمكن أن تعتبر خير دليل على مدى عملية المسار الإرهابي وجدواه". (١٢)

الحديث عن منظمة "أبو نضال" ليس مقحماً بلا مناسبة، فثمة حادث شهير شهدته العراق، خلال الأسبوع نفسه، يدفع بالمنظمة القديمة، التي تضاءل نشاطها إلى درجة الذبول، إلى ذاكرة الكاتب، والحادث المقصود هو اغتيال زعيم المنظمة في ظروف غامضة. ولأن الدكتور عبد الوهاب ينشغل في المقام الأول بتفجيرات سبتمبر وأنشطة القاعدة، فإنه يعقد مقارنة مهمة بين القديم والجديد، ويستخلص رؤية صحيحة يقول فيها:

"ولكن التجربة تكشف أن المنظمة الإرهابية، خاصة إذا كان لها اسم وعنوان، مثل منظمة أبو نضال أو القاعدة، لن تستطيع القيام إلا بعمل واحد كبير قبل أن تتعرض للضربة القاضية، القاعدة لم تنسف مباني مركز التجارة فقط، بل نسفت معها إمارة أفغانستان الإسلامية التي كانت تؤويها وربما العراق أيضاً، هذا فضلاً عن إنهاء وجودها عملياً؛ جماعة أبو نضال أعطت بمحاولة قتل السفير الإسرائيلي في لندن عام ١٩٨٢ الذريعة المطلوبة لنسف الوجود الفلسطيني في لبنان". (١٣)

لقد تخلص النظام العراقي من عبء استضافة أبو نضال، فلم يعد وجوده مفيداً أو مجدياً، وفي المقابل تمسكت حكومة طالبان بأسامة بن لادن، ودفعت ثمناً فادحاً لكرم الضيافة غير المحسوب، حتى وإن قيل إن التخلص من زعيم القاعدة لم يكن يحول دون السعي الأمريكي لإسقاط حركة طالبان.

في عنوان المقال: "عبثية"، ما ينم عن إدانة واضحة صريحة للممارسات الإرهابية المتطرفة، التي لا تقدم خدمة حقيقية لحركة التحرر الوطني. ما جدوى القيام بعملية واحدة كبيرة غير ذات جدوى، بالنظر إلى أنها ستكون العملية الأخيرة.

يختتم الكاتب مقاله بالقول:

"أنصار أبو نضال (من العجب أن الرجل لا يزال لديه أنصار) يتهمون النظام العراقي بتصفيته سعياً وراء "إخفاء الأدلة" فيما يتعلق بعلاقة العراق بنشاطه الإرهابي، وإذا صح هذا فإن هذه تكون نهاية مناسبة جداً للرجل الذي ابتدع أسلوب إخفاء الأدلة وأجاده، ودرس آخر عن الطبيعة الانتحارية للظاهرة الإرهابية". [١٤]

سيبقى للإرهاب أنصاره دائماً، ذلك أن الإرهابيين لا يخضعون لقواعد المنطق وحسابات السياسة. إنهم، على نحو ما، انتحاريون لا ينشغلون بما يتجاوز اللحظة الراهنة. في الذكرى الرابعة لتفجيرات سبتمبر، يكتب الدكتور الأفندي، في ٢٠٠٥/٩/١٣.

ذكرى أيلول:

"ذكرى أيلول وألغاز مطاردة بن لادن"، وفي المقال يواصل الكاتب تحليله للظاهرة الإرهابية بشكل عام، من خلال التوقف عند تنظيم القاعدة وزعيمه وعملياته وأساليب تعاقبه.

يقول الكاتب في مطلع مقاله:

"في تاريخ هذا الكوكب الأرضي لم يحدث في يوم ما أن ضاق العالم بشخص كما ضاق بابن لادن، فهو رجل لا تطارده دولة عظمى فحسب، بل كل دول العالم. فلا يوجد جهاز مخابرات واحد في العالم لا يعتبر الفوز بأسره أقصى المنى، وفوق هذا فإن أكثر من تسعة أعشار سكان الكرة الأرضية البالغ عددهم ستة مليارات يتمنون لو يعلمون بمكانه إن لم يكن غضبا مما فعل، فعلى الأقل طمعاً في الفوز بالملايين الخمسة والعشرين التي وعدت بها حكومة بوش لمن يدل عليه". [١٥]

الهاجس المسيطر على المقال هو التساؤل عن "السر" في اختفاء زعيم القاعدة، ومثل هذا الاختفاء يبدو غير قابل للتصديق في ظل تحركه وسط مجموعة غير قليلة من الأفراد، ذات الصلة الوثيقة والاتصال الدائم بآخرين في كافة أرجاء العالم، كما أن سقوط بعض المقربين لأسامة بن لادن لم يفد مطارديه في التعرف على مكانه والوصول إليه:

"ومع ذلك، ومع مرور أربعة أعوام على أحداث الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) وإعلان الحرب على من اجترحوها، لا يزال الأشخاص الأهم في هذه المواجهة في منأى عن قبضة المطاردين. فهل انشقت الأرض وابتلعت هؤلاء المطاردين بحسب التعبير العربي الشهير؟ أم أن القوم احترفوا معجزة لم يسبق لها مثيل بحيث أصبح بإمكان هؤلاء الأفراد أن يتحدوا ليس فقط سلطان وموارد كل دول العالم، وعددها وعديدها وتقنياتها بل كذلك فضول الإعلام وطمع العامة؟". (١٦)

تساؤلات كثيرة، منطقية ومشروعة، تثيرها قضية نجاح زعيم القاعدة في الاختفاء، وعجز الأجهزة الجبارة عن اللحاق به، وليس في هذه التساؤلات من جديد ينفرد به الكاتب، فالملايين يطرحون التساؤلات نفسها ويبحثون عن تبرير قادر على الإقناع. إذا تم استبعاد أنصار نظرية "المؤامرة"، ولهم تفانين شتى في تفسير اللغز الغامض المعقد فإن القضية تبقى بلا حل، واستمرار أسامة حراً طليقاً يمثل تحدياً خطيراً، ليس لدلالاته الرمزية والمعنوية فحسب، بل أيضاً لأنه قادر على توجيه أنصاره، غير المعروفين، لتنفيذ المزيد من العمليات الإرهابية. إن اختفاء أسامة دليل على فشل الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها الغربيين في الوصول إلى شاطئ الأمان:

"إذن مسألة العجز عن إمساك بن لادن، مع استمرار التصعيد العسكري والسياسي الذي تتولاه جماعته، يرسل رسالة خطيرة مفادها أن الأمان الذي سعت إليه الولايات المتحدة من جراء "ثورة الشؤون العسكرية" هو أمان مخادع، وأن هناك

حاجة لإعادة النظر في الأمور كلها. ويكتسب هذا الأمر أهمية خاصة من كون سياسات المحافظين الجدد التي تدعو للهيمنة على العالم تنطلق أساساً من هذا الإحساس بأن أمريكا لا غالب لها اليوم من الناس". [١٧]

الهيبة الأمريكية على المحك، بالمفهومين المادي والمعنوي، والعجز عن اعتقال زعيم القاعدة لا يتعلق بشخص أسامة وحده، ذلك أن نجاحه دليل فشل فادح في جهود المعالجة الأمنية والعسكرية، وتهديد مباشر لضمان اكتمال الهيمنة الأمريكية على مقدرات العالم.

ويختتم الكاتب مقاله مؤكداً:

"ومع كل هذا فإن العجز المستمر عن مجرد تحديد مكان بن لادن وأنصاره المقربين يمثل معضلة كبرى، وثغرة لا يستهان بها في إستراتيجية الولايات المتحدة لتأمين نفسها ضد الأخطار المستقبلية والكثير من الحيثيات في هذا الصدد تعتمد على إمكانية اكتشاف الطريقة التي تمكن بها بن لادن من الإفلات كل هذا الوقت". [١٨]

ألغاز المطاردة ليست منفصلة عن الإطار العام للظاهرة الإرهابية التي يتم التفاعل معها عبر منهج قاصر، لا يرى إلا بعض نتائجها وتداعياتها وعملياتها، وربما كان التوقف عند عمود نشره الكاتب بعد أربعة أيام من المقال السابق، ٢٠٠٥/٩/١٧، وعنوانه "محاربة الإرهاب في نيويورك وغزة"، أفضل تكوين لرؤية الكاتب التي تسعى إلى الجمع بين إدانة الإرهاب وعملياته الدموية من ناحية، وتجاوز معطياته المباشرة الظاهرة بحثاً عن جذوره وأسبابه الحقيقية من ناحية أخرى.

يقول الكاتب في الفقرة الثانية من عموده:

"كل زعماء العالم وافقوا على إدانة الإرهاب ورفضه ومعاقبة المحرضين عليه. ولكنهم لم يتفقوا على ما هو الإرهاب. وفي هذا إشارة كاشفة إلى أن "الحرب على الإرهاب" هي شعار يرفعه الصالح والطالح، وأن بعض من يرفعه سواء قوات الاحتلال الروسي في الشيشان، أو الاحتلال الإسرائيلي في فلسطين، أو الأمريكي-البريطاني في العراق، أو الدكتاتوريات المعروفة في العالم العربي وآسيا الوسطى، كل هؤلاء يرتكبون جرائم أبشع بكثير من أفعال الإرهابيين". [١٩]

الارتكاز هنا على أن إدانة الإرهاب لا تحول دون غيـــاب التعريــف النهـــائي الواضح له، وهو ما يقود إلى اختلاط المفاهيم، والعجز عن التمييـــز بـــين الإرهـــاب والمقاومة. أليس صحيحاً أن كثيراً من الفظائع الإرهابية تمارسها دول ترفع شعارات محاربة الإرهاب؟.

وينتقل الكاتب في الفقرة الثالثة إلى القول:

"التركيز على قضية الإرهاب عوضا عن، وعلى حساب، الهموم الدولية الأخرى هي تعبير آخر عن المركزية الغربية، وهي من جهة أخرى تعبير جديد عن العجز عن فهم جذور الظاهرة الإرهابية، فضلاً عن التصدي الصحيح لها". [٢٠]

الهموم الدولية الأخرى غائبة عن صانعي القرارات التي تحارب الإرهاب غير القابل للتعريف الصحيح، وهؤلاء المحاربون للإرهاب يضلون السبيل في رحلتهم غير الجادة للبحث عن جذور الإرهاب، وهو المدخل الوحيد لشن حرب صحيحة وقـــادرة على تحقيق نتائج إيجابية ضد الظاهرة التي لا يكاد أحد يختلف على رفضها.

في الفقرة السادسة تركيز على القضية الفلسطينية والتجاوزات الإسرائيلية، التي تمثل إرهاباً مسكوتاً عنه وغير مدرج في الأجندة الأمريكية لمحاربة الإرهاب:

"الدرس الأول في مكافحة كل أشكال العنف بما فيها مـــا دأب الـــبعض علـــى تسميته إرهابا يجب أن يشتمل على توزيع شرائط فيديو لأحداث معبر رفح في غزة خلال الأيام القليلة الماضية، على كل زعماء العالم وخبراء مكافحة الإرهاب". [٢١]

الممارسات الإسرائيلية، على نحو ما نموذج للمناخ القادر على إفـــراز المزيـــد والمزيد من المتطرفين والإرهابيين، لكن الزعماء والخبراء، من وجهه نظر الكاتـــب، يركزون على جانب دون جانب من الظواهر المعقدة المتداخلة المتشابكة التي تمثل في مجموعها ما يسمى بالإرهاب.

في الفقرة التاسعة والأخيرة من العمود، يقدم الدكتور عبد الوهاب مـــا يمكـــن اعتباره الإطار النظري العام الذي يحكم رؤيته كما تتجلى في كافة مقالاته:

"المنادون بمحاربة الإرهاب في نيويورك أكدوا مراراً بأنه لا شيء يبرر الإرهاب وهذا صحيح. ولكن أيضاً لا شيء يبرر الاحتلال والقمع والنهب ووضع الأبرياء في معتقلات نائية بدون محاكمة وتعذيب وإساءة معاملة الأسرى". (٢٢)

إرهاب ينتج إرهاباً وعنف تمارسه الدول والأنظمة يقود إلى عنف مضاد يمارسه الأفراد الذين يبحثون عن علاج لهموم أدار العالم ظهره لها واكتفي بالمعتقلات والشعارات. صحيح أنه لا شيء يبرر الإرهاب، وصحيح أيضاً أنه لا شيء يفسر السكوت عن الممارسات التي قادت إلى هذا الإرهاب. ولكن الصحيح أيضاً أنه لا ربط على الإطلاق بين هذه الممارسات التي تقوم بها بعض الدول وبين إرهاب القاعدة وأسامة بن لادن في أقل تقدير إن لم يكن ما يمارسه الإرهابيون في كل ربوع الأرض وتحت كل المسميات بشكل عام!.

سعيد الشهابي:

سبع مقالات للدكتور سعيد الشهابي، عن أحداث سبتمبر وتداعياته، تدخل في نطاق العينة المبحوثة التي تتوقف عندها الدراسة: نشر مقاله الأول في ٢٠٠١/٩/١٩، وكان مقاله الأخير في ٢٠٠٦/٩/١٣، وبينهما خمس مقالات تتوافق مع الذكرى السنوية للتفجيرات.

يحمل المقال الأول عنوان "الإسلام لا يدعو لقتل الأبرياء وإرهاب ينتهي بإزالة أسبابه"، ٢٠٠١/٩/١٩، ولم يكن قد مضى إلا أسبوع واحد على تفجيرات نيويورك وواشنطن؛ لأن الانطباع السائد والفكرة المسيطرة هي التشكيك في مصداقية اتهام تنظيم القاعدة بتنفيذ العملية، والتساؤل الحائر عن المصير الذي يتوجه إليه العالم.

يقول شهابي في مطلع مقاله:

"منذ اللحظات الأولى لتفجير مركز التجارة العالمي صدر الحكم ضد أسامة بن لادن، قبل توجيه التهمة. وبعد صدور الحكم بدأت الحكومة الأمريكية البحث عن أدلة

تدينه وأتباعه، وتم في الغالب تجاهل الجهات الأخرى المحتملة، بينما قرعت طبول الحرب وأثيرت المشاعر ضد العرب والمسلمين برغم الشجب والاستنكار لما حدث، فأصبح العالم على موعد مع حرب غير محددة بزمان أو مكان، وبدون هدف واضح أيضاً. فإلى أين يتجه العالم في الأسابيع القليلة المقبلة؟". (٢٣)

أيا كان الاتجاه الذي يسير فيه العالم وإليه، فإن لمنطقة الخليج العربي خصوصياتها وتتمثل هذه الخصوصية في عدة محاور يرصدها الكاتب:

المحور الأول عن جنسيات المتهمين بتنفيذ العملية، وكلهم ينتمون إلى المملكة العربية السعودية ودولة الإمارات العربية، إن لم تكن أوراقهم مزورة!

المحور الثاني يتعلق بالقواعد العسكرية الأمريكية في منطقة الخليج، والتي يتحتم استخدامها عند القيام بأي عمليات عسكرية متوقعة رداً على العدوان.

المحور الثالث يشير إلى ضرورة التمييز بين الحرب القادمة المتوقعة وحرب الخليج السابقة لتحرير الكويت في أعقاب الغزو العراقي لها. فإذا كان صدام حسين ونظامه هو العدو المحدد في حرب التحرير، فإن العدو المرشح للانتقام في الحرب الجديدة لا يحمل ملامح نهائية واضحة، ولا يوجد دليل واضح على استحقاقه للعقاب.

لا يوافق الشهابي على صحة الاتهام الموجه لتنظيم القاعدة، ويطرح مجموعة من "الأسباب" التي أدت إلى وقوع العملية الإرهابية، وهي أسباب تتحمل الولايات المتحدة مسئوليتها:

"فقد بقيت علاقاتها مع إيران متوترة، وحاولت فرض سياسة الاحتواء المزدوج ضد العراق وإيران، واستنزفت أموال دول الخليج في صفقات تسلح عملاقة حتى عندما كانت اقتصادات تلك الدول تعاني من تراجع عائدات النفط، وسعت للضغط على دول مجلس التعاون للتطبيع مع "إسرائيل"، وغضت الطرف عن الجرائم الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني. هذه الحقائق ساهمت في تكريس مشاعر العداء لدى المجموعات المناوئة لوجودها العسكري في الخليج وفي مقدمتها أسامة بن لادن والعراق. وتقاطعت مصالح جهات عديدة بشأن الموقف من الولايات المتحدة الأمريكية، خصوصاً محاولاتها المستمرة لحماية "إسرائيل" من الموقف الدولي، ومنعت صدور أي قرار دولي ضد قوات الاحتلال الإسرائيلية، كما حدث مؤخراً في مؤتمر العنصرية بجنوب أفريقيا، وكما حدث بعد مجزرة قانا في لبنان". (٢٤)

قد تكون الأسباب التي يسوقها الدكتور سعيد الشهابي صحيحة، لكنها تقود إلى نتيجة محددة تنحصر في تبرير وتفسير تصاعد العداء لأمريكا وربط سياساتها غير العادلة، في العالمين العربي والإسلامي، لكن "الأسباب" لا تعني أن التهمة بلا متهم أو أنها من الشيوع بحيث يصعب تحديد هوية القائمين بتنفيذها.

خاتمة المقال لا تقدم متهماً أو مرشحاً للاتهام، ذلك أنها تكتفي برصد وإدانة أجواء الحرب التي ستعد لها أمريكا وحلفاؤها، ويصر الكاتب على أن الجوهر كله يتركز في القضية الفلسطينية:

"حلف الناتو أعلن استعداده لدعم الولايات المتحدة عسكرياً، وكذلك بعض الدول العربية والإسلامية. ولكن هؤلاء جميعاً يجهلون الهدف. فهل هي أفغانستان وحدها؟ وهل سيكتفي الأمريكيون بإسقاط نظام طالبان؟ وهل هناك أدلة حقيقية على تورط بن لادن في العمل الإرهابي الذي حدث في نيويورك وواشنطن؟ وماذا عن البعد الإسرائيلي في تشويه صورة الولايات المتحدة في أعين المسلمين؟ فهل ستعيد واشنطن النظر في سياستها الداعمة بدون حدود لقوات الاحتلال؟ لقد شجب العرب والمسلمون كل أشكال العنف والإرهاب خصوصاً إذا استهدف المدنيين والأبرياء كما حدث مؤخراً، فهل سيتوقف الإرهاب الإسرائيلي ضد الشعب الفلسطيني الأعزل؟". [٢٥]

اللافت للنظر أن عنوان المقال يشير إلى أن الإسلام لا يدعو لقتل الأبرياء، لكن هذه الفكرة لا تحظى باهتمام الكاتب على مدار مقاله الطويل، ويبدو من صياغته أن العرب والمسلمين ليسوا مطالبين بأكثر من إصدار بيانات لشجب كل أشكال العنف والإرهاب. ما علاقة تلك البيانات بالدفاع عن الجوهر الإسلامي الذي يسيء إليه الإرهاب المنسوب إلى الإسلاميين، وكيف يكون العلاج العادل للقضية الفلسطينية عبر سلسلة من الأعمال الإرهابية المعادلة للإرهاب الإسرائيلي ضد الشعب الفلسطيني الأعزل؟.

إن تصدير القضية الفلسطينية على اعتبار أنها الدافع الأساسي وراء الإرهاب، لم يخدم القضية بقدر ما يضيرها، ولن يستسيغ المواطن الأمريكي فكرة أنه مطالب بتقبل سقوط ضحايا مدنيين أبرياء، وتعرض كرامته الوطنية للإهانة، حتى يعي مخاطر الممارسات الإسرائيلية.

المقال الثاني للدكتور الشهابي، ٢٠٠٢/٩/١١، يحمل عنـوان "كيـف تغيـرت أمريكا خلال عام بعد ١١ أيلول"، ولعل الفكرة المحورية في المعالجـة تتجـسد فـي الخاتمة التي يقول فيها:

"أمريكا تبدو اليوم في حالة ارتباك سياسي خطير لا تقتصر آثاره المدمرة على منطقة بعينها، إذ إن لديها من أسلحة الدمار الشامل ما قد يؤدي إلى كوارث بـشرية لا تقل خطراً عما حدث عندما ألقيت القنبلة الذرية على هيروشيما وناغاساكي قبـل أكثر من نصف قرن. وليس من مصلحة أمريكا الاستمرار في هذه الـسياسة، كمـا ليس من مصلحة العالم الصمت على هذه السياسات. ومادام المنبر الوحيد المتاح في الوقت الحاضر يتمثل بالأمم المتحدة فمن الضروري إجبار واشنطن على الاحتكام إلى ذلك المنبر وعدم التصرف خارج إطار المجموعة الدولية. الإرهاب ظـاهرة خطيـرة ومرفوضة، ومحاربتها يجب أن تكون من خلال توافق دولي وليس بإرادات منفصلة. ومن مصلحة العالم أن تكون أمريكا القوية خاضعة لحكم القانون الدولي وفي طليعة من يطبقه. تلك هي القوة الإيجابية التي تبني ولا تدمر، تعمر الأرض ولا تخربهـا، تقضي على الإرهاب وأسبابه ولا تشجعه". (٢٦)

إنه يرصد المحصلة النهائية التي ترتبت على الحادث وتداعياته، ويصمم مـن منظور عربي لا يمثل نقطة الانطلاق في السياسة الأمريكية، إن المصلحة الأمريكيـة تحتم التراجع عن السياسة التي تنتهجها في موقفها من الصراع العربي الإسـرائيلي. صحيح أن مصلحة العالم في خضوع القوة الأمريكية الهائلة للقانون الدولي، لكن هـذا المقترح لا يخلو من مثالية تتجسد في حقيقة أن الإرهابيين أنفسهم، وفي طليعة هؤلاء الإرهابيين يبرز تنظيم القاعدة، لا يعترفون أصلاً بفكرة القانون الدولي، كما أنهـم لا يوافقون على تسمية أعمالهم الجهادية باسم الإرهاب. المشكلة فـي رؤيـة الـدكتور الشهابي أنه أقرب إلى أحادية النظرة، فلا يرى بملامح المشهد المعقد إلا زاوية واحدة تنطلق من مرتكزات عربية وإسلامية، وهذه المرتكزات ليست بالضرورة مما يخضع له نمط التفكير الأمريكي، الذي يبحث – في المقام الأول – عن رد الاعتبار من ناحية وتحقيق مصالحه الإستراتيجية من ناحية أخرى.

في الذكرى الثانية لتفجيرات الحادي عشر من سبتمبر، ٢٠٠٣/٩/١٧، ينشر سعيد الشهابي مقالاً ثالثاً عنوانه: "لماذا يكره العالم أمريكا؟". يمثل المقال امتداداً لرؤية الكاتب التي تميل إلى تحميل الولايات المتحدة المسئولية الكاملة عن الحادث الذي شهدته أراضيها، والخلاف هنا أن الولايات المتحدة قد تتحمل "جزءاً" من المسئولية، وهو جزء تختلف الآراء حول نسبته، لكن من التطرف أن تتحمل وحدها المسئولية، وكأن الإرهابيين الذين قاموا بالتفجيرات الدموية مجرد "أبرياء" مارسوا رد الفعل، ولا يمكن أن تشير أصابع الاتهام إليهم:

"يعترف الأمريكيون بفشلهم في علاقاتهم العامة والصور غير المشرفة للقوة الكبرى في العالم لدى الآخرين، وهي صور لا تقتصر على قوم دون آخرين، بل هي ظاهرة منتشرة في كافة أصقاع الأرض، من الفلبين إلى اليابان إلى أمريكا اللاتينية وأفريقيا بالإضافة إلى العالمين العربي والإسلامي، وهي صور تراكمت عبر الأجيال خصوصاً منذ الحرب العالمية الثانية عندما أصبحت الولايات المتحدة أكثر حضوراً في البؤر الساخنة في مختلف القارات. وثمة محطات كثيرة أدت إلى تكرس ذلك الانطباع، ابتداء باستعمال القنبلة النووية ضد اليابان، مروراً بدعم الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين والحرب الكورية والانقلاب ضد حكومة محمد مصدق في إيران وحرب فيتنام، والانقلابات العسكرية في أفريقيا وإندونيسيا وتركيا وصولاً إلى السنوات العشرين الأخيرة التي شهدت هيمنة صهيونية واضحة على السياسة الخارجية الأمريكية. وبالإضافة إلى الذكرى الثانية لحوادث ١١ سبتمبر المأساوية، مرت في اليوم نفسه الذكرى الثلاثون للانقلاب الذي أطاح بحكومة سلفادور الليندي في تشيلي، وهو الانقلاب الذي دعمته وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية ضد حكومة منتخبة، وحول البلاد إلى حكم عسكري مقيت استمر عشرين عاماً. وفيما شاطر العالم أمريكا في مصيبتها قبل عامين، تحولت تلك المشاطرة إلى نقمة عندما سعت واشنطن للانتقام على أوسع نطاق ممكن وشنت الحروب تباعاً، وأصبحت

تطارد المسلمين في كل مكان، وتغض الطرف عن الممارسات الإسرائيلية بحق الشعب الفلسطيني، وتنتهك حقوق الإنسان الأساسية للمعتقلين في غوانتنامو وأفغانستان والعراق. هذه الصور لا يمكن طمسها بادعاءات جوفاء، ويتطلب تجاوزها عملاً سياسياً وإنسانياً ودبلوماسياً مكثفاً ومتواصلاً ينطلق على أسس نبيلة من بينها عدم دعم الاحتلال والاستبداد وقمع الحريات، بالإضافة إلى دعم الممارسة الديمقراطية في العالمين العربي والإسلامي مع احترام قيمهما الدينية والثقافية، والتخلي عن عقلية الاستحواذ المطلق على الاقتصاد العالمي أو المؤسسات الدولية مثل الأمم المتحدة والبنك الدولي وغيرهما. إن أمام الولايات المتحدة مشواراً طويلاً من العمل والمشاريع والمواقف إذا كانت حقاً تسعى لتغيير صورتها لدى العالم، وتبحث عن احترام لها من قبل الآخرين. ولا يمكن إنكار ما لدى الولايات المتحدة من إيجابيات، لكنها تختفي وراء الممارسات السلبية الأخرى، وتصعب عملية تحسين صورة واشنطن في اللاوعي الإنساني. مشكلة الولايات المتحدة أنها تسعى دائماً لتبسيط الحلول عندما تواجهها الأزمات، وتتعاطى مع ظواهر المشاكل وليس خفاياها وتعقيداتها، وتعتقد أن القوة العسكرية وحدها تكفي لحسم المواقف وحل الأزمات والقضاء على الإرهاب. مطلوب من واشنطن إعادة النظر في سياساتها خلال الخمسين عاماً الماضية وإجراء تقييم نقدي متواصل ومستقل للتعرف على الأسباب الحقيقية التي جعلت الآخرين يعادون أمريكا ويعتبرونها شرا مطلقا متغاضين عن إيجابياتها. هذا هو الطريق للتقويم المطلوب لبدء المسيرة التصحيحية لمسار طويل ومعقد تواصل أكثر من نصف قرن." (٢٧)

الوجه الأمريكي "القبيح" يقابله وجه آخر يغفله الكاتب؛ لأنه يركز على إبراز الصورة السلبية التي بدأت ملامحها بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. لا يستطيع الأمريكيون أنفسهم إنكار أخطائهم وخطاياهم، لكنهم – في المقابل – يطالبون من يقيمهم بالتزام قدر أكبر من الموضوعية والنزاهة، ولا شك أن تغيير الصورة

الأمريكية رهين بإجراءات وتفاعلات معقدة، ولا يقتصر الأمر على جزئية بعينها مثل اتخاذ موقف عادل تجاه الصراع العربي الإسرائيلي. على الرغم من أهميته بالنسبة لنا كعرب ومسلمين، فعلينا نحن أيضاً واجبات يجب أن نقوم بها إذا ما أردنا للميزان الأمريكي، أو حتى ميزان العالم أن يعتدل.

ويستمر الدكتور الشهابي في موقفه الراسخ، الذي يتسم بتحميل أمريكا مسئولية ما حدث، ففي سياق الاحتفال بالذكرى الثالثة لأحداث سبتمبر، ٢٠٠٤/٩/٨، ينشر الدكتور مقالاً مهماً يحمل عنواناً دالاً: "الإرهاب بشقيه القاعدي والأمريكي يحكم منذ ١١ سبتمبر".

العنوان يعبر عن المضمون الذى يسعى الكاتب إلى تقديمه، فالإرهاب الذي تمارسه القاعدة في مواجهة الإرهاب الذي تمارسه أمريكا. الرأى العام الغربي يميل إلى معالجات لا تعتمد على العنف وحده في مواجهة الظاهرة الإرهابية، كما أن الدعوة إلى التمييز بين عموم المسلمين والأقلية الضئيلة التي تمارس الإرهاب تكتسب أرضاً جديدة، لكنها تختفي وراء الإجراءات الصارمة التي تقود المسلمين في الغرب والولايات المتحدة. يعترف الكاتب:

"بأن هذه الإجراءات المزعجة أدت إلى إضعاف التيارات التقليدية على حساب التيارات الشابة الأقل عقلانية في التعاطي مع الأوضاع المتجددة في العالم. هذه الإجراءات أصبحت ظاهرة مقلقة ليس للمسلمين فحسب، بل للنخب السياسية والثقافية في العالم الغربي التي ترى أن المنحى العام لسير الأمور يتجه نحو المزيد من التضييق على الحريات العامة، وأن هناك مساومة على ما كان يعتقد حتى وقت قريب، حقوقاً أساسية أكدتها التشريعات الدولية في مجال حقوق الإنسان. هذه الظواهر مقلقة جداً لتلك النخب؛ لأنها تعلم أن الحضارات إنما تبدأ مرحلة السقوط عندما تنقلب على المبادئ الأساسية التي ترتكز عليها، وتلجأ لاستعمال القوة لحسم قضايا الخلاف مع الآخرين، وتضيق ذرعا بالآخرين، خصوصاً من لا ينسجم معها في

التفكير والموقف السياسي أو الأيديولوجي. الحضارات ستستمر طالما كانت قادرة على احتضان الآخرين، وصهرهم في محيطها العلمي والسياسي، وقائمة على أسس إنسانية لا تميز بين الناس على أسس العنصر واللون واللغة، وبعيدة عن التعصب والجهل بالآخرين. هذه الخصائص بدأت تتلاشى في الحضارة الغربية الحالية خصوصاً بعد ١١ سبتمبر، وهو أمر من شأنه أن يؤدي إلى المزيد من التآكل والضعف." (٢٨)

الخطورة في المقتبس السابق تتمثل في أن الكاتب نفسه لا يميز بوضوح بين الإجراءات المضادة للحريات، وهي مرفوضة تماماً، وبين الإجراءات التي تسعى إلى الحد من خطورة الإرهاب ومغامرات الإرهابيين، وهي مقبولة مع التحفظ على بعض ما فيها من شطط لا ينجو منه الأبرياء.

الدكتور الشهابي، متسقاً مع رغبته الدائمة في إلقاء العبء كله على الولايات المتحدة، يرى أن السياسة الأمريكية ليست جادة في المواجهة العملية الجذرية للإرهاب:

"ومع الموافقة الظاهرية من قبل الولايات المتحدة على معرفة أسباب الظاهرة، فقد رفضت إدارة الرئيس بوش التعمق في الأسباب، وأصرت على جعل الحرب ضد الإرهاب عنواناً للسياسة الأمريكية في السنوات الثلاث الأخيرة، على أن تستمر بدون سقف زمني أو مساحة جغرافية محددة، وجبهة مفتوحة لا تستثني أحداً في العالمين العربي والإسلامي. وبعد مرور الأعوام الثلاثة التي كانت الأخطر في تاريخ العالم الحديث منذ الحرب العالمية الثانية، ها هو الرئيس بوش يعترف الأسبوع الماضي بأن الحرب قد لا تنجح في القضاء على الإرهاب. وجاءت تطورات الأشهر الأخيرة لتؤكد أطروحة عدم إمكان القضاء على الإرهاب بدون التصدي لأسبابه بموضوعية وحكمة. وما الحوادث الإرهابية التي حدثت في روسيا، وآخرها اقتحام مدرسة واحتجاز طلابها وموظفيها،إلا مؤشر على خطورة الوضع وضرورة التعاطي معه بأساليب تختلف عن الأسلوب الأمريكي. لقد بادر المسلمون عموما

لشجب عملية "بسلان" الروسية، فهي بعيدة في روحها عن الإسلام وقيمـــه؛ لأنهـــا توسع دائرة الصراع لتشمل المدنيين والأطفال، وتلصق بالإسلام ســمعة ســيئة. إن دعم نضال الشعب الشيشاني مطلوب في إطار دعم مبدأ إعطاء الشعوب حق تقريــر مصائرها، ولكن لا يمكن دعم أعمال العنف الغوغائية التي تضرب مبــادئ الإســلام وتتجاوز أطره الأخلاقية والإنسانية." (٢٩)

الجانب الأخير جدير بالاهتمام والموافقة على صحة التحليل، فالإسلام بريء من تشنج المتطرفين وإرهابهم غير المستند إلى أساس ديني، لكن المشكلة أن الغرب لــن يقنع بمثل هذه الإدانات التي يسارع العرب والمسلمون إلى إصدارها كلما وقع حادث مروع، ويعلنون تبرئة الإسلام و"أغلبية" المسلمين، وتحميــل المــسئولية لمجموعــة منحرفة لا ينتمي إليها إلا قلة من المسلمين، ثم المسارعة بالعودة إلى اتهــام أمريكــا والغرب بالمسئولية!.

المشكلة الدائمة عند الشهابي تكمن في أنه لا يرى إلا جانباً واحداً من اللوحــة المتسعة، وأنه يعجز عن "تقمص" رؤية الآخر الذي لا يتفاعل مع القــضايا المعقــدة بتبسيط يقتصر على إصدار بيان شجب يؤكد براءة الإسلام، فما الذي يفعله المسلمون الحقيقيون، قبل وبعد هذه البيانات، لمواجهة الظاهرة التي أنتجوها؟!

إدانة سياسة بوش هي الخيار الأسهل، ومثلما يبدأ الكاتب مقاله بإدانة الــسياسة الأمريكية العاجزة عن مواجهة الإرهاب فإنه يعود ليختتم المقال بالتأكيد على الفكــرة نفسها، وهو لا يتمثل بقوله:

"ثلاثة أعوام من التركيز المتواصل على مكافحة الظاهرة الإرهابية لــم تنــتج الحل السحري الذي كان الرئيس بوش يتوقعه. وربما أصبحت المشكلة أكثر تجذرا، وذلك نتيجة سياسات واشنطن ذات البعد الأحادي الذي يعتمد القوة أســلوبا لحــسم مشكلة الإرهاب. والواضح أن هذا الأسلوب لم ينجح، فهل أصبحت واشنطن مستعدة لانتهاج أساليب أخرى أقل كلفة وأكثر فاعلية؟ مثل هذه الأســاليب تتطلــب تغييــرا

في ثوابت السياسة الأمريكية في المنطقة، وهو أمر ما يزال صقور البيت الأبيض غير مستعدين للتفكير فيه فضلاً عن تبنيه والبدء بتنفيذه. الناخبون الأمريكيون هم أصحاب القرار في هذا الشأن، فهم القادرون على معاقبة الرئيس بوش بعدم إعادة انتخابه عندما يتوجهون إلى صناديق الاقتراع في نوفمبر المقبل. لو فعلوا ذلك بحرمان جورج بوش من دورة رئاسية ثانية، لكان على جون كيري أن يأخذ ذلك في الاعتبار وهو يدير شؤون الولايات المتحدة بعد فترة عصيبة، بعيداً عن الرغبة في الانتقام أو السعي لتصفية الحسابات في معركة غير متكافئة تؤدي إلى مسلسل متصاعد من العنف المضاد، بدون أن تكون هناك نهاية لذلك." (٣٠)

الناخب الأمريكي هو صاحب القرار، ومن حقه وحده أن يعاقب بوش بحرمانه من دورة رئاسية ثانية، وهو الأدرى بما يتصور أنه مصلحته وطريقه لتحقيق الأمان والاستقرار.

لكن كثيراً من المفكرين العرب يبذلون جهداً خارقاً في توجيه النصائح إلى الحكومات والشعوب الغربية، وكان الأولى بهم أن يوجهوا نصائحهم إلى بلدانهم!

هذا ما حققه الإرهاب:

ويعود الشهابي، في الذكرى الثالثة لأحداث سبتمبر، فيكتب "هذا ما صنعه الإرهاب فماذا حققت الحرب ضده؟"، ولعله أكثر المقالات أهمية في الكشف عن جوهر المرتكزات الأساسية التي ينطلق منها في التعامل مع الظاهرة الإرهابية بشكل عام، وخصوصية الصراع الذي فجرته عملية ١١ سبتمبر التي شهدتها أمريكا بشكل خاص.

المرتكز الأول يتمثل في عجز العالم، الغربي والإسلامي على حد سواء، عن استيعاب ما حدث والتعامل معه بشكل صحيح، وهو ما يتجسد في مطلع المقال:

"من المؤكد أن دروس الحادي عشر من أيلول(سبتمبر) لم تستوعب بعد، سواء في الأوساط الغربية أم الإسلامية، بدليل عدم حدوث تغييرات تذكر

في السياسات المحلية والدولية استجابة لإيحاءاتها. فالغرب لا يــزال يتعــاطى مــع الإرهاب بالإصرار على مواجهة النار بالنار، بدلاً من التعاطي العميق مع مــدلولات الظاهرة وأسبابها. أما الأنظمة العربية فلم تصلح أنماط حكمها لتــستوعب دعــوات الإصلاح وتمنع التطرف." (٣١)

المعالجة الإستراتيجية تغيب عن الطرفين، فالغرب لا يصل إلى جوهر الأزمــة الصانعة للإرهاب قانعا بلغة العنف والقوة، والعرب بدورهم لا يلجئون إلــى اعتمــاد منهج التغيير الحقيقي في أنظمة الحكم ذات الطابع الشمولي، وهو مــا يــؤدي إلــى استمرار التطرف وتصاعده لينذر بالمزيد من عمليات العنف والإرهاب.

ويتجسد المرتكز الثاني في حقيقة أن أحداث سبتمبر ليست عملية عابرة أضرت بالمصالح الأمريكية وهددت هيبتها ومست كرامتها، ذلك أن تداعيات العملية الإرهابية غير المسبوقة قد طالت العالم كله، وعلى كافة المستويات، وهو ما أدى إلى تعقيد مــا كان قائماً من صراعات، وإضافة الجديد من المشاكل إلى ساحة كانت مليئة – منــذ البدء – بالتناحرات والمشاكل:

"إن ما حدث قبل ثلاثة أعوام ليس شأنا خاصا بأمريكا، وإن كانت هي الهــدف المباشر للأعمال التي نسبت إلى تنظيم "القاعدة"، بل كان حدثاً جر العالم إلــي نمــط جديد من التداول على كافة الأصعدة، بما فيها الاقتصادية والثقافية بالإضــافة إلــي مستوياتها السياسية والدينية، وكان من بين ضحاياها مشروع حــوار الحــضارات وحوار الأديان، ومبدأ التعايش السلمي بين الأمم والــشعوب، والأمــن والاســتقرار الدوليان، والتفاعل الثقافي والديني بين أبناء الكوكب، والثقة المتبادلة بــين ســكان الأرض. هذه الجوانب تراجعت كثيرا في الأعوام الثلاثة التي أعقبت حوادث التفجير التي استهدفت مركز التجارة العالمي ومبني وزارة الدفاع الأمريكيــة، والتــي راح ضحيتها قرابة الثلاثة آلاف من الأمريكيين وغيرهم. لقد تحول أفق الصراع وشــكله بعيدا عن الأساليب التقليدية التي طبعت علاقات المتنافسين خلال الحــرب البــاردة، وقطعت وسائل التواصل بين الفرقاء، ليتحول الأمر إلي صراع دموي شــرس بــلا هوادة". (٣٢)

أما المرتكز الثالث فيتعلق بظاهرة العنف الإرهابي، من حيث إنها ظاهرة إنسانية تاريخية لها أسبابها المعروفة، ولا يمكن التعامل مع تنظيم القاعدة إلا على اعتبار أنه حلقة من حلقاتها، ولا جديد تضيفه القاعدة إلا في ابتكار أساليب غير تقليدية وغير معقدة، أما المبدأ نفسه فإنه وسيق الصلة لأسباب كاملة بخريطة السياسة الدولية وأطراف الصراع فيها، كما أنه يرتبط بوطأة الشعور بالحرمان وغياب العدالة وتراجع المقاييس الموضوعية المنصفة التي ينتهجها الأمريكيون والغربيون:

"العنف المسلح الذي ينطلق على خلفيات سياسية ليس أمرا جديدا، بل يمتد على مدى التاريخ، ويتواصل عبر الأجيال، ويتصل بالطبيعة البشرية التي تنطوي على نزعات الطمع والنزوات الشيطانية التي توجه أصحابها، في غياب المنطلقات الأخلاقية والدينية الأصلية، لاستعمال القوة لتحقيق الأطماع الشخصية. ويمكن توسيع هذا المفهوم ليصل إلى مفاهيم العدالة والحرية التي يؤدي غيابها إلي اختلال في المجتمعات والأمم ويفتح باب الصراع والتنازع المسلح. وظاهرة العنف المرتبط بتنظيم "القاعدة" لا تنفك عن هذه التعريفات، بل تتصل بها بشكل أو آخر. فغياب الأمن الاجتماعي والسياسي يرتبط بنزعة الاستحواذ على المال العام والهيمنة المطلقة على السلطة وانتهاج سياسة حرمان الآخرين من حقوقهم الاقتصادية والسياسية، حتى يصل الأمر إلي التنازع والعنف". (٣٣)

المرتكز الرابع ينطلق من خطورة التعامل مع العنف الإرهابي برد فعل لا يقل عنفاً، دون تجاوز يهدف إلى الوصول لعلاج صحيح لا ينشغل بالإفرازات والحوادث الجزئية. ومثل هذه المعالجة – عند الكاتب – تزيد من تعقيد المشكلة، ولا تقود إلى الاحتواء والاستقرار المنشود:

"ويلاحظ أن الأعوام الثلاثة الماضية، أي منذ حوادث ١١ أيلول (سبتمبر) الإرهابية، قد دفعت الدول الغربية، خصوصا الولايات المتحدة إلى تجاوز المنطق في التعاطي مع أسباب ظاهرة العنف السياسي، وأصبحت تتعاطى مع الظاهرة بأساليب

سانجة، معتقدة أن التصدي لظواهر المشكلة سوف يقضي عليها، فبدلا من العمل على إزالة أسباب العنف باستعمال الحكمة والعلاج القائم على أسس عملية ومنطقية، لا تزال هذه الدول تتعامل مع المشكلة بالاعتماد المطلق على القوة المفرطة، وهو أمر من شأنه تعقيد المشكلة وتوسيعها بدلا من حلها أو احتوائها". (٣٤)

ويبقى مرتكز خامس يركز على أن البعد السياسي يمثل أهمية لا يمكن إغفالها عند التناول العلمي الدقيق لقضية الإرهاب، ويؤكد الدكتور الشهابي أنه من الخطورة بمكان أن يتم إهمال الأهداف السياسية والإستراتيجية لتنظيم القاعدة، فمثل هذا الإهمال يقود إلى نتائج وخيمة، ويؤكد أن كل الجهود العسكرية لن تثمر شيئاً إيجابياً:

"أما البعد السياسي في المسألة الإرهابية فهو عنصر جوهري يحتاج إلى قراءة متأنية، ولهذا البعد أكثر من جانب. فالإرهاب بشكله الحالي أصبح أكثر تعقيدا، وله حساباته السياسية الخاصة، ففيما يتعلق بـ"القاعدة" قال السير جيريمي غرينستوك، المبعوث السابق لرئيس الوزراء البريطاني، توني بلير، والذي لعب دورا بارزا في مرحلة ما قبل حرب العراق عندما كان رئيسا للبعثة الدبلوماسية البريطانية لدى الأمم المتحدة ومجلس الأمن "أعتقد أن أحد الأهداف الرئيسية لأسامة بن لادن وقيادة تنظيم القاعدة هو جر الولايات المتحدة إلى نزاع مسلح على أرض عربية تكون قريبة إلي المملكة العربية السعودية بأقصى ما يمكن". مثل هذه التصريحات يؤكد أن للإرهابيين حساباتهم الخاصة التي تنطوي على قدر من التخطيط والتعقيد. والخطورة تكمن في حقيقة أنهم قد يكونون أدق تخطيطا من الحكومات التي يحاربونها، كالحكومة الأمريكية التي لا تزال غير مستوعبة لضرورة معالجة جذور الإرهاب والعنف السياسي بالإضافة لمواجهته عسكريا". (٣٥)

المرتكز السادس والأخير يكمن في الانعكاسات السلبية للمعالجة القاصرة على أجواء التفاهم بين الشعوب والأديان، فقد أدت المواجهات الأمنية لمكافحة الإرهاب إلى تشويه الإسلام والإساءة إليه وتحويله إلى عدو ضمني على اعتبار أنه مرادف للإرهاب، ويمثل الإطار الفكري والاعتقادي للإرهابيين:

"ومن تداعيات الأزمة أيضا تضاؤل أجواء التفـاهم عمومـا بـين الـشعوب والأديان. واستهداف الإسلام من قبل الإعلام الغربي تارة والتشريعات الجديدة بعنوان مكافحة الإرهاب تارة أخرى، وهي تداعيات لها مخاطرها الكبيـرة علـى مـستقبل البشرية". [٣٦]

المرتكزات السابقة جميعاً، التي يتوصل إليها الدكتور الشهابي بعد ثلاث سنوات من أحداث سبتمبر، تقوده في نهاية المقال إلى مستخلص نهائي بشأن واقـع الأزمـة وأفاق مستقبلنا. قد لا يكون تنظيم القاعدة ناجحاً في تحقيـق كـل أهدافـه، لكنـه – في المقابل – فرض على العالم مناخاً جديداً، ووسع من دائرة الأهداف على المستوى الجغرافي *إن من الصعب القول بأن تنظيم "القاعدة" استطاع إنجاز أجندته، أو حقـق ما يريد من خلال أعمال العنف السياسي والإرهاب. ولكن الصحيح أيضا أنه فـرض على العالم أجندة جديدة، وجعل الوضع السياسي الدولي أكثر اضطرابا وتوترا، الأمر الذي أدى إلى توسيع دائرة الصراع، حيث وصل الإرهاب إلى مناطق كانت بمنأى عن كل ذلك، مثل روسيا وأندونيسيا. المشكلة أن بعض المجموعات الإرهابية أصـبحت أكثر شراسة، وأكثر ميلا للدموية المفرطة وأقل مراعاة للذوق العـام فـي أسـاليب تعاطيها مع مناوئيها السياسيين، حتى لو كانوا مسلمين. ولذلك يصعب إصدار حكـم بالإيجاب على مدى نجاح الحرب ضد الإرهاب التي بدأت قبل ثلاثة أعوام، والتـي لا تزال تلهب المنطقة والعالم بلهيبها، وتهدد بزيادة الانتشار والتوسع. الأمر المؤكد أن العالم لم يعد أكثر أمنا مما سبق، برغم تصريحات الرئيس الأمريكي، بل ربمـا ازداد توترا وخطرا".* [٣٧]

التدمير الشامل:

في الذكرى الرابعة، ٢٠٠٥/٩/١٤، يكتب الشهابي مقالاً آخر عنوانه "١١ أيلول: مقاومة الإرهاب الأعمى للتدمير الشامل".

المقال مواكب للإعصار الذي ضرب بعض مدن الساحل الجنوبي للولايات المتحدة الأمريكية، وهو الإعصار الذي تسبب في خسائر فادحة، مادياً ومعنوياً وسياسياً، لكن الكاتب يتجاوز الحادث المأسوي الذي صنعته الطبيعة، وصولاً إلى حادث سبتمبر الذي لا تلوح له نهاية مقنعة:

"فبعد مرور أربعة أعوام على تفجيرات نيويورك، ما تزال إدارة بوش عاجزة عن التعاطي مع استحقاقاتها بشكل حاسم، وما يزال شبحها يطارد الجميع، ليس في الغرب فحسب، بل حتى في العالم الإسلامي أيضا. وبرغم المبادرات والسياسات التي قام بها البيت الأبيض للتعاطي مع تلك الاستحقاقات، ما تزال أهم العناوين المرتبطة بها موضع خلاف حتى بين المتحالفين من الحكومات الغربية". (٣٨)

ويتوقف الدكتور الشهابي أمام حادث الإعصار ليستخلص منه نتيجة وثيقة الصلة بالعملية الإرهابية التي وقعت قبل أربع سنوات، فيقول:

"وثمة بعد آخر متصل بحوادث ١١ أيلول (سبتمبر)، كشفته الكارثة الطبيعية التي تعرض لها الجنوب الأمريكي في الأسابيع الأخيرة. ففيما تمتد الذراع الأمريكية إلي مناطق نائية لشن الحروب، فإنها عجزت عن مد يد المعونة لمئات الآلاف من المتضررين بإعصار "كاترينا"، وفشلت إدارة الرئيس بوش في إدارة الأزمة فشلا ذريعا، وأصبح الوضع الأمريكي مهيأ لتوتر داخلي واستقطاب لم يسبق له مثيل منذ أيام حركة الحقوق المدنية التي قام بها السود قبل أكثر من أربعين عاما. وكشفت حقائق ما جرى في "نيواورلينز" المفارقات الواضحة على أساس اللون والعنصر. فالسود تحملوا العبء الأكبر من الكارثة، بينما اعتبر أداء الساسة الكبار وفي مقدمتهم الرئيس بوش نفسه ونائبه، ديك تشيني، غير متواز مع حجم الكارثة الإنسانية، ولا يعكس أداء إداريا كفؤا. وكشفت مشاهد الأجساد المتعفنة في شوارع

المدينة التي غمرتها المياه، هشاشة هذه القوة العملاقة القادرة على شن الحروب ذات التقنية العالية على بعد آلاف الأميال، بينما عجزت عن مساعدة المحتاجين من المواطنين وقت الشدة". (٣٩)

الملاحظة صحيحة في مجملها، والمفارقة لم تغب عن الرأى العام الأمريكي نفسه، لكن التوقعات التي يشير إليها الشهابي تخلو من الدقة، فضلاً عن أن فكرة "التمرد الداخلي"، إن صحت، هي شأن أمريكي لا يسهل الربط الميكانيكي بينه وبين معالجة الإدارة الأمريكية للحرب ضد الإرهاب.

المقال لا يقدم جديداً يختلف عن ما قدمه الكاتب في مقالات كثيرة سابقة، فهو يلح على تأكيد مجموعة المرتكزات التي أشرنا إليها من قبل، وفي طليعة هذه المرتكزات عنصران: فشل السياسة الأمريكية في الحرب ضد الإرهاب، ضرورة اللجوء إلى معالجات غير عسكرية من أجل التصدي لجذور وأسباب الإرهاب. ولكن هل من جهد عربي مسلم في هذا الإطار.. الكاتب ربما لا يرى ذلك على الإطلاق..!

تفجيرات لندن:

يمكن استنباط الموقف الذي تتخذه "القدس العربي" من تفجيرات لندن، عبر التوقف أمام:

- "رأي القدس"، المنشور في ٢٠٠٥/٧/١٤
- مقال للدكتور سعيد الشهابي منشور في ٢٠٠٥/٧/١٣
- مقال للدكتور عبد الوهاب الأفندي منشور في ٢٠٠٥/٧/١٩

"رأي القدس" يحمل عنوان "شارون واستغلال تفجيرات لندن"، والملمح الأبرز فيه يتمثل في ثلاثة عناصر:

أ- استغلال إسرائيل للعمليات الإرهابية من أجل تدعيم سياستها والدفاع عن الأعمال الإرهابية التي تقوم بها.

ب- الاستثمار الإسرائيلي السريع لحادث تفجيرات لندن، حيث انتشر الخبراء الإسرائيليون لتقديم النصائح عن كيفية مواجهة هذا الإرهاب.

ج- المقارنة بين وضعيتي إسرائيل وبريطانيا، على اعتبار أنهما نظامان مختلفان تماما ولا يمكن المساواة بينهما عند التعامل مع العمليات الإرهابية.

وتقود العناصر السابقة جميعا إلى أن إسرائيل مختلفة، ولا مصداقية لهـا فـي جملة السلوكيات التي تقوم بها!.

تقول الجريدة في الافتتاحية التي تعبر عن سياساتها:

" فرئيس الوزراء الإسرائيلي استغل بطريقة بشعة أحداث الحادي عـشر مـن أيلول (سبتمبر) عام ٢٠٠١ وتعاطف العالم معها لمواصلة سياسات العقاب الجماعية ضد الفلسطينيين في الضفة والقطاع، مـن قتـل وتـدمير واغتيـالات وتجريـف المزروعات" .(٤٠)

المسألة هنا، بعيدا عن العواطف والانتصار للمصالح العربية والإسلامية، أنـه لابد من التسليم العقلاني بحق إسرائيل في أن تستغل الحـوادث الإرهابيـة "بطريقـة بشعة" كما تريد، ذلك أن السؤال الجدير بالاهتمام هو عـن الموقـف العربـي؛ لأن توصيف السلوك الإسرائيلي لا يحمل جديدا، وما تمارسه من اسـتغلال هـو عمـل مشروع سياسيا، رغم عدم موافقتنا عليه وإدانته أخلاقياً، إلا أنه من العبث أن يقتصر التقييم على الجانب الأخلاقي، معتمداً على الشعارات الإنشائية التي لا تعترف بها لغة السياسة الدولية.

إلي من تتوجه الجريدة بتحليلها هذا؟ سؤال صعب الإجابة، فالرأي العام العربي قادر على استيعاب هذا التحليل والتحمس له، أما غير العرب فسيجدون فيه خروجـا عن سياق المناسبة التي تشغلهم، فلو أن إسرائيل لم تستغل العمليات الإرهابية لخدمـة سياساتها، فهل كانت عمليات التفجير التي شهدتها لندن لن تقع؟

لقد سارع الخبراء الإسرائيليون بالانتشار السريع بعد تفجيرات لنـدن وقـدموا نصائحهم وخبراتهم، أو كما تقول الجريدة:

" فالخبراء الإسرائيليون في مجالات الإرهاب انتشروا بطريقة ملفتة للنظر في بريطانيا لتقديم النصائح حول كيفية مواجهة الإرهاب، والاسـتفادة مـن التجربـة الإسرائيلية، وحاولوا أن يقدموا الإسرائيليين على أنهم ضحايا تمامـا مثـل سـكان لندن.

فقد شهدت الأيام الماضية العديد من هؤلاء يعرضون نظرياتهم عبر شاشات التلفزة وبرامج الإذاعة، رغم أن المقارنة غير واردة على الإطلاق بين ما حدث في لندن وما حدث ويحدث في تل أبيب أو القدس المحتلة". (٤١)

هدفهم الحقيقي هو التأكيد على أن إسرائيل تواجه إرهابا مماثلا يقوم به "الإرهابيون" الفلسطينيون، والجزم بأن "المقارنة غير واردة على الإطلاق" يعبر عن تصور الجريدة، ويعجز عن "تقمص" نفسية المواطن البريطاني، والغربي عموما، عند تعرضه لمقولات الخبراء عن الإرهاب المماثل الذي يتعرض له المدنيون الإسرائيليون!

مرة أخرى، تقدم الجريدة رؤية أحادية الجانب، وتنطلق من قناعة غير مبررة بأن القضايا العربية عادلة ومعروفة عند الجميع، وهو منطلق غير صحيح. وأول من يعلم هذا هم صانعو ومالكو الجريدة؛ لأنهم يعيشون بين ظهراني البريطانيين أنفسهم وفي كنفهم لسنوات عديدة.

اللافت للنظر أن الجريد تعقد مقارنة مطولة بين النظامين الإسرائيلي والبريطاني، من المنطلق الأحادي نفسه، فتقول ما نصه:

" إسرائيل تحتل أراضي عربية وترتكب قواتها المجازر في حق الفلسطينيين، وتنسف البيوت فوق رؤوس أصحابها، وتعتقل أكثر من عشرة آلاف أسير، وتبني الجدران العازلة، وتصادر الأراضي وتنهب المياه، وتقيم المستوطنات. بينما بريطانيا لا تحتل أرضا عربية، ولم تنسف بيوت الإرهابيين الأيرلنديين، ولم تقصف تجمعات الكاثوليك في أيرلندا الشمالية بالصواريخ والطائرات العمودية وغير العمودية.

لندن كانت ومازالت بلد التسامح والتعايش والمساواة بين كل الأعراق والأجناس والأديان، بينما يريد الإسرائيليون أن تكون بلادهم أرضا لليهود فقط، لا مكان فيها لغيرهم. ويعاملون العرب معاملة المواطن من الدرجة العاشرة، فرغم أنهم يشكلون خمس عدد السكان لا يوجد منهم وزير واحد ذو شأن في الحكومة، ولا سفير في دولة محترمة أو مهمة في العالم". (٤٢)

اللغة العاطفية غالبة على التحليل، والخلل الرئيسي يكمن في تصور غير صحيح بأن "الحقائق" المقدمة في السطور السابقة هي "حقائق راسخة لابد أن يؤمن بها الجميع، ولا مجال فيها للجدال أو المناقشة!. نقطة الضعف القاتلة أن تفجيرات لندن قد وقعت بمعرفة من يسمون أنفسهم استشهاديين إسلاميين، وما يحدث في فلسطين يقوم به فدائيون استشهاديون ينتمون إلى التيارات الإسلامية الفلسطينية، وهذا الانتساب إلى الإسلام هو ما يعطي مصداقية للخطاب الإسرائيلي، ويهدد ما تذهب إليه الجريدة من تأكيد الاختلاف الذي يجعل المقارنة غير واردة.

تنتهي الافتتاحية بمقولة مشابهة لما استعرضناه من قبل:

" الحكومات الديمقراطية تتصرف بطريقة حضارية منضبطة، ولا نعتقد أن إسرائيل تمثل نموذجا في هذا الإطار". (٤٣)

ومرة أخرى نتساءل: إلى من يتوجهون بكلماتهم هذه؟!، وأي معنى وجدوى في سلب الصفة الديمقراطية عن إسرائيل، بينما يمارس الإرهابيون أفعالهم الدموية، وهي بالضرورة غير ديمقراطية، من منطلق إسلامي، وبزعم الدفاع عن الحقوق العربية والإسلامية؟.

في اليوم السابق، ٢٠٠٥/٧/١٣ كتب الدكتور سعيد الشهابي مقالة بعنوان "إجراءات الأمن البريطانية فشلت.. ولم ينجح الإرهابيون".

يقول الشهابي:

"أهمية الأعمال الإرهابية الأخيرة ليست في توقيتها فحسب، ولا في حجم الخسائر التي ألحقتها بالأبرياء من الناس، بل ولا في ما أثبتته من قدرة المجموعات الإرهابية على اختراق الحواجز الأمنية المعقدة، بل في اختراق الدائرة التي كان الأمريكيون يأملون في حصرهم بها. الخطة الأمريكية للحرب ضد الإرهاب كانت تفترض إمكان حصر تلك الحرب داخل حدود العراق، وتخطط لاستدراج العناصر الإرهابية إلى ذلك البلد، ومواصلة الحرب ضمن حدوده، وبالتالي تجنيب الغرب عموما والولايات المتحدة الأمريكية بشكل خاص، مخاطر انتقال أعمال العنف إلى أراضيها". (٤٤)

ويسهب الكاتب في شرح أبعاد الخطة الأمريكية، التي نجحت جزئيا ومرحليا قبل أن يحدث الانقلاب ويعود الإرهاب ليهدد العمق الأوروبي. الملاحظة الأساسية على تحليل الدكتور الشهابي هي إغفاله لوجود عناصر من القاعدة داخل الأراضي الأوروبية، وأفراد هذه الخلايا النائمة لم يتوجهوا إلي العراق للتورط في الحرب الدائرة هناك، ومثل هذا الإهمال يؤدي إلى إغفال حقيقة انتشار الإرهابيين في أماكن شتى، وبخاصة في بريطانيا، تحت مظلات متنوعة كشفت التحقيقات بعد تفجيرات لندن عن الكثير منها.

يستمر الشهابي في منهجه الذي يحمل السياسة الأمريكية والغربية كل المسئولية عما يحدث من عمليات إرهابية، كما يستمر في إلحاحه على أن المدخل الوحيد لاستئصال الظاهرة الإرهابية يكمن في اتخاذ سياسة جديدة عادلة تجاه قضايا الشرق الأوسط، بل إن الأمر يتجاوز الجانب السياسي التقليدي، ممثلا في الصراع العربي الإسرائيلي، إلى أبعاد أخرى يتحمل الأمريكيون والغربيون – أيضا – مسئوليتها:

"كيف يمكن الخروج من هذا المأزق؟ لا شك أن عموم المسلمين يرفضون التطرف والإرهاب، وهم مستعدون للجهر بذلك وإصدار بيانات تشجب الإرهابيين وتندد بأعمالهم، ولكن ذلك لا يكفي لاحتواء شرور الإرهاب وعواقبه الوخيمة. فما دامت هناك مجموعات قادرة على اجتذاب الانتحاريين بسهولة، فسوف تستمر الأزمة. إن ظاهرة الاستعداد للقيام بعمليات انتحارية تستبطن حالة من اليأس والقنوط والجهل لدى قطاعات واسعة من الشباب، وهو أمر يتطلب اهتماما خاصا وفوريا من قبل الجميع. وإذا كانت أمريكا وبريطانيا جادتين حقا في مسعاهما لاجتثاث الإرهاب من العالم، فعليهما الاهتمام بهموم هذا العالم، وتقديم العون له، ومواجهة ظواهر الظلم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، بحزم وقوة وتصميم". (٤٥)

الاهتمام الأمريكي والغربي لن يكفي، والإرهابيون لا ينشغلون بالظلم الاجتماعي والمعاناة الاقتصادية والخلل السياسي، فهم ينطلقون في إرهابهم من إطار ديني عقائدي يتجاوز ذلك كله. ولو افترضنا جدلا أن القضية الفلسطينية قد

عولجت، وأن حركة الإصلاح الداخلي قد بدأت، فإن الهم الرئيسي هو أن ذلك كله لن يرضي من يريدون السيطرة الكاملة من منطلق ديني، وهذا البعد غائب تماما في معالجة الشهابي عبر كل مقالاته التي نشرها عن تفجيرات أمريكا وبريطانيا.

الحذر من البارانويا:

عن التفجيرات التي شهدتها العاصمة البريطانية، يكتب الدكتور عبد الوهاب الأفندي، في ٢٠٠٥/٧/١٩، مقالا عنوانه "ضرورة الحذر من البارانويا ومن تكرار أخطاء توني بلير".

يميز الكاتب بين الحوادث الإرهابية السابقة والحادث الجديد الذي شهدته لندن، ووجه الاختلاف الحقيقي أن من نفذ العمليات القديمة كانوا وافدين وليسوا من أبناء البلدان التي وقعت فيها الأعمال الإرهابية:

"أما في لندن، فإن الشباب الذين نسبت إليهم التهمة كانوا كلهم من مواليد بريطانيا ومواطنيها، وإذا كان ما ينسب إلى هؤلاء الشباب صحيحا، فإن أكبر نجاح حققوه هو توجيه أكبر ضربة لمكانة الجالية التي أصبحت في وضع لا تحسد عليه، بعد أن جردت من دفاعات الجاليات الأخرى التي كان بإمكانها أن تحتج على الاتهامات والقوانين الجديدة التي ترجم المسلمين وتعاملهم كمتهمين، وذلك بالقول بأن الهجمات التي تعرضت لها نيويورك وواشنطن ومدريد لا علاقة لها بالجاليات المسلمة في تلك البلاد.

هذه الحجج لم تمنع بالطبع البلاد المعنية من معاملة كل مسلمي البلاد كمتهمين حتى تثبت براءتهم، ولكن مسلمي بريطانيا بدءوا في معظمهم يعترفون بأنهم موضع اتهام، وقد تساقطت حججهم، وضعفت مقاومتهم للقوانين الجديدة التي ستحد من حرياتهم أكثر، بعد أن كانوا يشتكون من القوانين السابقة التي كانوا يرونها مجحفة في حقهم". (٤٦)

المستخلص من المقولة السابقة أن الخسارة الأولى الأكيدة قد لحقت بالمسلمين البريطانيين أنفسهم، وهو ما يكشف عن الدور السلبي الذي يقوم به الإرهابيون، في الوقت الذي لا تتحقق فيه أي ثمار إيجابية لأفعالهم.

ويشير الأفندي إلى أن تصاعد العداء الإسلامي، والوهابي تحديدا، للأمريكيين والغربيين، وسيق الصلة بالحرب ضد العراق بعد غزو نظام صدام حسين للكويت، فقد حتمت تلك الحرب وجودا غربيا لافتا في أراضي الجزيرة العربية، وأدى ذلك إلى الدفع بمزيد من الأعداء الذين لم يتقبلوا هذا الوجود الاستفزازي الذي يتصادم مع مشاعرهم الدينية:

"في هذا الجو المتوتر أصبح من اليسير على جماعات العنف تجنيد الشباب في صفوفها، وأنها مصادفة ليس إلا أن كانت أقوى الحركات النشطة في هذا المجال تعتنق العقيدة الوهابية. فحين دعا داعي الجهاد للدفاع عن الأمة في الستينيات، كان القوميون واليساريون هم قوام الحركات الفدائية وفي السبعينيات والثمانينيات، كانت تهم الإرهاب تلحق حصريا بالمنظمات الشيعية، ومن بينها حزب الله اللبناني، وحزب الدعوة العراقي وفي التسعينيات انتقل لواء المواجهة مع الغرب إلى قطاعات إسلامية سنية، وعلى رأسها المجموعات الوهابية التوجه مثل حركة بن لادن". (٤٧)

إذا صح التحليل السابق لتفسير النجاح في تجنيد شباب البلدان العربية وانخراطهم في صفوف تنظيم القاعدة، فماذا عن النجاح المماثل في تجنيد الشباب البريطاني المسلم، والشباب الغربي المسلم بشكل عام، على الرغم من نشأة هؤلاء الشباب في بيئة مختلفة لا يمثل الوجود الغربي استفزازا لهم؟ لا يجيب المقال عن السؤال، ويكتفي بالاجترار التاريخي الذي يتحمل المسئولية عما حدث ويحدث، وعما سوف يحدث:

"ولو أن الساسة الأمريكيين والبريطانيين استمعوا إلى صوت العقل وسحبوا قواتهم من السعودية في مطلع التسعينيات وساهموا جديا في إيجاد حل عادل للقضية الفلسطينية، لما كنا اليوم نواجه هذه المعضلة. المشكلة هي أنهم انسحبوا في نهاية

المطاف، ولكن بعد فوات الأوان، وهم سينسحبون من العراق عاجلا لا آجلا، لكــن بعد أن يكونوا ورطوا أنفسهم في حرب صليبية ومحاكم تفتيش قد لا يكــون هنــاك مخرج منها إلا بدمار العالم". (٤٨)

لا يمكن التشكيك في رفض جريدة "القدس العربي" للإرهاب وممارساته، كما أن البحث عن الأطر الشاملة للظاهرة الإرهابية مدخل ضروري لاستيعابها، لكن الخلــل الأساسي يتمثل في أحادية النظرة وتغليب العاطفة، والميل إلى ترديد الــشعارات ذات الطبيعة الإنشائية، ومثل هذا المنهج قد يحقق نجاحا عاطفيا، لكنه- يقينًا- لا يــستطيع اقتحام جوهر المشكلة!

وبعد، نلاحظ أن الصحيفتين موضوع الدراسة تشتركان في الاهتمام الواضح بمعالجة الحوادث الإرهابية المختلفة، كما أنهما تشتركان في اتخاذ موقف يرفض ويعادي فكرة العمليات الإرهابية، واللجوء إلى استخدام العنف.

لكن هذين المشتركين لا يحولان دون وجود تباين ملموس بينهما، يمكن رصد أهم ملامحه على النحو التالي:

أولاً: من الناحية الكمية، تبدي جريدة "الشرق الأوسط" اهتماماً أكبر بمعالجة الحوادث الإرهابية وما يترتب عليها من تداعيات، وهو ما يتجلى بوضوح في الجدولين اللذين صدرنا بهما كلا الفصلين.

ثانياً: من الناحية الكيفية، فإن الاتفاق العام على إدانة الإرهاب، فكراً وسلوكاً، لا يحول دون وجود تمايز، تميل فيه الكفة لصالح جريدة "الشرق الأوسط"، ذلك أنها تتخذ موقفاً بالغ الصرامة والوضوح في إدانة الإرهاب، والتأكيد على أنه لا يقدم خدمة موضوعية للقضايا العربية والإسلامية، كما أنه فعل لا يمكن تبريره أو الدفاع عنه أو التماس الأعذار للقائمين به.

على الجانب الآخر، لا يخلو موقف "القدس العربي" من مراوحة وازدواجية، تتمثل في الميل إلى تعميم الفكرة الإرهابية بحيث تطول القائمين بالإرهاب والمعرضين له، كما أن معالجات مقالات الرأي فيها تجنح كثيراً إلى البحث عن نتائج إيجابية وهمية للعمليات الإرهابية، فضلاً عن محاولات متكررة لالتماس الأعذار والتعامل مع الإرهاب كأنه "رد فعل" يمكن تفسيره على ضوء "الفعل" الذي تقوم به الولايات المتحدة.

إن الجريدة تختار كُتاب الرأي عبر تعاقد لا يتم إلا على ضوء الالتزام بالخط السياسي والفكري لها، وإذا كانت مقالات الرأي تلزم أصحابها في المقام الأول، فمما لا شك فيه أن سياسة التحرير تتوافق، بدرجة أو أخرى، مع الخط الفكري العام الذي تتبناه الصحيفة، فليس منطقياً أن يُنشر ما يتعارض مع هذا التوجه.

الهوامـــــش

١. ٢٠٠١/٩/٢١
٢. نفسه
٣. نفسه
٤. نفسه
٥. ٢٠٠١/٩/١٨
٦. نفسه
٧. نفسه
٨. نفسه
٩. نفسه
١٠. نفسه
١١. ٢٠٠٢/٩/١٠
١٢. نفسه
١٣. نفسه
١٤. نفسه
١٥. ٢٠٠٥/٩/١٣
١٦. نفسه
١٧. نفسه
١٨. نفسه
١٩. ٢٠٠٥/٩/١٧
٢٠. نفسه
٢١. نفسه
٢٢. نفسه
٢٣. ٢٠٠١/٩/١٩

٢٤. نفسه

٢٥. نفسه

٢٦. ٢٠٠٢/٩/١١

٢٧. ٢٠٠٣/٩/١٧

٢٨. ٢٠٠٤/٩/٨

٢٩. نفسه

٣٠. نفسه

٣١. نفسه

٣٢. نفسه

٣٣. نفسه

٣٤. نفسه

٣٥. نفسه

٣٦. نفسه

٣٧. نفسه

٣٨. ٢٠٠٥/٩/١٤

٣٩. نفسه

٤٠. ٢٠٠٥/٧/١٤

٤١. نفسه

٤٢. نفسه

٤٣. نفسه

٤٤. ٢٠٠٥/٧/١٣

٤٥. نفسه

٤٦. ٢٠٠٥/٧/١٩

٤٧. نفسه

٤٨. نفسه

فهرست

المؤلف فى سطور

✍ عبد الرحيم على :

- خبير فى شئون الحركات الإسلامية.
- كاتب صحفي بجريدة الأهرام.
- عضو نقابة الصحفيين المصريين.
- مستشار قناة العربية لشئون الإرهاب.
- أسس ويدير المركز العربي لدراسة الحركات الإسلامية.

✍ مؤلفاته :

١- المخاطرة فى صفقة الحكومة وجماعات العنف – دار ميريت .

٢- أسامة بن لادن الشبح الذى صنعته أمريكا – دار ميريت .

٣- المقامرة الكبرى – مبادرة وقف العنف بين رهان الحكومة والجماعة الإسلامية – مركز المحروسة للنشر والمعلومات.

٤- سيناريوهات ما قبل السقوط – مركز المحروسة للنشر والمعلومات.

٥- موسوعة الحركات الإسلامية (٩ أجزاء) – مركز المحروسة للنشر والمعلومات.

يتبع

(أ) الجزء الأول : حلف الإرهاب – تنظيم القاعـدة مـن عبـد الله عـزام إلى أيمن الظواهرى (عبد الله عزام) .

(ب) الجزء الثاني : حلف الإرهاب – تنظيم القاعـدة مـن عبـد الله عـزام إلى أيمن الظواهرى (أسامة بن لادن) .

(ج) الجزء الثالث : حلف الإرهاب – تنظيم القاعـدة مـن عبـد الله عـزام إلى أيمن الظواهرى (أيمن الظواهري) .

(د) الجزء الرابع : حلف الإرهاب – تنظيم القاعدة من عبد الله عزام إلى أيمن الظواهرى (أبو مصعب الزرقاوي) .

(هـ) الجزء الخامس : الحصاد المر .. الدولة وجماعـات العنـف الـديني فى مصر – ثلث قرن من العنف .

(و) الجزء السادس : الإخوان المسلمون – ازمة تيار التجديد .

(ز) الجزء السابع : الإخوان المسلمون من حسن البنا إلى مهدي عاكف.

(ح) الجزء الثامن : تنظيم القاعدة – عشرون عاماً .. والغزو مستمر .

(ط) الجزء التاسع : الجماعة الإسلامية المصرية – الرقص مع الذئاب.

٦- الإسلام وحرية الرأى والتعبير – مركز المحروسة للنشر والمعلومات.

٧- الإخوان المسلمون – فتاوى فى: الأقباط والديمقراطية والمرأة والفن – مركز المحروسة للنشر والمعلومات.

٨- الإعلام العربي وقضايا الإرهاب – مركز المحروسة للنشر والمعلومات.

من إصدارات المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات

عنوان الكتاب	اسم المؤلف
فكر بنفسك ! عشرون تطبيقا للفلسفة	ينسن زونتجن ترجمة : عبد السلام حيدر
العلاقات المصرية الأمريكية مع تحول القرن العشرين	د. حسن بكر
قضية الفنية العسكرية ١٩٧٤	مختار نوح
النظرية الاجتماعية والايديولوجيا	أحمد أنور
من النكسة إلى المشنقة	طلال الانصارى
حلف الإرهاب تنظيم القاعدة ج ١ : عبد الله عزام	عبد الرحيم على
حلف الإرهاب تنظيم القاعدة ج ٣ : أسامة بن لادن	عبد الرحيم على
حلف الإرهاب تنظيم القاعدة ج ٤ : الوثائق العسكرية	عبد الرحيم على
الحصاد المر .. الدولة وجماعات العنف الديني	عبد الرحيم علي
الإخوان المسلمون وأزمة التجديد في مصر	عبد الرحيم علي
الأخوان المسلمون فى فتاوى المرأة	عبد الرحيم على
الشيعة في العراق	د. أحمد راسم النفيس
رحلتى مع الشيعة والتشيع فى مصر	د. أحمد راسم النفيس
فى خطى الزرقاوى أوهام ووقائع وظلال	صلاح النصراوى
الأصوليات الدينية .. جدلية التنوع والصراع والوحدة	د. عبد الله شلبي
الإسلام وحرية الرأي والتعبير	عبد الرحيم علي
النكتة الشبابية على الانترنت	د. خالد منتصر
ديناميكية السياسة الخارجية والدور المصرى	د. جمال زهران
المرأة في الأعراف والدين	صفية صلاح الدين
حرية على الهامش.. في نقد أحوال الصحافة	كارم يحيي
العولمة والشركات الكبرى والفساد	أمل حمادة
تعليم الكبار فى الحضارات القديمة	د. إبراهيم محمد إبراهيم
أوسلو والسلام الآخر المتوازن	نايف حواتمة
تحولات جذرية فى الأردن	ناهض حتر
الجيش والحركة الوطنية	د. أنور عبد الملك
الجريمة السياسية	د. احمد أنور
استراتيجية التفاوض	د. محمد الشافعى
إدارة الوقت	د. محمد الشافعى
إدارة الأولويات	د. محمد الشافعى
إدارة الأزمات	محمد الشافعى
أوراق منسية من الثورة العرابية	د. حسين كفافى
جامعة الدول العربية والمجتمع المدنى العربى الاصلاح والنبرة الخافتة	د. عبد الحسين شعبان

عنوان الكتاب	اسم المؤلف
التربية المدنية فى الوطن العربى	كمال مغيث منى درويش
المرأة بين التمييز والمشاركة	د. إلهام عبد الحميد فرج
رؤية نقدية فى مناهج المواد الفلسفية والاجتماعية	د. إلهام عبد الحميد فرج
صورة المرأة فى التعليم	د. إلهام عبد الحميد فرج
أعاظم رجال الفكر معتقداتهم الفلسفية ومواقفهم التربوية	د. عبد المجيد شيحة
النشاط الاهلى	فريد زهران
التنشئة السياسية فى العملية التربوية	د. إلهام عبد الحميد فرج
المجتمع المصرى والجيش ١٩٥٢ ـ ٢٠٠٤	د. أنور عبد الملك
اخلاقيات العولمة دراسة فى آليات التشيؤ، وسلعنة الإنسان	د. أحمد أنور
الآثار الاجتماعية للعولمة الاقتصادية	د. أحمد أنور
الجرائم المعولمة دراسة فى سوسيولوجيا الجريمة	د. أحمد أنور
الفيروس الليبرالى الحزب الدائمة، وامركة العالم	سمير أمين
الاقتصاد المصرى من عهد التخطى ... الى عصر الامتيازات والخصخصة	عبد الخالق فاروق
البطالة بين الحلول الجزئية.. والمخاطر المحتملة	عبد الخالق فاروق
النفط والأموال العربية فى الخارج	عبد الخالق فاروق
علم الاجتماع فى الدول النامية	د. عبد الرحيم أبو كريشة
الانتماء الاجتماعى للشباب المصرى	د. نجلاء راتب
منظمة التجارة العالمية ومصالح شعوب الجنوب	د. فخرى لبيب
الدولة والحركات الإسلامية المعارضة	د. هالة مصطفى
الإخوان المسلمون والسياسة في مصر	د. حسن توفيق د. هدى راغب عوض
التنمية بين عقيدة الانماء وعقدة التطرف	د. يحيي عبد الحميد
الشباب والسياسة في مصر المحروسة .. البحث عن المشاركة	مختار شعيب
مفهوم المجتمع المدني ـ قراءة أولية	علي عبد الصادق
التراث والعولمة	د. عبد الرحيم أبو كريشة
الجمعيات التعاونية كمنظمات شعبية تنموية (٢ جزء)	عبد الغفار شكر
التطور التكنولوجي المصرى فى ربع قرن	د. محمد عبد الشفيع
رءوس الأموال الساخنة والأزمات المالية الاقتصادية	د. عزت عبد الحميد البرعى
الضريبة على القيمة المضافة	د. عزت عبد الحميد البرعى
الاقتصاد السياسي للإصلاح فى مصر	د. محمد أبو مندور
وحدة المنهج العلمى دراسة فى ازمة المنهج فى علم الاجتماع	د. أحمد أنور
أساسيات علم الاجتماع	د. عبد الرحيم أبو كريشة
تأملات فى الواقع الاجتماعى المصرى	د. عبد الرحيم أبو كريشة
الاتجاه السوسيوانثروبولوجى رؤية جديدة لدراسة المجتمع	د. عبد الرحيم أبو كريشة
القانون والواقع الاجتماعى (٢ جزء)	د. ثريا عبد الجواد

هذا الكتاب

قناتا "الجزيرة" و"العربية". وصحيفتا "الشرق الأوسط" و "القدس العربي". موضوع هذه الدراسة التي تعالج موقف الاعلام العربي من الارهاب.

قد يكون الظاهر المباشر، من بعض هذه الوسائل، مغايرا للرسالة الحقيقية المستهدف تقديمها. وقد تتحول شعبية بعض القنوات الفضائية، وتفوقها المهني النسبي، الى اداة لترويج وتبرير وتمرير الأفكار المتطرفة التى تهيئ للمزيد من العنف، وتنعكس بالسلب على مجمل القضايا العربية والاسلامية.

القراءة المتانية، التي يقدمها هذا الكتاب، تتجاوز المؤشرات السطحية التي يهلل لها البعض، وتسعى الى الكشف عن حقيقة الموقف من الارهاب والقائمين عليه: اهم يرفضونه حقاويحاربونه، أم انهمموضوعيايتخندقون معهمويسعون الى انتشاره؟!

يتوجه الكتاب الى القارئ الذي يرفض الاستسلام لدعايات الوهم، ويراهن على التفاعل مع الراغبين في اكتساب المزيد من الوعي، وامتلاك القدرة على رؤية مستقلة لا يحكمها الا المنطق، ولا يوجهها الا العقل.

هؤلاء وحدهم من يأمل المؤلف أن يقرءوه، بعقولهم قبل عيونهم.





